مها حسن

# تراتيل العدم

رواية



الكوكب
رياض الريس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES BOOKS

مها حسن

# تراتيل العدم

منتديات الكوكب العاشر

# المحتويات

منتديات الكوكب العاشر


**المقدمة** ١١

**الفصل الأول:** التعريف بالأشخاص ١٣

**الفصل الثاني:** التعريف بالأحداث ١٧٣

**الفصل الثالث:** بداية الرواية ٢١١

**فصل إضافي** ٢٧٩

**ملحق ١** ٢٩٦

**ملحق ٢** ٢٩٧

منتديات الكوكب العاشر

**«من حلّ اللغز الذائع الصيت وكان أشد الرجال اقتداراً»**

سوفوكليس

بيت من تراجيديا {أوديب ملكاً} يوصف به أوديب، وقد نقش على ميدالية مع صورة أوديب وهو يرد على سؤال أبي الهول وأهديت الميدالية إلى فرويد من أحد تلامذته في أحد أعياد ميلاده.

**[حذرتك ألا ترتل هذا النشيد، فيسكن في ذاكرتك، يأسرك ويلعنك، يفتنك فيستحوذ عليك، ولا يكون لك منه فرار، فيعدمك، وحيداً تموت وتشم رائحة رحيلك الأرض، ولن ينقذك**

**من عذابك إلا عيد يأتي في ربيع يتلو رمادك]**

تلك الصيغة، وُجدت منقوشة على ميدالية، تمّ تداولها بين عدة شخصيات، ولا نعرف أين استقرّت بها الحال في نهاية الرواية.

كما تم العثور على نوتة موسيقية، تحمل لحن تلك الصيغة، الصيغة التي دخلها حرز، بين أرض وسلالاتها، بين العهد والتميمة.

منتديات الكوكب العاشر

# المقدمة

منتديات الكوكب العالمية

في البدء، كانت هذه الرواية لـ جدار، ثم انتقلت كتابتها إلى جوزفين، ولأسباب محض فنية، أنجزت العمل باسمي أنا، مع عدم اضطراري لتأكيد واقعية شخصية جدار، وجوزفين، وغيرهما، إلا أنه وقع الاختيار عليّ لخروج العمل مذيَّلاً باسمي، لكوني الكائن الأكثر واقعية من بين مجموعة الشخصيات في هذه الرواية.

# الفصل الأول

## التعريف بالأشخاص

منتديات الكوكب العالمي

**[حذرتك ألا ترتل هذا النشيد، فيسكن في ذاكرتك، يأسرك ويلعنك، يفتنك فيستحوذ عليك، ولا يكون لك منه فرار، فيعدمك، وحيداً تموت وتشم رائحة رحيلك الأرض، ولن ينقذك من عذابك إلا عيد يأتي في ربيع يتلو رمادك]**

ألقى القائد نظرة أخيرة على كومة القش المعدّة كسرير، إذ مدّ فوقها بطانية عتيقة، وعلّى مكان رأسه، إذ يستلقي، فيتسنّى له أن يرقب المشهد كاملاً، وإذ استلقى، أشعل سيجارته ببطء، وأنهاها قبل نهايتها، رامياً إياها بين أكوام القش المتكدّسة تحته، ليأخذ السرير القشّي بالاحتراق ببطء، محرقاً معه كل ما يتكدّس فوقه، من بطانية سوداء، وجسد القائد.

أخذ السرير بالاحتراق، وتتالت روائح الاحتراق: قش، ملابس، لحم. وكان قد اغتسل قبل ساعات، وحلق لحيته وشعره، وقصّ

أظافره، وكأنه لا يستعد للقاء حلمه الذي ظن، بل للقاء الموت، الذي لم يظن. وحين تأوّه، لا من الألم، بل من ذكرى آخر وجه رآه قبل إعداد جسده للنار.

رفع نظره فوق السقف، باحثاً عن شيء لم يره، لم يعرفه، كأنه يريد للنار أن تلتهمه ببطء، فلا تسارع في إنهاء ألمه، بل، ليتألم ببطء، ببطء يزحف نحو الموت، لا دفعة واحدة، بل، على دفعات، وكأنه يموت أكثر من ميتة. يسيل جسده نقطة نقطة، فيروي ظمأ ضحيته إلى تعذيبه، ضحيته التي كانت تشتهي له عذاباً أشد، ولم يتمكن خياله من اختراع طريقة عذاب أشد. ألّا ينتهي بهزّة الموت العنيفة، بل، بالموتات المتتالية، دون موت حاسم.

ها هو يموت بالتدريج، ينتقل من موت لآخر، ويتنقّل الموت في جسده، من خلية لأخرى، يهدّ الساق، يصعد إلى الركبة، يغتال الفخذ، ثم يزيل المؤخرة من الوجود، وينهال على البطن إماتة، ويموت نتفة نتفة، ونقطة نقطة، وقطعة قطعة، وبقعة بقعة، وقطرة قطرة. إلى أن تصبح كلّيته في الموت، إذ يموت كلّياً بعد تعذيبه المتأنّي، وبعد نهاية القصّ الروي المتأني، إذ يموت، مع انتهاء هذه الصفحات.

**تجري أحداث هذه الرواية، بأزمنتها المتعددة، على خلفية مشهد احتراقه، أجل، يظل مشهد الاحتراق ثابتاً، بينما تتحوّل أزمنة القصّ، وتتعدد مستويات القص، وتتبختر راويات العمل، على خلفية آلامه.**

حين أعاد بصره إلى أرض المكان، لم يبصر سوى ألسنة النار المتراقصة حوله، ولم يحسّ بالبرودة، أو الحرارة، أو المتعة، أو الألم، بل: غاب المشهد.

صندوق الكوكب العاشر

غاب المشهد وكأنه ما كان، بل كأنه كان قبل خمسين عاماً، أو أكثر ببضع سنين، إذ ليس هو هذا الجسد الملتهب، بل إنه،

وسط الحمّام، المبني داخل القلعة الجديدة، وقف الصبي النحيل حرز، معرّى من ثيابه، ناتئ العظام، مرتجفاً من الخوف، والبرد، وهي تبلل شعره ببعض الماء، وتدعكه بالصابون طويلاً، لتملأ عينيه بحريق واخز، فيأخذ بالبكاء بنواح خافت، راجياً إياها صب الماء، لتخلصه من الألم والبرد.

ومع حيطتها ألا تصب ماءً ساخناً، «فيلطشونها»، ومع حيطتها ألا ينزلق لوح الصابون من يدها، فتشجّ رأس أحد القابعين تحتها، «فيلطشونها»، ومع حيطتها ألا تنتعل أحذية «تطقطق»، فتزعجهم، «فيلطشونها». ومع تتبعها لكل الوصايا الجديرة بحمايتها، وحمايتهم، وإبعادها عنهم، وإبعادهم عنها، فإن كل حرصها وحيطتها، كانت تفلت منها، حين تغسّل الصبي، في موعد حمامه الثابت.

إذ إنه كان كثير الحركة، وهي تعدّ في كثرة الحركة شيئاً منهم، فتضربه على رأسه، بـ«طاسة» الحمام النحاسية، ذات النقوش والكتابات الغامضة، والرسوم السرية المدلول، التي لا يعرف تفسيرها سوى راسميها أو حافريها على النحاس، ولم يعرف أحد مصدر تلك الـ«طاسة»، ويُظن أنها موروثة جدة عن جدة عن جدة، إلى جيل بعيد من الجدات الموغلات في الإرث والتوريث.

وحين كانت تدخله لتغسله، كانت تفقد حرصها، فتصرخ في الحمام، وتظل تصرخ، إلى أن، يبدو أن، فعلاً، يبدو أن ذلك قد تم، مع كل حيطتها وحرصها ومحاولة التزامها بالقواعد والمحظورات، إلا أنهم فعلاً قد «لطشوها».

إذ لاحظ حرز أن أمه تصبح امرأة مختلفة في الحمام، نعم، تصبح

امرأة غير أمه، فهي حين تثور وتغضب، تتغيّر ملامحها، ويشك في أنها أمه ذاتها التي يعرفها، وكأنها تتبدّل أو تتلبّس شخصية أخرى، أو أن امرأة غيرها، لا يعرفها، تسكنها. وما إن ترده تلك الخواطر، حتى يغلق عينيه، لا من ألم الصابون الحارق، بل لأنه يخشى أن يرى بغتة أمامه، امرأة ما، مخيفة، أو أن تتحول أمه إلى مسخ ما، مشهد لا يمكنه احتماله، وهو، أثناء إغلاقه لعينيه، يخطر له أن تلك الأصوات صادرة عن كائن ما، له صوت أمه، ولكنه لا يحمل وجه أمه، لذلك، فهو، يطبق عينيه بقوة، مرتعداً من احتمال أن يكون الكائن الذي يعرّيه ويغسّله ويضربه ويصرخ به كائناً لن يحتمله عقله، إذ إنها تبدأ بالتحول ببطء، فيتوقف عن مرآها بمجرد بدء التغير، إذ تنقلب أمه الصامتة، الهادئة، إلى شكل لا يشبهها، فتصبح بعيون متضخمة، وآذان متطاولة، وفم منفرج، وأسنان متقدمة، كبيرة، مدببة، لامعة، وأنف شديد البروز، ولسان متدلّ، ويدين متورمتين، وقدمين كأقدام البط، دونما أصابع.

وتتفق كل الأوصاف البدئية لتحولها، مع معلوماته عن نوع من الكائنات المخيفة، التي تملك إمكانية الظهور أحياناً بمظهر بشري، دون أن تكون أساساً من البشر، فيتوقع حرز تحوّلها الكلي، فيغلق عينيه ويغيب.

وأما هي، فكانت، ما إن ترى ذلك البروز بين ساقيه، حتى تمسك به تريد بتره، صارخة: لم أكن أريدك أنت، لا أريدك أنت. وتستمر بتكرار تلك الجملة.

وأما هو، فمن شدة توقعه للأذى في كل لحظة، صار لا يتقن من الأشياء سوى الحيطة من الأذى، ففقد بذلك إتقان أي أمر آخر يتقنه أقرانه دون مهارة، كالسير والدراسة والطعام والكلام.

منشورات الكوكب العاشر

نعم، أما هو، فكان ما إن يفتح فمه بالكلام، حتى تتراشق كتل الأحرف والكلمات من فمه، دون ترابط، فتملأ وجه السامع بالرذاذ الحروفي، دون فحوى الكلام، فعانى حرز دوماً، من أنه غير مفهوم. وأما هو، نعم، أما هو، حين كان يسير، كان يفعل ذلك محني الظهر كالكهول، متدلّي الرقبة صوب أحد الطرفين، وكأنه يحمل أفكاراً أثقل من وزنه، تمنع رقبته من الاستقامة، وتجبرها على الميلان، حتى صار يدعى بين أقرانه بالمائل.

**تتعدد مستويات القصّ في هذه القصة، على خلفية مشهد احتراقه الثابت، أجل، يظل مشهد الاحتراق ثابتاً، بينما تتحوّل أزمنة القص، وتتعدد مستويات القصّ، وتتبختر راويات العمل، على خلفية آلامه.**

وكان ذلك الكائن المائل، يمكث طويلاً في الحظائر، إذ كان يعاني من تهديد كائنين: أمه وشخص آخر.

داوم حرز على الحظائر وكل الأمكنة التي تؤمن له الحماية من مخوّفيه، كالسقيفة، قنّ الدجاج، المراحيض النائية. هارباً من أمه التي تهدده بكل ما تحمل من خزانات الحكايات المرعبة {بشر يتحولون إلى وحوش، بشر يلتهمون الأطفال، كائنات لا مرئية تعيش وسطنا وتسبب لنا الأذى، أشخاص يتلبّسون الماء أو الهواء يهاجمون الصغار، قد يتدلون من الجدار مرة ليلتهموه أو يبتروا ذكره}، وعمه الذي كان الأقدر فعلاً على إخافته، حتى أنه يكاد يسبب موته من شدة الرعب في كل مرة.

كان حرز وإغماء يقضيان أمسيات طويلة معاً، على ضوء العتمة، أو في عتمة الضوء {إذ إن ذلك المصباح الذي يدعى هكذا، لا يعد

كذلك، فهو لا يُري الأشياء كما هي، ليكون مصباحاً، بل يقلبها إلى ما ليست هي، فيرى حرز الكرسي رجلاً، والطاولة خنزيراً، والمشجب زرافة، والباب سماء} وكانت إغماء تثرثر له عن قصص الجن والعفاريت، إلى أن يغفو في قلب التعرّق ودقات قلبه العنيفة، محاطاً بكائنات تتجوّل حوله، لا يراها، يحس بها، تمسك به، تشده، تعضّه، تقرصه، تسحبه، تعيده، تستعيده، تعيره، تستعيره، فيغفو متهالكاً من قتال يمارسه عليه أشخاص لامرئيون، لهم الحق في تعذيبه كما يريدون.

أما رؤية، {لا أعرف لماذا لا يُؤخذ بالحسبان موضوع التذكير والتأنيث في تسمية بعض الشخصيات}، عمه، أقول أما رؤية، ولا أقول، أما هو، أجل، أما رؤية ـ يا للفذلكة ـ عمه التالي لأبيه، فكانت له آراء غريبة، إذ كان يحب الشعر، ويحلم بأن يكون شاعراً، وعندما فشل في ذلك، نقل غرامه الشعري، أو حلمه، ليضعه في ابن أخيه، إلا أن حرزاً كان عاجزاً عن تجسيد حلم عمه، فأخذ رؤية يحاول من جديد، مؤمناً بأهمية الخوف في تجسيد الإنسان للفن، باعتبار الخوف أهم سبب لخلق الفنان، وكأن حرزاً كان ينقصه من الخوف، ما يجعل عمه يكمله له، فيخلق لدى الصبي خوفاً أكبر من أن يكون هاجساً فنياً، بل يحوله إلى كائن اسمه: المائل من الخوف.

حين هرب من أمه، ذات مرة، إلى الحظيرة، وفي العتمة الموغلة في عتمتها ـ يا للفذلكة ـ[1]، وفي العتمة الشديدة الإعتام ـ يا للفذلكة ـ كان يقف لاهثاً من الركض، وحين توقف ليستردّ

(١) تعليقات من إحداهن على إحداهن.

أنفاسه لدقائق، وما إن رفع قدمه لينقل خطوته، حتى تجمّدت قدمه في مكانها، ففقد أنفاسه المستردة للتو، وتجمّد من الرعب، وحاول سحب قدمه اللاصقة بالأرض بقوة، لكنه فشل، وكأنها صارت جزءاً من الأرض ذاتها، فأخذ بغتة بإطلاق صوت مرتعد، مستغيثاً من كائنات أمسكت بقدمه، وقد تسبب له المزيد من الأذى، وما إن دوّى صوته المذعور، حتى سمع صوتاً لم يميزه بداية، ثم عرف فيه صوت رؤية الذي قال: هيه، على رسلك، ماذا أصابك؟! وأُضيء المكان حوله بنور «بطارية» كانت بيد رؤية، فنظر حرز إلى ما حوله، ليرى حذاءه مربوطاً بحبل متين بمسمار في الأرض.

وضحك رؤية: يا رعديد، ممَّ تخاف؟!

ومرة ما، كان حرز يغوط في مرحاض أحد الأهالي، هارباً من أمه التي نوت ضربه كالعادة، وهاجمته الحاجة البغيضة الملحّة، فدخل إلى مرحاض دون سقف، وإذ هو، أثناء تغوّطه، يرى أفعى تتدلّى من أعلى المرحاض غير المسقوف، وتقول له بصوت أنثوي مائع: لا تخف يا حبيبي، أنا ملكة الشعر، جئتك بالوحي.

فهرول الصبي من المرحاض، دون غسل أو تمسيح حتى، وإذ به يرى، خلف جدار المرحاض، عمه رؤية، ممسكاً بأفعى ميتة، يقلّد صوت النساء، وينفجر بوجه حرز: يا رعديد، ممَّ تخاف؟!

وحين نهض من نومه، في مرة أخرى، على أصوات تهمس في أذنه، وكائنات تعبث بمؤخرته، وسيقانه، تلفّت حوله، فوجد امرأة عجوزاً بشعة الملامح، مكسّرة الأسنان، تقول له بصوت مرعب: أيها الولد الحقير، ألن تكف عن إزعاجنا بصراخك وأنت نائم؟!

منتديات الكوكب العامر

ارتجف حرز من الرعب {كم تتكرر تلك المواقف، الرعب} وصرخ بصوت انشقت له الجدران: أمـــي!

إذ ذاك، سقط وجه العجوز الدميمة على فراشه، ليظهر وجه عمه رؤية وقد تقنّع بوجه ابتكره، مستغلاً استغراق الصبي في النوم، مما جعل الأمر يختلط عليه، أي على حرز، فلا يميز وهو لم يستيقظ كاملاً من نومه، بين القناع، والوجه الحقيقي، ولا سيما أنه يتوقّع في كل مرة، أن يقع عليه أذى من ذلك النوع، دخلت إغماء مذهولة من صرخة الصبي التي كادت تحطّم الجدران:

ـ ماذا يجري؟

ـ ابنك الرعديد يرى منامات يصدّقها.

كم كان يعثر على أيدي قطط مذبوحة، وجثث جرذان. وذات مرة، وفي فراشه، عثر على رأس مقطوع، وحين قفز من استلقائه، كان رأس خروف حقيقي، لا قناع!

والمشكلة أنه حين يتذكّر الرعب الذي مورس عليه من عمه، وتهديدات أمه، يخلط بين ما حدث فعلاً، وما توهّم آنذاك حدوثه، إذ:

كان، أيضاً ذات مرة، يقطف رماناً من بستان لا يعرف أن صاحبه مجنون، وقد طلب منه رؤية قطف الرمان بمشاركته، وحين جاء صاحب البستان، هرب رؤية، تاركاً حرزاً وحده، ليهاجمه المجنون، ويحاول حرز الهرب حافياً، وتستمر المطاردة لوقت يخاله حرز طويلاً للغاية، وهو يلهث من الرعب والتعب، وحين يصل حرز إلى

مسلديات الكوكب العاشر

بيته، ليرتمي في حضن أمه مستغيثاً، بينما أخذت إغماء تضحك بغباء، قائلة للمجنون، وهي ترمي إليه بابنها: خذه، إنه لك! لتزداد مخاوف الصبي، إذ يصرخ تلك الصرخة المتكررة في كل مرة، حتى تصبح جزءاً من رعبه المستمر، ويسميها رؤية مازحاً، صرخة الختام، إذ في ختام الرعب، يُنهي حرز رعبه بتلك الصرخة، وحين صرخ حرز تلك الصرخة المدوية، أنهى رعبه، أو ختمه، في تلك المرة، بإغماءة، مغيّراً من ختام رعبه، متحوّلاً إلى وارث للقب أمه، إغماء!

**تجري أحداث هذه الرواية، بأزمنتها المتعددة، على خلفية مشهد احتراقه، أجل، يظل مشهد الاحتراق ثابتاً، بينما تتحوّل أزمنة القصّ، وتتعدد مستويات القصّ، وتتبختر راويات العمل، على خلفية آلامه.**

وأما إغماء مورثة اللقب لابنها، وحاملته أساساً، فسوف يظهر في القصّ القادم، سبب تحولاتها، إذ ترى ذكورة ابنها، ولا أريد استباق القصّ، فأوضح حقها في ذلك الصراخ والرفض، بجملتها الشهيرة: لم أكن أريدك أنت، لا أريدك أنت.

لذلك كان حرز يجهد في إخفاء ذاكه عن أمه، وفي إخفاء كل جسده، وكل حضوره أمام عمه، إذ ما إن يلمح رؤية حرزاً حتى تبدأ مسلسلات الترهيب والترعيب، وما إن يلمح حرز عمه رؤية حتى يختفي عن الأنظار {في السقيفة، قن الدجاج، المراحيض النائية} إلى أن يرحل ذلك العم.

وفي كل مرة، يجلس فيها حرز في السقيفة أو الحظيرة أو أي مكان آخر، كان من المدهش، أن عمه يستطيع العثور عليه مهما كان مخبأه جديداً ومبتكراً، ويدس له بعضاً من مؤامراته في دفاتره،

منشورات الكوكب العاشر

وفراشه، وملابسه، وفي أماكن اختبائه {حشرات، ديدان، زواحف}، إذ يهرب الصبي من عمه، ليجد قطة شرسة تهاجمه، وما إن يشرع بإطلاق صرخته، حتى يسمع صوتاً مألوفاً لديه: يا رعديد، ممَّ تخاف؟!

لقد صار الصبي يفتش سريره قبل أن يدخله للنوم، ويقلب دفاتره في الهواء قبل أن يفتح صفحاتها، ويبحث في جيوبه وجواربه عن مصائب ما، قبل ارتدائها.

وصار أيضاً، يرتدي سراويل عديدة، ليحسّ بأمه، إن حاولت تنفيذ تهديدها ببتر ذاكه، وكم استيقظ من نومه على أيد تتلمس ذاكه، ويتساءل أهي أمه الراغبة في إطعام عضوه للقطط والفئران، أم عمه يلهو معه ليخيفه ويسخر منه: يا رعديد، ممَّ تخاف؟! أم تلك الكائنات اللامرئية تحاول خطف ذاكه، أو استعارته، أو أخذه بكامله {حرز} إلى أماكن ما، سرية، مجهولة، موغلة في الغموض.

لقد نشأ القائد، تلك النشأة، لا أحد يصدّق أن تلك هي نشأة القائد، نشأة مغمّسة بالرعب، وصرخة الختام.

**[حذرتك ألا ترتل هذا النشيد، فيسكن في ذاكرتك، يأسرك ويلعنك، يفتنك فيستحوذ عليك، ولا يكون لك منه فرار، فيعدمك، وحيداً تموت وتشم رائحة رحيلك الأرض، ولن ينقذك من عذابك إلا عيد يأتي في ربيع يتلو رمادك]**

حين وجد نفسه وحيداً في القلعة، وبعد أن تفحّص المكان، وتأكد أن لا أثر لعمّه فيه، وقد غادرت أمه، تعرّى، واقترب من مكمن خوفه، ممسكاً إياه بيديه الاثنتين، محاولاً تحمّل الألم والخوف، مقرّراً

انتزاعه، ليتخلّص من أمه أولاً، ثم يتفرّغ ليجد حلاً لعمّه، وأخذ يشده، ليقتلعه من جذوره، كأنه نبات مزروع في التربة، ويمكن اقتلاعه دون ضرر، ولكن يبدو أن جذره كان ممتداً في العمق، ربما يصل إلى قدميه، وقع من الألم، ولم ينقلع اللعين!

اعتقد حرز أن الحل الأمثل، يكمن في بتره إذن، وكلما نما مجدداً {طالما أن الجذر موجود} سوف يقطعه، واتّجه إلى المطبخ جالباً سكيناً قوية وحادة، وحين حزّ السكين على ذلك المكان، أحسّ بألم شديد، وبغتة، نفرت دماء قليلة، فأحسّ بالخوف، فقد أرعبه مشهد الدم، ولكن رائحة الدم الطازجة، سوف تترك فيه لذة قادمة. ارتدى ملابسه، وذهب إلى حديقة قلعة جده، في الجزء الخلفي من الحديقة، حيث لا يأتي أحد إلى هناك، دون أن يعرف سبب هجران تلك البقعة، إذ نبتت أعشاب وحشية، وأهملت نساء أعمامه ذلك الجزء، فكأنه لا يرتبط بالقلعة، أو كأنه بناء مستقلّ، وهناك، أعاد محاولة التخلص من ذلك الجزء المتسبب في تخويفه، خلع بنطلونه، وربط عضوه بحبل، وربط الرأس الآخر للحبل بجذع شجرة التوت القوية، وأخذ يشد جسده، ليقتلع «ذلك النتوء» من جذوره، كما تخلع الضرس المسوّسة.

وسقط مغمياً عليه من الألم، وحين صحا، نظر إلى تلك النبتة اللحمية، ليجدها في مكانها، دون أن تنخلع!

ارتدى ملابسه بأمان، هنا، لا يأتي رؤية، ولكنه، واه، رأى ما لم يره غيره!

إذ مرّت أفعى بألوان زاهية بشدة، توقفت أمامه ونظرت إليه كأنها كائن بشري، وحين ظن أنها لعبة مطاطية، أو إحدى مؤامرات عمه،

ابتسم لها: كشفت المؤامرة هذه المرة، لستُ رعديداً ولن أخاف، فقالت له الأفعى: يبدو أنك تنتمي لأرض. ولم يفهم قولها، وتأكد من أن عمه قد تقنّع بالأفعى، فأمسك حرز بحجر ليضرب عمه ويشجّ رأسه، وإن آذاه، ادّعى أنه ظن أنها أفعى فعلية، ودافع ضد أذاها، ولكن الأفعى اندهشت، فقالت: لماذا تضرب يا ولد؟ أن لا تخاف مني، لا يعني أن تضربني، كفّ وإلا آذيتك، إن أرضاً تشفع لك كثيراً لدي.

وسرت قشعريرة في جسد الصبي، ماذا لو أنها أفعى حقيقية، وليست مؤامرة من رؤية؟!

**حذرتك ألا ترتل هذا النشيد، فيسكن في ذاكرتك، يأسرك ويلعنك، يفتنك فيستحوذ عليك، ولا يكون لك منه فرار، فيعدمك،**

منتديات الكوكب العاشر

وحين غادر ما يشبه الدغل، لشدة تراكم الأعشاب والنباتات، رأى وكان ما يراه واقعاً بين الحقيقة والحلم، فلا يعرف إن كان يحلم، أو أنها حقيقة أمامه، تلك المرأة ذات الجسد الأفعوي، أم الأفعى ذات الوجه البشري.

أجل، انتصبت أمامه بجسد أفعى ووجه امرأة قائلة:

لولا جدّتك لما تركتك، ولولا اسمك لأوقعتك، إلا أني من أزمنة بعيدة أنتظرك، قد تنساني اليوم، ولكنني سأعود وأقابلك.

لم يفهم الصبي شيئاً مما سمع!

أخذت ألسنة النار تتراقص حول جسد القائد المستلقي على القش

بهدوء، وكان نظيفاً كما لم يبدُ منذ أكثر من ثلاثين عاماً، منذ وفاة سيمياء، التي غيّرا اسمها من خلاء، إلى سيمياء، بناءً على رغبة القائد، بعد أن غادرت مسكن ولادتها الأول، حيث لا بشر، لا كائنات، لا أحد سوى أمها، الشهيرة بأكل الأطفال والنساء.

وقبل وفاتها، ما كان يعرف الاستحمام، إذ ما إن تحرّر من حمامات أمه، حتى صار الاغتسال في البحيرة هو البديل من الحمام السابق، وهو وسيلة التنظيف المبتكرة، إذ لا صب للماء، ولا صابون، ولا تفريك ودعك، بل، يغطّ رأسه في ماء البحيرة عدة مرات، وينفضه، فتنزل خصلات الشعر الأملس على وجهه، ثم سرعان ما تعود إلى وضعها الأسبق، جعداء، حين يجف عنها الماء، فيعود رأسه كبيراً، منفوش الشعر.

بدأت بعض خيوط من الدهن تسيل على القش، وثمة دماء متيبّسة، تتجمد ما إن تشوى بالنار. بينما هو يتابع استلقاءه الأخير، مازجاً الأزمنة والشخصيات، كما يمزج مشاعره وأفكاره، فلا يُعرف له خيّر من شرير، قاتل من قتيل، فنان من مجنون.

دارت عيناه في محجريهما، فانقلب المشهد من جديد.

أفردت أرض شعرها ودخلت الحمام الذي بناه حِرث واسعاً كقاعة تتّسع لعدة مستحمّات معاً، لا، لامرأته الوحيدة، ليتسنّى لشعرها الطويل الاسترخاء، والتمدّد، والاستلقاء، لأنه وحده، شعرها، كان يحتل مكان ثلاث نساء مستلقيات، لا جالسات، أو واقفات، وكانت إن وقفت، تجاوز، أي شعرها، قامتها ثلاث مرات، أو يزيد، لذا بنى حِرث الحمام واسعاً، ليخلص امرأته من إزعاجات ثني شعرها، أو طيّه، أو تجميعه. بل، كانت تفرده في أرض الحمام،

منشورات الكوكب العاشر

وتفلته، ليسبح حولها كصغار يحيطون بأمهم.

وكانت أرض تجمع شعرها في حضنها، وتغسله خصلة تلو الأخرى، مبتدئة به من آخره، إلى أن تصل إلى قمة رأسها، ثم تجففه، وتضفره ضفيرة واحدة، تلفّها ثلاث مرات، من فوق رأسها إلى تحت، ثم تدير اللفّة على شكل كعكة حول رأسها، كتاج، وكم كانت أوقات الحمام تستلزم وقتاً، فكانت أرض تخصص يوماً كاملاً لحمّامها، من كل سبعة أيام، إذ تنهض من الصباح المبكر لنهار السبت، وتوقد النار، ثم تكوّم الملابس الوسخة، إلى أن تشرق الشمس، فتكون أرض قد أنهت الغسيل، تنشره، وتدخل لتستحمّ، وحين تخرج من الحمام، تكون الشمس في الخارج، قد بدأت الاستعداد للغياب.

وكانت، بدءاً من مساء يوم الجمعة، السابق للحمام، تعدّ النباتات والأعشاب، وتنقعها بالزيت والماء والحليب، حتى تستعملها في حمام الصباح.

وكلما تغادر أرض الحمام، تكون متورّدة، مزدهرة، كأنها زرعت في جسدها أشجاراً وبساتين، أو كأنها، على الإطلاق، فقط أرض.

وكانت أرض تستلقي في سريرها، في نهاية ذلك النهار، بعد طعام العشاء مع حِرث الذي يعود متأخراً في أيام السبت، حسب اتفاقهما، أرض وحِرث، فتنام أرض بعد الطعام، إلى ظهيرة اليوم التالي، إذ يغادر حِرث دون أن تراه، لأنها تكون منهكة ومتكسّرة القوى من استحمام طويل في اليوم السابق، إذ تغسل شعرها المنقوع بالزيت والحناء والبابونج وزهر البرتقال وتجففه، وتغسّل جسمها المنقوع بالحليب والزيت، والعطور النباتية، وشتى أنواع الأشجار

منشورات الكوكب العاشر

ذات الروائح المميّزة، كالجوز، والزيزفون، والغار. تاركة الصابون والبيلون[٢] لآخر الحمام، وتفرك قدميها بحَجرة الحمام الخاصة، وتدعك جسمها بالكيس، والليفة، وتُسربله، أي جسمها، بالغناء والألحان والمواويل والماء والصابون والدفء والاسترخاء.

بعد زواجها بأسبوع {الحديث عن أرض}، وفي حمّامها الأول، وفي السبت الأول بعد زواجها، وقد غسلت أرض، ثم نشرت، الملاءات وأغطية المخدات واللحاف، وملابس حِرث، وملابسها، ودخلت مندهشة من وساعة المكان المخصص للاستحمام، وأفردت شعرها على بلاطه الملون، متمتعة للمرة الأولى في حياتها، بمكان واسع يمتد فيه شعرها على راحته، دون طيّ أو ثني أو لف أو تكعيك {جعله كعكة}، وكانت كل بلاطة من تلك البلاطات تحكي حكاية ما، نعم، في ذلك الحمام الأول، جلست أرض فرحة على أرض الحمام، ومدّت ساقيها على طولهما وأفردت شعرها على آخره، وملأت الأرض بالماء، وسدّت أمكنة تصريف الماء، فطاف الحمام بالماء الساخن، حتى غمر بطن أرض وساقيها، وظلت مغمورة بالماء، الذي نثرت فيه أعشاب البابونج، وزهر الأقحوان، وأوراق الكينا والجوز والغار، فكأنها، لا في الحمام، بل في عين ماء طبيعية، أو كأنها في إحدى جنات النعيم، وهي حورية من حوريات ذلك النعيم.

لم تتمكّن أرض في ذلك اليوم من الاستحمام، بل خصصت معظم الوقت للاسترخاء في الماء الساخن، والانزلاق على البلاط الأملس الناعم، الملون بشتى ألوان الطبيعة وألوان الحكايات، هذا الحمام

(٢) نوع من التربة الحمراء الخاصة، كانت تُستخدم للحمام، بعد أن تُنقع بالماء.

الجديد على العروس، بدلاً من حمام أهلها، ذي البلاط الخشن، المكسّر، حيث تضطر للاستحمام، محتذية نعلها الجلدية المفتوحة عند موضع أصابع القدمين، أما هنا، في هذا الحمام، فهي حافية، عارية، دافئة، ملتصقة بالأرض، يا لروعة الانسجام، أرض تلتصق بالأرض. يمتد المشهد إلى ما لا نهاية.

ويكاد المشهد الممتد إلى ما لا نهاية، ينقلب، لتعود الرؤية، والقصّ، إلى المستلقي على سرير من قش في أرض القلعة الثانية، لا قلعة أرض وحرث، بل قلعته، إلا أن متعة القصّ تجعلني أتمسّك بالمشهد ذاته، لأتابع ما حدث في السبت الأول للزوجة العروس: أرض!

إذ كانت لا تزال مخضّبة بالحنة والنقوش الحمراء والزرقاء، أحسّت {وكانت مغمضة عينيها لامتلائهما بالصابون، حين فتحتهما بغتة} أن شيئاً سريعاً مرّ على أرض الحمام، عبَر، لم تره، لكنها، كمن يحسّ بما خلفه دون أن يراه، أحسّت بأنّ ثمة شيئاً غامضاً يحدث، شعرت أرض برعشة خوف، رغم جسارتها، نهضت جارّة خلفها حبال شعرها المترامية توشوش حكايات البلاطات، وفتحت باب الحمام، وتركته مفتوحاً، دون قلق المرأة على عُريها، إذ لم تكن أرض لتتمثّل ما يقال عن المرأة قديماً وحديثاً، فهي امرأة أولى في حياتها، نمط أول، لا تملك نمطاً سابقاً، ولا تفكّر أن تكون نمطاً لغيرها، لا يهمها ما ظهر من قبل، ولم تسمع به أساساً. جلست على كرسي الحمام، تتعرّش المكان، كسيدة مطلقة للاستحمام، وكأنها تكاد تكون ربة الاستحمام، أو آلهة الاغتسال، إذ إن لاغتسالها طقساً جمالياً، نظائفياً، لا يوازيه أي طقس آخر للاستحمام، فيصبح ذلك النهار، نهار الحمام، موعداً للطبيعة لتنعم برائحة المسك والزعفران والغار والزعتر والجوز والزيزفون، وكثير من

الماء، والصابون، إلى أن يكاد يشعر الكائن الإنساني في أي مكان، بأن ثمة رائحة نظافة تأتيه من مكان ما، وتهب عليه نسائم خريفية عابرة، تخبئ إحساساً بالنظافة والانتعاش، دون أن يعرف ذلك الشامّ، أن ذلك من آثار حمّام أرض، آلهة الاغتسال!

{كانت جدتي لأمي مولعة بالاستحمام، وحين نقّبت في دفاتر اللباد التي دخلتها أرض بأسماء متعددة، أدركت أن جدتي، دون ثقافة منها، أو قصدية فكرية، هي من أنصار أرض، إذ كانت جدتي تدخل حمامها من الصباح، لتغادره مساءً، وتسخر من كل من تستحم منا بوقت قصير، مكررة جملتها: أنتنّ تبللن مؤخراتكن وتخرجن}.

وحين أخذت أرض ترتدي ملابسها، بعد أن أنهت حمامها متجهة إلى الغرفة المتاخمة للحمام، أحست بالشعور ذاته، أن شيئاً، لحق بها من الحمام، وعبَر الغرفة، وهو معها داخل الغرفة، وإذ ذاك، فتحت باب الغرفة، وصرخت بصوت عالٍ على زوجها حِرث، مع علمها بغيابه، وعدم عودته حتى المساء، طبعاً حسب الاتفاق، لكنها حاولت الاستئناس بصوتها، وبذكر زوجها.

تركت باب الحمام مفتوحاً، وأكملت ارتداء ملابسها، مشوشة، مضطربة، لا يمكنها الذهاب إلى أحد {كل البيوت بعيدة، وهي تسكن وحدها في هذه الدار، التي سوف تتحوّل إلى قلعة في ما بعد} ولا يمكن أحداً أن يأتي إليها، في هذه البقعة النائية، محاطة بكلب حراسة قوي وضخم، تركه حِرث لدى امرأته العروس، منذ أسبوع فقط.

كانت تمتلئ إحساساً بأنّ ثمة أشياء غامضة تجري حولها، دون أن

تعثر على أثر مادي لها، لذلك أنهت حمامها قبل الأوان المرغوب، إذ كانت في حمام أهلها تستغرق وقتاً أطول مما استغرقته في ذلك الحمام الأول لزواجها، وكانت أمها، آنذاك، تدخل عليها بالطعام، فتتناول وجباتها الأساسية في الحمام، مستلقية على بلاط بلون واحد، أو مشرّب بلون آخر، فيصبح فقط باللونين، الأبيض والأسود، وكانت أرض تتميّع بالجلوس على أرض الحمام، مفترشة البلاط، متلذذة بالتلامس الحار بين جسدها، والبلاط الدافئ اللامع ببريق الماء وانعكاسات الأضواء، وفقاعات الصابون ـ رغم خشونته وقِدمه ـ إنها تماماً آلهة الاغتسال!

منتديات الكوكب العاشر

أما هنا، في هذا الحمام الجديد، فالبلاط مختلف، متعدد الألوان، متعدد احتمالات التفسير، مما أشرع العنان لخيالات أرض لقصّ القصص والحكايات، من خلال تتبّع مسيرة كل بلاطة على حدة، وارتباطها بما يشبهها، إذ إنه وإن بدت البلاطات واحدة، إلا أنه كان من الصعب العثور على بلاطتين متطابقتين، ففي كل واحدة ما يميّزها عن الأخريات، وكل واحدة تمثّل مشهداً قابلاً ـ في كل مرة ـ للتأويل، إذ مثّلت بلاطة ما، وجه ملكة متعرّشة على عرشها، وحولها كراس فارغة، والبلاطة الملاصقة لها، مثّلت وجه مهرج، والثالثة امرأة مادة لسانها بغيظ، والرابعة وجه رجل متكئ على عكاز فجلست أرض على البلاطات تفسّر كل حكاية لممالك آفلة، حروب، تشرد، اختطاف، هجران، رسائل حب.. إلى أن تصورت أرض أن في داخل كل بلاطة يكمن {يسكن} كائن توقّفت حياته، وانحبست داخل البلاطة، وصار مصيره متجمّداً داخل الحجر!!

**تجري أحداث هذه الرواية، بأزمنتها المتعددة، على خلفية**

**مشهد احتراقه، أجل، يظل مشهد الاحتراق ثابتاً، بينما تتحوّل أزمنة القص، وتتعدد مستويات القص، وتتبختر راويات العمل، على خلفية آلامه.**

حين وُلد حرز، ظل لعدة أسابيع دون اسم، إذ لم تكن أمه تستطيع إدراك أهمية الاسم في حياة الإنسان، ولم يكن أبوه مهتماً بتسميته، لأنه بإدراكه لأهمية الاسم، لم يشأ المساهمة في تحديد هذا الكائن الذي لم يعرف مصدره، فهو إن أطلق عليه اسماً سيئاً، حبس الولد فيه، وقد يكون ابنه، أما لو أطلق عليه اسماً هاماً، فقد يسبغ عليه صفات لا يستحقّها من هو ليس بابنه، لذلك، وباعتباره فألاً سيئاً أن يظل المولود دون اسم لوقت طويل، حملت إحدى سلائف إغماء المولود، وذهبت به إلى أرض، التي وقع عليها اختيار الكنّة من أجل تسمية المولود.

نظرت أرض طويلاً في وجه الصبي، وكانت تحسّ بحزن لم يتوقّعه أحد حولها، فلماذا تحزن أرض وهي تستطيع فعل المعجزات، هي التي يلجأ إليها جميع فاقدي الأمل، لتحل مشاكلهم، فهل ستعجز عن التدخل لإنقاذ حفيدها؟

نظرت إليه مجدداً، فعبس الصغير بوجهها ـ أكان يدرك ما ينتظره؟ ألسعته النار منذ ذلك الحين؟ ـ إلا أنه ما بكى كما ينبغي لصبي في عمره وموقفه، فهمست في أذنه: أُسميك حرز، لأحميك باسمك، من الوقوع في أسر ما أُسرّ لي، إلى أنه سيقع عليك، سوف تنسى ما قلته لك، وتتذكّر فقط أن اسمك هو حرز، ونادت على جميع الكنّات، وسمعت إغماء صوت جدة الصبي ينتشر في أرجاء القلعة: ليُسمّى هذا الصبي حرزاً، أباركه، ولتحلّ عليه الحيطة والحذر، ابنكم الجديد حرز.

منتديات الكوكب العاشر

حملته زوجة عمه، وانطلقت به ناشرة اسمه بين كل من سمع، ومن لم يسمع.

أما هو، حرز، أتراه نسي تلك الصيغة المهموسة في أذنه منذ الأيام الأولى لولادته؟ لا أدري، لكن مشهد الاحتراق الذي يجري قبل بداية هذه الرواية، يترك احتمالاً، أن تلك الصيغة قد زرعت فيه شيئاً من اللانسيان، [**أُحذّرك ألا ترتل هذا النشيد،**]!

وفي الأسبوع الثاني لحمامها، وبعد أن أنهت استعراض حكاية كل بلاطة {بما أن المشاهد كانت قابلة للتأويل، فإن الحكايات الجديدة، كانت مختلفة عن حكايات الأسبوع الفائت، وللبلاطات ذاتها}، ثم نقعت أرض الأعشاب المتنوعة من بابونج وليمون وزعتر وكينا وأقحوان وزهر أحمر وأصفر وبنفسجي. ثم دعكت شعرها بمنقوع الأعشاب، وراحت تغسّله بالصابون والكثير من الماء، حتى أخذ شعرها يلمع كحدّ السيف، ويتوهّج باحمرار بلون غياب الشمس، أو بلون الاحتراق، فكأن شعرها حكاية قفزت من باطن الأرض، إلى رأس هذه المرأة المدعوّة بأرض، أو كأنه كائن مستقل عنها، تخفّى في شكل شعر، وصار شعرها، وكانت أرض تتلذّذ بالماء، وتشهق ساكبة الماء على جسدها المعطّر بالأعشاب والنباتات، المتسربل بالأغاني والفرح، فرح الاستحمام، نشوة الاغتسال، انتعاش الروائح، صحوة الماء، جمال النظافة، ولا أنسى أن أذكّر أن كل من تأتيه رائحة انتعاش من بعيد، مع نسمة رطبة لذيذة الرائحة، يكون ذلك قادماً من آثار آلهة الاغتسال، العزيزة أ، واه، قبل أن أتابع، ها هو شيء ما عبَر، أحسّت به أرض وقد عبَر بين خصلات شعرها المسترخية على البلاط، وحين فتحت أرض عينيها، رأت ظلاً لشيء لم تسرع في التقاط شكله، فحدّثته بصوت مسموع، مستجمعة قواها:

منتديات الكوكب العاشر

{أيها الشيء الذي تلاحقني منذ الأسبوع الفائت، كن شجاعاً واظهر لي، لا يليق بك الاختباء إن كنت شيئاً تتمتع بالاحترام، أما إذا كنت تافهاً، فأنصحك بمتابعة الاختفاء، ومطاردتي دون مواجهة، لأنه لا يحق للتافهين الظهور، هيا، أنتظر منك أن تكون لائقاً بك، لأني أتوقّعك شيئاً محترماً، هيا، اظهر «وبان، عليك الأمان» قف أمامي، وقل لي من أنت}.

وانتظرت للحظات، مذعورة، يكاد يُغمى عليها من الخوف، متوقّعة رؤية شيء مادي، لا مجرد تخيّل أو تصوّر، شيء قد يكون إنساناً، رجلاً، امرأة، أو يكون حيواناً، قطة، فأراً، أفعى. وكانت أرض تستعدّ للمواجهة، بقوة لم تتصوّر امتلاكها {يبدو أن المرء يُفاجأ أحياناً بامتلاكه لما يجهله، ويكتشفه في الأوقات الحرجة والأزمات} وتصدّت أرض لكل ما سيحدث، حتى إن ظهر أمامها إله ما، سطعت شمسه على أرض الحمام، وبهر عينيها مشهد سطوعه. أحسّت فجأة بالبرد، وتذكّرت أنها عارية، وأن الماء البارد {والعرق} أخذا ينقّطان من جسدها، وشعرها السابح في ماء الحمام، دون إكمال الاغتسال، وانتظرت العروس تلك المواجهة، وإذ، صدق توقّعها، إذ بدأ بالظهور.

شيء زاحف على أرض الحمام، عبَر بسرعة لم تستطع أرض خلالها تحديد ما هو، جلست على الأرض فاتحة ذراعيها وساقيها، ناثرة شعرها حولها كرداء، أحمر هو، أو برتقالي، أو أسود، ألوان مختلفة، وفي كل مرة يأخذ لوناً ما، تابعت أرض حديثها بصوت مؤثّر وحنون، بصوت «يُخرج الحيّة من درخوشها»: حسناً أنا لم أخف، إذن تستطيع أيها الشيء أن تظهر كاملاً، هيا، لقد برهنتَ لي أنك شيء محترم، هيا، أكمل احترامي لك.

وإذ ذاك، تدلّى من سقف الحمام، المثقوب بفعل فاعل، شيء متطاول، ثم وقف أمام أرض، التي أخفت انشداهها وتعجّبها وخوفها، ونهضت من جلستها، لتقف أمامه، وجهاً لوجه، وقامة لقامة.

يا للمشهد، شعرها السابح حولها، اللامع ببريق عجيب، يدثّرها، وهو ينقّط بالماء والصابون، وقبالتها تماماً، تقف أفعى، نعم، واقفة على طولها، طويلة، ثخينة، ولولا جلدها الأفعوي، لظنّتها أرض امرأة مثلها، تقف بقوام ناهض، ناظرة إلى أرض بعينين برّاقتين كإشعاعات الشموس والأقمار والنجوم، ابتلعت أرض ريقها الجاف، مستجمعة قواها، متحدّثة بكثير من التكلّف في الابتسام: أهلاً بك أيتها الصديقة الجميلة، هل لي أن أعرف سبب مطاردتك لي، وما تريدين مني؟

كانت الأفعى جميلة بالفعل، جلد ملوّن بالأخضر والأحمر والبرتقالي، كأنها ملفوفة بسجادة مشغولة بخيوط فنان، أو كأن راسم جلدها فنان لا يفوقه أحد مهارة ودقّة وإتقاناً.

وكانت أرض تحسّ بشعورين متداخلين: الخوف مما ظهر أمامها، والإعجاب والانجذاب نحو جمال ما ظهر {أنحبّ ما نخافه، أم أننا ننجذب تجاه ما يخيفنا، فيسلبنا أنانا، ويجعلنا نحبه، اتّقاء خوفه. أحب، أنجذب، أخاف. أيهم هو الأدق، وهل يجتمع اثنان منهم معاً، أم ثلاثتهم؟}.

وردّ صوت بالغ العذوبة، كأنه غناء، صوت ذو رنين عجيب، كلام منطوق ومفهوم، كأنما بشر يقوله، ذو دقّة في الاستخدام.

منتديات الكوكب العاشر

## قطع

وقفت العدسة عن متابعة المشهد، لا لسريّة حديث الأفعى، ولكن لرغبة أرض التي استأثرت بالأفعى، وكأنها أكثر من أم، ومن زوج، وابن. وسوف تتّضح للقارئ، فرادة العلاقة، وغرابتها، تلك التي نشأت واستمرّت بين الاثنتين، أفعى وأرض.

**تجري أحداث هذه الرواية، بأزمنتها المتعددة، على خلفية مشهد احتراقه، أجل، يظل مشهد الاحتراق ثابتاً، بينما تتحوّل أزمنة القصّ،**

تلتقط الحدقة مشهداً قديماً، لتستحضره، لا كما كان بدقّة، بل كما يمكن استعادته، ضمن إمكانات الذاكرة، والصور الممحوّة للبعض، في أجزائها، والعتيقة في حالات، إلى حد الاقتراب من التلف، لكن، في حالات أكبر، مزروعة بما لا يمكن حصره لمرة واحدة، لأنه ينمو تلقائياً.

إذ كان يلهو مع نجمة، ومرت بهما أمها سماء، وجلست تلاعبهما، إذ مرّ فجأة، واختبأ، بين كومة الأحجار، كائن البربختي[٣]، فنهضت إليه سماء، ورمت عليه بمنديلها الأبيض الشفاف قائلة: يا بخت نجمة؟ فتلوّن البربختي بلون زاه جميل، وحين نزعت عنه المنديل، ورمته ثانية، قائلة: يا بخت حرز، اسودّ الحيوان، وصار داكن اللون.

---

(٣) ضرب من الزحافات، كلمة مركبة من «بر» بمعنى «مع» ومن «بخت» أي الحظ: أي مع الحظ. «بربخت»: أي مع الحظ، يريدون، نقبعك على نية كشف طالعنا، ثم يرفعون القبع، ويحكمون على طالعهم حسب لون الحرباء. الأسدي، الجزء الثاني، **موسوعة حلب المقارنة**.

منتديات الكوكب العاشر

فتحوّلت ابتسامة سماء إلى حزن مباغت، ثم قالت: هذا هراء، كلام فارغ لا تصدّقه يا حرز، وما صدّق حرز آنذاك!

**أحذرك ألا ترتل هذا النشيد، فيسكن في ذاكرتك، يأسرك ويلعنك، يفتنك فيستحوذ عليك،**

كانت أفعى تساعد أرض في كل ولادة، من ولاداتها الاثنتي عشرة، وعلى مدى ثلاثة عشر عاماً أنجبت أرض خمسة وعشرين ولداً، في كل حمل تلد اثنين، بمساعدة أفعى، إلا أن أرض أبطنت في البطن الثالث عشر، ولداً واحداً، عدداً فردياً، وفي الولادة الثالثة عشرة ، غابت أفعى عن أرض، وكادت أرض تموت من ألم المخاض، وإهمالها لأمر الولادة، لاعتيادها، واعتمادها، على وجود أفعى معها في المرات الاثنتي عشرة، ويبدو أن الولادة الثالثة عشرة كانت عسيرة، ويبدو أن أرضاً كانت تشكو من مشاكل نسائية، كضيق في رحمها، أو أمور أخرى، تعاني منها أرض في كل ولادة، وتساعدها أفعى، بحمامات ماء ساخن، وتدليك بطنها وساقيها، ودهنهما بزيت خاص، يخفف من الإحساس بالألم، فينزلق التوأم، بآلام أقل، أما في البطن الأخير، فقد صرخت أرض باسم أفعى طويلاً، واستغربت غيابها عن الولادة، وظلت تستنجد وتستغيث باسم أفعى، إلى أن تسللت من النافذة أفعى تشبه صديقتها، لكنها ليست هي، وغابت أرض في إغماءة، وأنهت الصديقة **الصغيرة** إخراج الجنين من ضيقه، وقطع سرّته، وغسله، فيما كان إخوته الأربعة والعشرون يبكون من الخوف، مع غياب والدهم، الذي لم يعرف متى تحمل امرأته، ومتى تلد، ولا يعرف كم مرة ولدت، ولا عدد أولاده، لانهماكه في أموره الأهم، وحين سمع الصبيان الأربعة والعشرون المجتمعون في غرفة مجاورة، صوت بكاء الوليد، توقّفوا عن البكاء.

منتديات الكوكب العاشر

وحين عادت أرض إلى صحوتها، بحثت عن صديقتها، فلم تجدها، بل رأت الوليد ـ الفرد أو المفرد ـ ملفوفاً في قماطه، دون آثار الولادة، سوى الألم والدم في مخبأ الولادة.

وبعد أن أرضعت الصبي لمدة أسبوع، وحان موعد حمامه، إذ ذاك، حضرت **الصغيرة** حزينة، متجهمة، وأدركت أرض الحكاية على الفور:

ـ أنت ابنة أفعى؟!

وأطرقت الصغيرة رأسها بالموافقة والإيجاب، وتابعت أرض:

ـ وأين أمك؟

إلا أن الأفعى الصغيرة لم تجبها خوفاً من أن يطير الحزن حليب المرضعة، وسألتها أرض:

ـ ماتت؟

صمتت الأفعى الصغيرة، وبكى الوليد إذ جفّ ثدي الأم بغتة.

ـ يوم وضعك، ماتت أمي.

وحدث تغيير في حياة الثلاثة، ومصائرهم: أرض ـ أفعوانة ـ الطفل المفرد.

**[حذرتك ألا ترتل هذا النشيد، فيسكن في ذاكرتك، يأسرك ويلعنك، يفتتك فيستحوذ عليك، ولا يكون لك منه فرار، فيعدمك، وحيداً تموت وتشم رائحة رحيلك الأرض، ولن ينقذك من عذابك إلا عيد يأتي في ربيع يتلو رمادك].**

منتديات الكوكب العاشر

حين تزوجت أرض جدك حِرث، كانت تتباهى بشعرها الذي لا تضاهيها امرأة في امتلاكها لمثله، وقالت جدتك أرض، إن أمها لم تكن تغسّلها إلا من مياه النبعة المباركة التي انفجرت في دار أمها أرضى، وما كان أحد ليعرف عن مائها، سوى أرضى وما شربته من ذلك الماء، وما سقت منه ابنتها أرض، وغسّلته بها، وقالت جدتك أيضاً، إن أحداً ما عرف عن أمر تلك النبعة، ولا حتى والدها يرضى، بل ظل الأمر سرياً، وظلت المياه تتدفق برفق لا يكشف عن موقعها، بل يخاله المارّ أنه آثار روي وسقاية، ولم يكن يرضى يتصوّر أن ثمة نبعة سرية تنبعث من تحت شجرة الجوز، فترسل مياهاً جوزية {بطعم الجوز}، وقد استمرّت تلك النبعة السرية منذ ولادة ابنته أرض وحتى انتقالها لبيت الزوجية، إذ، حين زارت أرض مسكن أبويها بعد زواجها، وجدت النبعة وقد جف ماؤها، ونبتت محلها زهرة زنبق صفراء، تتمايل بوحدة وحزن على جذع الشجرة.

واعترفت والدة جدتك بالحكاية في الليلة الأخيرة لإقامة أرض في مسكن أبويها، ففي الليلة التي سبقت الزفاف، وكانت تلك آخر ليلة تنام فيها أرض في منزل أبويها، أطلعتها أمها أرضى على حكاية النبعة السرية، وسرّ شعرها، وسر رائحة الجوز المنبعثة من شعرها، وربما تكمن خلف تلك النبعة أسرار لاحقة.

قالت أرضى لجدتك أرض، وهذا ما نقلته أرض لجميع كناتها اللواتي عرفت بمجيئهن في ما بعد، حتى أنا، إذ كانت أرض، تجتمع بإحدانا لمرة واحدة، وتتحدث إليها، وكانت في كل مرة، تقرر أنها لن تلتقي بتلك الكنة ثانية، إلى أن أهملت حتى اللقاء الأول، لخيبة أملها في النساء اللواتي التقت بهن، وثمة نساء عم لك، لم ترهنّ

منتديات الكوكب العاشر

أرض على الإطلاق، وهذا ما أرويه لك كما سمعته من أرض، نقلاً عن أمها:

كنت آنذاك في الشهر الأخير من حملي، وكنت أرى منامات كثيرة، متشابهة، وأسمع في المنام أصوات أشخاص يتحدثون عن ملكة ماتت منذ زمن بعيد، ثم عادت إلى الحياة من جديد، وهي تموت في السنة المائة من عمرها، ثم تنبعث بعد تسعة وتسعين عاماً، وتحيا تسعة وتسعين عاماً أخرى، لتموت في السنة المائة، وحين تنبعث تلك الملكة، فهي تُبعث في سن الصبا، وتحيا تسعة وتسعين عاماً في العمر ذاته، أي تظل في الخامسة والعشرين من عمرها مثلاً لمدة تسع وتسعين سنة، وتظل لمدة تسع وتسعين سنة في السنة ذاتها، شابة، جميلة، متوردة، ثم تعاود موتها، وهي في ريعان الصبا، في نفس العمر الذي انبعثت به. وهكذا كنت ألملم معلومات متفرقة، من منامات متكررة، حول شخصية تلك الملكة، وكنت أشاهد المنامات بكثرة، وفي الليلة السابقة لوضعي، حلمت بمنام غريب، إذ جاءتني تلك الملكة، وتحدثت إلي، كانت متوجة بالنار، تبتسم بمودة، اقتربت مني مقدمة لي ذلك التاج الناري، إلا أني خفت من الإمساك به، كي لا أحرق يدي، وخفت أكثر من رفض تقدمة الملكة، فأمسكت به، وما إن لمسته حتى تحول بين أيدينا الأربع، إلى ذهب يشع كالغار، مزدان بأزهار بلون النار، وحين رفعته على رأسي أتتوّج به، ما دخل في رأسي، لأنه كان طاسة ذهب، محاطة بورود، وليس تاجاً، ابتسمت الملكة قائلة: اشربي! فرفعت الطاسة إلى فمي، وشربت، وكان ماءً بنكهة الجوز، أحسست بالارتواء، والانتعاش، وقالت لي: سوف تلدين بنتاً، وسوف تسمينها باسمي، لا تنسي ذلك، اسمي أرض، وسوف أبارك ابنتك، وأعتني بها طوال ما أحيا، وأفقت من المنام، أحسّ بسعادة،

منديل الكوكب العامر

وهناءة، وكأن ذلك اللقاء حصل فعلاً، ولم يكن مجرد حلم، وإذ ذاك، دهمني المخاض، وبعد ساعة واحدة من المخاض والمنام، جئتِ أنت إلى الحياة، وهمست اسمك في أذنك، كي يكون أول كلمة تسمعينها، فتذكرينه طوال حياتك، وتحافظين عليه، وسمّيتك أرض.

**قطع: مبررات الاسم:**

بعد عودتي لمسودات دفاتر اللباد المنتشرة بين الأوساط الشفهية والمدونة، باحثة عن أصل الملكة أرض، لم أتوصل إلى نتيجة موثوقة، ولكني عثرت على تفاسير مختلفة، واحتمالات كبيرة، أهمها:

منتديات الكوكب العاشر

١ ـ أرض، هي الأم الأولى، مثل باقي الأمهات في الأساطير المتعددة عند جميع الشعوب، وهي لدى أحد الشعوب تسمى أرض، ويمكن أن يُنسب إليها بدء الخليقة.

٢ ـ أرض هي إحدى البنات السريات لملك الجان، وكان له بنات سريات من زوجات سريات، أرضيات، نساء يعشن حياة عادية، لا كجنيات، سفليات، ولكن ملك الجان يقع في غرامهن، فيحملن منه، دون أن يُعرف سر حملهن، ويُظن أن المولودين أبناء طبيعيون، وإذ هم، أبناء ملك الجان، وقد سميت إحدى بناته، من زوجة أرضية، بالاسم المذكور: أرض، وكانت قد زودت برعاية خاصة من ملك الجان، والدها الحقيقي، فحكمت العالم الأرضي، لا السفلي، مدة تسعة وتسعين عاماً.

٣ ـ أرض، هي إحدى النساء العاديات، اللواتي اشتغلن بالسحر، ذاع صيتها لقدراتها العجائبية في جلب الغائب، ومعرفة الباطن من الأمور، وقراءة المستور، ومعرفة المستقبل.

٤ ــ أرض هو اسم رمزي يُطلق احتراماً لعلاقة الإنسان مع الأرض التي يرتبط بها، لا كوطن، بل كإقامة دائمة عليها، تحتويه، يزرعها، ينام عليها، يُدفن فيها. كما أسماء رمزية مثل سماء، ماء، شجرة، شمس، قمر، زهرة.

٥ ــ أرض هو اسم أطلق على امرأة فقيرة، مات زوجها وأبناؤها، وتشردت في الأصقاع، باحثة عن جثث أولادها الذين فقدوا في إحدى الحروب، ونسيتْ اسمها، وحين كانت تُسأل عن اسمها، تجيب: من هذه الأرض!

**تجري أحداث هذه الرواية، بأزمنتها المتعددة، على خلفية مشهد احتراقه، أجل، يظل مشهد الاحتراق ثابتاً، بينما تتحوّل أزمنة القصّ، وتتعدد مستويات القصّ، وتتبختر راويات العمل، على خلفية آلامه.**

منشورات الكوكب العاشر

في ليلة زفافهما الأولى، أرض وحِرث، في اليوم السادس من الأسبوع، وفي ليلة اليوم السابع، جاءت امرأة جميلة المنظر، تبهج مشاهدتها رائيها، وينجذب نحوها أيما انجذاب، أتت لتبارك زواجهما، وكانت تسمّى «ذاكرة»، نظرت إليهما معاً، وأمعنت النظر في العروس، وقالت لها: احفظي هذه الصيغة، وكرريها أمام أبنائك كل يوم، كما تكررين أسماءهم ليتعلموها جيداً، ستلازمك هذه الصيغة طويلاً، وتحصّن أبناءك من خطر قد يصيبهم، وكررت المرأة «تلك الصيغة» أمام أرض، حتى أيقنت أن أرضاً قد حفظتها جيداً، ورددت أرض وحدها «تلك الصيغة» مؤكدة إتقانها لها:

**[حذرتك ألا ترتل هذا النشيد، فيسكن في ذاكرتك، يأسرك ويلعنك، يفتنك فيستحوذ عليك، ولا يكون لك منه فرار،**

**فيعدمك، وحيداً تموت وتشم رائحة رحيلك الأرض، ولن ينقذك من عذابك إلا عيد يأتي في ربيع يتلو رمادك].**

وحين نزلتُ إلى الحديقة، وأنا في النفاس بعد، {تتابع إغماء الحديث، ناقلة لابنها حرز، نقلاً عن أرض، نقلاً عن أمها} باحثة عن ورق جوز أشم رائحته، أو أنقعه في ماء أشربه، لأن النكهة التي تذوّقتها في المنام لم تفارق ذاكرتي الطعمية، وكما يقولون، ظلت عالقة في فمي، ودهشت مما رأيت:

تحت جذع شجرة الجوز، ومن بطن الشجرة، كأن صنبوراً يرشح ماءً، صافياً، لماعاً، براقاً، نظيفاً، يفوح منه شذا الجوز، وحين ملأت كفيّ منه، وتذوقته، ياه، الطعم ذاته، ماء الجوز الذي سقتني إياه تلك الملكة، وإذ أنا أتنشّق طعم الجوز ورائحته، أحسست بمن عبَرني، ومسّ كتفي، وأدركت للتو أنها الملكة أرض. ومنذ ذلك اليوم، وأنت تشربين من بطن الشجرة، وأغسلك، وأغسل ملابسك من مائها، ولتسامحني أرض، لقد غسلتك أول غسلة، من ماء عادي، حين أزلت عنك آثار الولادة، ولم أكن حينها قد نزلت إلى الحديقة، وعرفت بموضع المياه السحرية السرية.

**تجري أحداث هذه الرواية، بأزمنتها المتعددة، على خلفية مشهد احتراقه، أجل، يظل مشهد الاحتراق ثابتاً، بينما،**

يستلقي حرز على بطنه، ظهره، يتقلّب، يتدثّر طويلاً بين الأغطية، يفكّر، لماذا أكثر شيء يفكر فيه كلما انفرد بأمره، هو «تلك الصيغة» وحكايات أرض، وأمه، وأبيه. أي الحكايات الأولى، الصيغ الأولى، كأنه لا يصدق آنيته، وكأنه محبوس داخل الصيغ البدئية، وكأنه لا يزال ابن الحكاية الأولى!

تتحوّل أزمنة القصّ، وتتعدد مستويات القصّ، وتتبختر راويات العمل، وتختلط ضمائر الرواة بين حرز، وإغماء، وسماء، ولا يستقر فعل القصّ على الثلاثة فقط، بل يتدخل كل من له باع في الرواية، أو لا، وكأن كل من يعرف جزءاً من الحكاية، يستحق أن يدون موقفاً روائياً، فما أن تكتب جدار، حتى تتدخل جوزفين، قاطعة المشهد، أو معلّقة، وما أن تشرع جوزفين بذلك، حتى أتدخّل أنا، فأتابع القصّ:

في الليلة الأولى لزواجهما، حِرث وأرض، قضى العروسان تلك الليلة، وحتى ظهيرة اليوم التالي في محاولة لفكّ الضفيرة، وترك الشعر ينفلت على السرير والأرض ليصل إلى باب الغرفة، أحضر حِرث مشطاً وهبته إياه أمه «كوكبة» مع صندوقها المخبّأ منذ زفافها لعروس ابنها الوحيد، وراح حِرث يمشط شعر أرض من أعلى رأسها عند حافة السرير، إلى نهايات شعرها عند العتبة، ملفوفاً عدة مرات على الأرض كشلالات من خيوط ملأت الغرفة، وانتشرت لتغطي الأثاث والسجاد وكل ما حوته تلك الغرفة.

ثم طوى حِرث شعرها عدة طبقات، كلحاف، أو شرشف، ومدّه على السرير، واضطجع فوقه جوار أرض، مراعياً عدم شده كي لا يتقطّع، وناما فوقه كسرير من شعر ناعم، مغمّس برائحة الجوز، لا كسرير من قش، كمقدمة هذه الرواية.

أقسم حِرث إنه لم ينم نوماً هانئاً طوال حياته كما نام في ذلك اليوم، إذ نام منذ غروب الشمس، إلى غروبها في اليوم التالي، وأقسم إنه كان يشمّ رائحة الجوز طوال استغراقه العميق، ويعتقد ـ في منامه ـ أنه ينام في حديقة ملأى بأشجار الجوز، رغم علمه ـ وهو في نومه ـ أن قفرهما ذاك، كان خالياً من أي أثر لحديقة، أو

شجرة، أو غصن أخضر. وأقسم أيضاً، إنه رأى منامات كثيرة، كلها اخضرار، وثمار، وماء، إنه يدخل في غابات مزروعة بالجوز، ويلتهم ثمار الجوز الخضراء، يكسرها، ويأكل جوزاً أخضر ويابساً، وله مذاق كالتين أو الزبيب.

ومع فقره الشديد، وكثرة الراغبين بها، اختارت أرض حِرثاً من بين عشرات الرجال المتقدّمين لها، فقد ذاعت حكايات عن شعرها، وحضرت أمهات الخطّاب يفحصن شعرها، فمنهن من أحسّت وهي تلمسه بأنها تداعب وبر قطة أو فراء أرنب، ومنهن من أحست بأنها تضع يدها على منديل حرير، ومنهن من أحست بملمس الماء وهي تُدخل أصابعها بين خصلات شعر أرض، وأخرى قالت إنها تمتّعت دون خوف، وكأنها تمرّر يدها على جلد أفعى انتزع سمّها.

وقيل إن أرضاً حين كانت تستلقي، أو تجلس، أو تقف في مكان، ويلامس شعرها المكان المتاخم لوقوفها أو جلوسها أو استلقائها، فإن محل الملامسة، يظل يسكنه، ولساعات طويلة، بعد مغادرتها، ظلٌّ كان يصنعه شعرها، وإذ يغيب الأصل {شعرها} يبقى الظل لا يبارح المكان، وظُنّ أن من يتزوج من أرض، ويستلقي جوارها، يظلله شعرها من الشمس والمطر والمصائب، كأنه أيكة سحرية.

لذا، تهافت عليها الخطّاب، واختارت من بينهم حِرثاً، دون أن يعرف أحد سبب ذلك الاختيار، سواها، ولا حتى حِرث ذاته، ولا أمها، ولا أفعياها، أفعى الأم، وأفعوانة البنت الصغرى، ولا حتى بعض راويات هذا العمل.

منتديات الكوكب العاشر

**تعليــق:**

تتدخل جدار لتقطع المشهد الحالي، وهي جدار التي لا يقف بوجهها جدار، فتكتب:

كلّما تقدّم خطيب لأرض، كانت تنظر في عينيه، فتجد صورتها مطبوعة فيهما، وانتظرت دوماً الرجل الذي لا تعثر على صورتها في عينيه، فتعرف أنه لم يُقدّر لها سلفاً، ولم تُسكنها الأقدار في عينيه، كانت تريد زوجاً لم يختره لها أحد، لا الطبيعة ولا الزمن ولا القدر، ولا كتاب الروايات. إلى أن جاء حِرث اللامبالي، الذي أحب حيواناته، وانطبعت في عيونه صورها المتعددة، من أكباش وخيول وضباع، وحين أدركت أرض، أنه ليس رجلاً محباً، أرادته، فهي مثلي، لا تؤمن بالحب، إذ يقيّد المحب حبيبه، ويحدّ من إبداعه، وحريته، ولولا اختيارها السحري، لما صارت أرض على ما هي عليه من سطوة حكائية، تدمّر المهزوزين أمثال حرز، والأسوياء أمثال غياب وشمس وعناد وأنا، لو أنها أحبته، لسحرها الحب، وحولها إلى كبش حب، لا يعرف سوى عالم الحبيب، ولأنها لم تسلّم مشاعرها وعواطفها لرجل، فقد ظلت حرة، مانحة قواها لتقبل عالم الإبداع، كما سموني جدار، فحطّمت جميع الجدران، وصرت، أكبر محاولة تجاوز للجدران، نعم، الحب كان سيحد من أرض ويضيّقها، ولذلك تزوجت من لم يحب، أو تحب!

مهما انقلبت المشاهد، وتدخلت راويات العمل للقطع والتعليق، فإن حدقة حرز تدور باحثة عن المشاهد الأولى، ليعود بالأزمنة ذاتها ويضعها في قلب المشهد الحالي، هو المولع بالمرأة الأولى، الحكاية الأولى، الواقف طويلاً {رغم كونه الكائن المائل} عند «تلك الصيغة»، نعم، يعود إلى تلك المرأة، وهي تروي له سيرة جدته، إنها

عالم القصّ الأول في حياته، امرأته الأولى، إغماء، إذ قالت آنذاك وهي تكرر ما تحكيه، وتضيف في كل مرة، وتحذف، فلا تتشابه الحكاية في كل مرة، فلا تُفقده لذة الرواية:

بنى حِرث جدك {أف، إن ثلثي حروف اسمه، هي ثلثا حروف اسمك، اللعنة} بنى غرفة لزواجه ـ وكانت جميع مسكنه ـ في ركن بعيد ومنعزل عن البلدة، يفصلها عنها تلال ومرتفعات، فكأنه بذلك أنشأ بلدة جديدة، أو أقام حدوداً بين البلدة القديمة المأهولة بالسكان، وبين مسكنه الذي يؤمه وزوجته فقط، وكان حِرث يغار على زوجته غيرة جعلته يعزلها عن الناس، ولم تتوقّع جدتك أن تُعامل هكذا، فهي لم تعتد أن تكون بعيدة عن حركة الناس، والأشياء، ولكنها لم تتضايق من عزلتها، إذ ساعدتها تلك العزلة ـ على ما بدا ـ على اكتشاف أمور أكثر أهمية!

يقال يا بني، إن العزلة تُنتج تميّزاً، وأنا لا أشك، أن عزلة أرض، سببت لها ذلك الوضع المتفرّد، فأنا رغم خلافي معها، لا أنكر أنها امرأة ذات طاقات فريدة، أتمنى كأم ـ وأمنيات الأم تتحقق في حالات كثيرة ـ أن تقع بامرأة مثل جدتك، تملك أمرين: الحظ والقدرة، أما أنا، فلدي القدرة، ولكن ليس لدي الحظ، بل لدي ـ تصوّر ـ سوء الحظ!

أنت صغير الآن يا حرز، ولا تفهم أهمية ما أقوله لك، غداً حين تكبر، لن تنسى كلامي، بل سوف تتذكّر منه الكثير، وتعرف أهمية المرأة القادرة على العطاء، إنها أكثر من حسن حظ، ومن الثروة، إنها مصير جديد، المرأة التي إذ يلاقيها الرجل، تنقلب حياته.

أنا أظن يا حرز، أن جدك صار مهماً، فقط لأنه عثر على أرض،

منتديات الكوكب العاشر

ولولاها لعاش فقيراً، وربما ما أنجب كل ذلك العدد من الأولاد، الذين ثبّتوه في التاريخ والأرض.

وأنت، بوصفك وارث ثلثي اسمه، الحاء والراء، ولنؤمن أن أرضاً قد وهبتك هذا الاسم لأسباب تدركها هي، ولا تهمني، لأني أثق بها، فإن ذلك قد يكتب لك مستقبلاً قادماً مهماً، ها أنت ابن صاحبة أجمل صوت، وجدتك امرأة صائتة بقدراتها التي لا أصدقها كثيراً، ولكن يصدقها الكثيرون، ماذا ينقصك إذن لتكون رجلاً مهماً، ها أنت تملك إرثاً هاماً، ونساء مهمات دخلن حياتك مبكراً، ليورّثن لك القصص المهمة، حتى نساء عمك لسن قليلات، وسوف تعرف ذلك حين تكبر، ستعرف كم أنت محظوظ بهذا القدر المميز الذي يحيط بك من النساء، ولكني آمل فقط يا بني، أن تعثر على حسن الحظ، فإن لاقيت سوءه، كما حصل لأمك، فلا شيء ينفع، ولكن إن وقعت بامرأة مميزة، فإن ذلك قد ينفع، ويلغي أثر سوء الحظ!

منتديات الكوكب الساحر

يقلق الصبي مبكراً على مستقبله، ويتوجس من ذلك الشيء الغامض الذي ليس له قانون أو قواعد لامتلاكه، الحظ، آه كيف يحصل عليه، وقد وجّسته أمه مبكراً من احتمال وقوعه في ذلك الشر اللعين، سوء الحظ، ووجّسته أرض، حين كررت أمامه، حتى حفظ تلك الصيغة:

**[حذرتك ألا ترتل هذا النشيد، فيسكن في ذاكرتك، يأسرك ويلعنك، يفتنك فيستحوذ عليك، ولا يكون لك منه فرار، فيعدمك، وحيداً تموت وتشم رائحة رحيلك الأرض، ولن ينقذك من عذابك إلا عيد يأتي في ربيع يتلو رمادك].**

ربما كان حِرث بغيرته على أرض، يمهد لتأسيس أسطورتها القادمة، إذ يعزلها عن البشر، ويتركها ـ مطمئناً ـ محاطة بحراس لا يدعون أي أذى يتسرب إليها: كلاب قوية شرسة، شمس تدلك شعرها وتسلّيها، وأفعوانة التي نبشت ما وراء شعرها {رغم أن لا حِرث ولا غيره كانوا يعرفون عن أمر أفعوانة، الأفعى الصغيرة}، فلم تعد أرض بذلك، تلك المرأة الجميلة، المميزة بشعرها، بل صارت أكثر من ذلك، وازداد تميّزها، وأنجبت خمسة وعشرين ولداً، أنجبوا بدورهم {أو أدوارهم} ما يزيد على مائة ولد، فصارت أرض منتجة لأعداد هائلة من بشر وورود وعصافير وحكايات. ورواية!

منتديات الكوكب العاشر

كانت متعة أرض القصوى آنذاك، هي الاستحمام بالشمس، فهي تُخرج الأريكة اليتيمة لديها، لتضعها أمام الغرفة، قبالة الشمس، ثم تفرد شعرها، وتمشّطه بهدوء وبطء، وطول بال، جالسة كذلك، منذ غياب حِرث في الصباح، إلى عودته في آخر النهار، وكانت لا تعرف طهواً ولا تمارس أعمالاً سوى الغسيل، فهي مولعة بالماء، {أليست آلهة الاغتسال}، لذا فهي تغسل كل ما حولها، الأرض، الثياب، الجدران، السرير، الشراشف، المخدات ، وشعرها، وحِرث، نعم، كانت تغسل حِرث حين تتمكن من القبض عليه، تجرّه إلى الحمام، وتدعكه كأنه قطعة قماش، وتصب عليه الماء الساخن، حتى يكاد يُغمى عليه من البخار وروائح الغسل والتنظيف.

كانت أرض تحب رائحة الأشياء المغسولة، وتكره رائحة الطهو، لأنها برأيها تُفسد الهواء، ولذلك كان حِرث يعود إليها بصيد مشوي، كي لا يفسد الهواء برائحة الشواء، {يا للهول، يا للمصيبة، يا للكارثة. كيف تحتمل أرض إذن هذه الرائحة، التي تجري هذه الرواية على خلفيتها، احتراق لحم آدمي، يا للهول، يا للمصيبة، يا

للكارثة، كيف ستحتمل هذه الرائحة، لحين انتهاء الرواية، وأنا لا أزال في الصفحات الأولى بعد، أيا أيتها الراويات ساعدنني على الإسراع، لا رأفة بآلامه، ولكن حباً بأرض، أمنا التي نحبها جميعاً، أيا جدار العنيفة الصاخبة الساخرة، أسرعي بالقص، أيا جوزفين العصبية المشاكسة العنيدة أسرعي أرجوك، أيا أنا، هيا، إن أرضاً.. أم أنها، يا ترى، {لماذا تصرخين وتهوّلين كآلهة الموت، وتندبين كبنات الآلهة المفجوعات بالكارثة} هل عليها أن تدفع ثمن «تلك الصيغة» أنت تملكين بعض الحق يا جدار، لقد شاركت أرض بصناعة ذلك المشهد الذي بدأنا به الرواية، والذي كان خاتمة الرواية، نعم، لا ينقذها شرح «تلك الصيغة» في الصفحة الأولى من هذه الرواية، ذلك الذي قالته للصبية السوداء، ذات العيون الزرقاء: آثام. نعم، أصدقك يا جوزفين، ينبغي أن لا نتعجّل كثيراً، فنفسد عملنا، الفن أهم شيء على الإطلاق، أهم من أرض وحرز، ومنا، ثلاثتنا، وأخريات غيرنا، نعم، فلأتابع}.

كان شعرها الطويل، نهر لا يُعرف منبعه، ولا آخر مصب له، يتحلّق حولها كتفرّعات مائية، وتهمّ هي بتناول القريب منه إليها، لتمشطه مبتسمة كأنها تغازله، وكأنها الوحيدة في هذا الكون، المتربعة على عرش شعرها، وكأن عملها الوحيد في هذا الكون هو الاعتناء بشعرها، كما يمكن أن يكون عمل كائن ما، هو غزل الخيوط، ثم فكّها، أو رفع الصخرة إلى قمة الجبل ثم سقوطها. نعم، كما ذاعت أساطير عن امرأة تغزل حتى الصباح، أو رجل يدحرج صخرته إلى قمة جبل. كان عمل أرض، الاعتناء بشعرها!

وتثرثر أرض بصوت دافئ، وتهتم بكل ما حولها، فلا تهمل كائناً لا تسأله عن أموره وأحواله، وتهتم به، الهواء، أين كان، وما هي

منتدى الكوكب العاشر

حالاته، الماء، العصافير، الورود.. ويبرق شعرها كأنه انعكاس الشمس على مرايا زجاجية، تتطاير منه الأشعة، ويلمع باحمرار مائل إلى لون حجر الياقوت، أو العقيق الأحمر، فيصعب تسديد النظر إليه، وقد التف بالشمس، كأنها غطاء سري لا يقبل منطق السرية. فما هذا التكاشف والإعلان الذي تصعب إمكانية النظر إليه، أو قد تستحيل، أثمة أوضح من الشمس، ولكن من يستطيع النظر إليها، ليتأملها بدقة؟! أهذا هو المنطق السري السحري، للعلاقة بين السرية والإعلان؟ بين الظهور والاختباء؟ إنها هكذا أيضاً، مثل الشمس، مرئية ولا مرئية، أثمة حدود لرؤيتها لا يجوز تخطّيها، كما لا تجوز تخطي الأسرار؟ ربما!

روى جِرث {لأولاده في ما بعد، وانتقلت الرواية لي من والدك عناد} أنه، حين عاد من إحدى تجولاته، ذات مغيب، وكان يعتلي صهوة جواده، وكلّما كان يقترب من داره، بانت له أكثر ملامح ذلك الشيء الذي يضيء بقوة كأن كتلة نار تتأجج من منزله، وشيء أسود يتطاير منه.

في بداية مشاهدته لذلك، خاف أن تلتهم النار مسكنه، وتقتل زوجته، أو تؤذيها، فأسرع الخطى جواده، ثم راح يتبين أن النار تتشكّل على هيئة ثابتة، كتمثال من نار. ثم، وهو يقترب، أخذ يعتقد أنها لم تكن ناراً، ومع ازدياد اقترابه، ونقص المسافة الفاصلة بينه وبين ذلك المشهد، بدأت تنجلي الأمور وتتجلّى له، إلى أن رأى المشهد الحقيقي حين وصل إلى مشارف مسكنه:

كان شعر أرض، المائل اللون إلى الاحمرار، يلمع كلهب من بعيد، وتتجمّع حوله العصافير، التي يخالها الناظر من بعيد، دخاناً أسود متطايراً من نار متأججة، وقال جِرث إن ثمة عصافير ملونة

وحمامات بيضاء وملونة أيضاً، كانت تحطّ على رأسها، معتقدة أنه عشّ مخصص للحطّ عليه، ولا يعرف ـ سوى أرض وأفعوانة وثلاثتنا نحن كاتبات هذا العمل الرئيسيات ـ سبب تجمّع العصافير حولها، وفوق رأسها، إذ، تجذب الرائحة، والملمس، وهدوء أرض، تلك الطيور الباحثة عن مأوى وأمان وجمال، فتدندن أرض لحناً يشبه زقزقة الطيور، فتنشدّ الطيور، وتُنشد معها ألحان السلام.

وحين وصلتُ «تابع جدك جِرث» نهضت أرض مبتسمة، فسقط شعرها من حضنها كأفاعٍ على الأرض، وزحف حولها ولامس قدمي، وساقي. وسمعت ضجيجاً موسيقياً، إذ علت أصوات جوقة العصافير دفعة واحدة، وكأنها تؤدي لحن الرحيل، ثم طارت، وظلّ عصفور صغير، يقف أعلى رأسها، فأمسكت به أرض برفق، ووضعته على غصن شجرة وحيدة، بدأت تنمو وسط القفر.

وحين عاد جده جِرث محموماً {القول لي}، ملتهب الوجنتين، وقد قرصته عقرب سامة، وتورّم كل وجهه وراح يهذي هذياناً موجعاً لأرض، يحدّثها على أنها أمه التي ماتت، ويعنّفها لأنها عادت بعد أن ماتت، ويرفض عودتها إليه بعد تخليها عنه، وتعذيبها له بغيابها وموتها، وأنها لم تفرح به وتزوجه كما وعدته. وكان يبكي بكاءً مراً، ويقسم بكل ما أوتي من إيمان بما سمع من أمه ذاتها عن أجداده ذوي القدرات الفائقة على الانبعاث من الموت دون نهاية، يقسم إنه سوف يعذّبها بعد أن عادت من الموت، ليموت تاركاً إياها وحيدة في الحياة، وأنه، وبعد موته، لن ينبعث مجدداً لأنه سئم وحدته. وفي كل هذيانه ذاك، لم يتعرض لذكر أرض، وكأنه نسي وجودها في حياته، فجلست أرض إزاء رأسه، تمسح دموعه بمنديل أحضرته من صندوق أمه، ويحمل رائحتها، لتكمل له صورتها،

منشورات الكوكب العاشر

حين يشم رائحة المنديل، ويراه، فيكتمل اعتقاده أنها أمه!

وحين طال هذيانه، وخافت أن ينال منه، وهي تحمل في أحشائها بعضاً منه، ولم ترغب أن يأتي طفلها دون أب، فيبكي اليتيم بحرقة، ويشتم آباءه وأجداده، ويقسم بإيمان أبيه وأجداده، وإيمان أمه بذاتها، أن يموت تاركاً الحياة لمن يرغب فيها.

شهقت أرض حين تحوّل بكاؤه إلى غياب، وإلى شهقات متّصلة، كأنها شهقات الموت، وعلى أثر شهقتها، ظهرت أفعوانة {وهذا لقبها الذي كانت تناديه بها أرض قبل أن تعرف اسمها، أما اسمها فهو دمج، وتتحمل تلك الكائنات عبء أسمائها، فينقلب المعنى الذي تحمله حسب الشخصية التي تتسم بها المسماة، وهي هنا، لا تظهر دوماً على أنها شكل واحد، أو أداء واحد، بل هي خليط من أفعال مندمجة، وشخصيات مندمجة، ورغبات وتكوينات. وهي أحياناً لا تندمج فحسب مع غيرها، بل تدمج كل ما تعرف، مع كل من تعرف}. ظهرت دمج أمامها، رامية عن جسدها الثوب الأفعوي، منقلبة إلى حقيقتها الأولى، قائلة: اقرئي!

قالت أرض باستنكار واستغراب:

ـ كيف أقرأ؟ ماذا أقرأ؟ أنا، لا أقرأ!

قالت دمج:

ـ اقرئي، وأنا أعلّمك ما تقرئين، سوف أعلّمك ما تجهلين، وأطلعك على أسرار ما تفعلين، فتصبحين بالمعرفة تتميّزين، ضعي يدك على جبين زوجك.

وحين مدت أرض يدها الراجفة إلى جبين حِرث، صعقتها الحمّى،

منتديات الكوكب الثالث

فانتفضت يدها على الفور، وأزاحتها، فقالت أفعوانة:

ـ لن تتأذّي، ضعي يدك ثانية، يجب أن تحتملي من أجل خلاصه، ثمة من يتألم لخلاص غيره، هيا، سأساعدك.

وما كادت أرض تلامس بيدها جبينه الملتهب، حتى علا صوت دمج غير مدموج بغيره، منشدة «يا حمّـى، كوني شفاءً وسلاماً على جسد الطيب حِرث، الزوج البار للصفيّة أرض»، وإذ لامست يد أرض جبين حِرث، حتى ارتطمت بإحساس بارد، وزال الاحمرار من وجهه، وتوقف عن البكاء، وإذ ذاك فتح عينيه بسلام، مبتسماً للمصطفاة أرض، بعد أن اختفت على الفور، الشافية دمج، الـ مميزة بين المرض والشفاء، والحالّة لـ اندماجهما في حِرث.

وحين عاد من إحدى جولاته، وقد اصطاد أفعى، معتقداً أنها ستُربحه الكثير من المال، وأخفاها في كيس قماشي كي لا يخيف زوجته الحامل، وبعد أن وضع الكيس في زاوية نائية عنهما، وتناولا خنزيراً مشوياً، مع ثمار أحضرها حِرث من جولته، كعادتهما في تناول طعامهما، نهضت أرض متّجهة إلى الكيس، وتدخّل حِرث لمنعها، فقالت له إنها تعرف ماذا يوجد بداخل الكيس، وحين سألها، أخبرته بأنها أفعى، وطلبت منه السماح لها برؤيتها، وخاف حِرث أن يخسر صيده، فوعدته، إن حصل، تعوّضه، ولما سألها عن كيفية ذلك التعويض، طالبته متوسّلة إياه أن يثق بها، ويدعها تجرّب، ولن تجعله يندم!

كانت أرض تخشى أن يسبب صيد زوجها البلاء لها ولعائلتها، فإن كان حِرث قد اصطاد دون معرفة منه، أحد الكائنات المقرّبة إلى أرض، الأولى، فإن ضرراً سيلحق بها، فهي تعرف أنها مصطفاة من

منشورات الكوكب العاشر

الملكة أرض «واهبتها اسمها» وأن الملكة أرض تفضّل بعض الكائنات، كبعض الفئران، والأفاعي، والقنافذ، وديدان الأرض، والأرانب وكل ما يمكن تسميته كائنات أرضية، أو كما يوصف حالياً بـ القاعية، تلك التي تكون علاقتها بالأرض وطيدة، تحفر فيها، وتبني أوكارها بداخلها، وتحتمي بها.

اقتربت أرض من الكيس، متمتمة ببضع كلمات لم يفهم حِرث منها شيئاً، وفكّت عقدة الكيس، فخرجت أفعى طويلة، التفّت حول ذراع أرض، وحول رقبتها، وكأنها كانت تقبّل أرض التي حررتها، ثم تابعت أرض ثرثرتها السرية مع الأفعى، وانزلقت الأفعى عن عنق أرض، وذراعها، متسللة إلى الأرض، زاحفة بسرعة، ومختفية!

وثار غضب حِرث، وأحسّ بأنه أبله، كيف يدع صيده الثمين يهرب منه، لم يفهم ما حصل، وأحسّ بأن أرضاً قد خدعته، وتآمرت عليه، إلا أنها حاولت تهدئته، والتزمت بما وعدته، إذ جلست أرض تحت أشعة الشمس برفقة حِرث، وثرثرت أمامه ـ دون أن يفهم ـ بتلك الثرثرة السرية، السحرية، لتجعل أفعى أجمل من الأولى وأثمن، تزحف من تلقاء ذاتها، ومن دون أن يعرف حِرث من أين جاءت وكيف استسلمت لدعوة أرض، ودخلت بإذعان في الكيس ذاته، جالسة فيه دون مقاومة!

وحين طالبها حِرث بتوضيح ما حصل، أخبرته باختصار أنها تفهم لغة الحيوان، وأن ثمة نوعين للحيوانات، كما الإنسان، طيب وشرير، وهي تحمي الحيوانات الطيبة، والأفعى التي حررتها أرض هي أفعى طيبة ومسؤولة عن أولادها الصغار، أما الأفعى التي استدعتها، فهي أفعى شريرة، آذت بعض الناس الأبرياء، وتعرف أنها

منتديات الكوكب العاشر

تستحق العقاب لمخالفتها أوامر الأفاعي العليا، فجاءت حين استدعتها أرض، لتستسلم لمصير تدرك أنها تستحقه لسوء سلوكها!

واندهش حِرث من طاقات زوجته، وفهْمها لعالم الحيوانات، ولغتهم، وأماكن اختبائهم، إلى أن صارت قاضية عليهم، تعاقبهم على سوء سلوكهم، وتُجزيهم على حُسنه.

واستغل حِرث معرفة زوجته بلغة الطيور والأرانب والقطط والدببة والكلاب والديدان والفراشات والثعالب والأفاعي والقرود والنمور والظِباء، وكل حيوانات الأرض وطيورها وحشراتها، ليطوّر مواهبه في الصيد، من مجرد هوس عبثي، إلى تجارة رابحة بالحيوانات النادرة والفريدة، حتى صار أثرى رجل وأشهر تاجر، مبتعداً، بانهماكه في صفقات استيراد النمور وتصدير الطيور، أو شراء الأسود وبيع الأفاعي، أو المقايضة بين كلب وفرد، عن اهتمامات أرض البعيدة جداً، كبعد الأرض عن السماء، عن اهتمامات حِرث.

أما هي، ذات الاهتمامات البعيدة، والطاقات الفريدة، والميزات الموهوبة، ورعاية أرض، وصديقتها الصغيرة ذات الأفعال الكبيرة، فقد أسست مدناً جديدة، وخرائط، وتضاريس، فزرعت قريباً من غرفتهما الوحيدة {مسكنهما}، كل ما طلبت منها دمج زراعته، ونمت الأشجار بسرعة، في غضون ساعات، مشكّلة سوراً لتلك الغرفة {لذلك المسكن}، فأصبح مسكنهما وكأنه مشيّد أساساً داخل حديقة، وتضاعف نمو الأشجار، في الساعات التالية، كأنها تتلقّى وصفات سحرية، إلى أن صارت الغرفة، مشيدة داخل غابة كبرى، مليئة بالأعشاب والأزهار والنباتات والخضر والفاكهة والأشجار المثمرة الخضِرة، وقد حصل ذلك كله في يوم واحد، إلاّ أن حِرثاً، يا للعجب، حين عاد في آخر النهار، ظن أنه ضلّ الطريق،

منتديات الكوكب العاشر

ولم يصدّق أنه لم يضل، لأن جواده كان لا يخطئ طريقه إلى مسكنه، فدخل درباً تحفّ بها أشجار الجوز واللوز والخوخ والتين والزيتون وعرائش العنب، والتوت والسمّاق والزيزفون والصفصاف والصنوبر والسرو. وراح جواده يدوس بفرح على عشب ندي، وبنفسج وورد أحمر وبرتقالي وأصفر. وتقتحم أنفيهما روائح الزعتر والمسك والفستق. ويلتهم الجواد كل ما تطاله أسنانه من خضرة لذيذة، متعجّبين، كلاهما، من اخضرار مفاجئ، لم يكن حين غادرا في الصباح!

واشتد الصراع بينهما، أرض وحِرث، هي تتبنّى الأغصان، وتمدها وكأنها تبني بيوتاً من أغصان وأعشاب، وهو، حِرث، يبني الجدران ويمد العمران، ويلتهبان في حمى الأزواج في المساءات الباردة والساخنة على السواء، إلى أن أصبح مسكنهما ـ خلال أوقات قليلة، بفضل نشاطهما في التصارع، والإسراع بإثبات النوايا والرغبات ـ قصراً كبيراً مليئاً بالغرف، والأشجار، والصبيان!

وازداد شغف حِرث بالبناء، فصار كلما أنهى جولة، وحصل على مال، اتجه إلى كومات الطين والحجر، ليزيد غرف المسكن وحظائره ومستودعاته، وازداد المكان حيوية، وامتلأ بالسكان، أبناء، زوجات أبناء، أحفاد، غرف، أشجار، حيوانات، عيون ماء.

وصار القصر كبيراً أكثر مما تحتمل تسميته بالقصر، فتحوّل إلى قلعة، دون حراس، ذات أبراج وسلالم، وبيوت مؤونة، ولوحظ أن المسكن قد خلا من بوابة رئيسية، إذ إن الداخل إليه، يبدأ دخوله من طريق محفوفة بالأشجار، ثم يلج البناء من سلم مرمري، تعلوه قنطرة ضخمة، زُينت بكلاب وديعة لا تتحرّش بأي داخل، ثم يصل الداخل إلى قاعة واسعة، تتفرّع منها الممرات يمنة ويسرة إلى غرف

منتديات الكوكب العامر

متعددة، ولم يضطر أحد الداخلين في ما بعد لاستعمال جرس أو مطرقة باب، لأن الدخول سهل، ولا يحتاج إلّا إلى موافقة أرض، إذ إن أغلبية الزائرين أتوا ـ في ما بعد ـ فقط من أجل أرض!

ومع اضطراره للسفر {لا نزال عند حِرث} بعد تطور أحوال تجارته، ومغادرته إلى بلاد نائية، لجلب الحيوانات النادرة، بدأ يهمل أمور قلعته، تاركاً شؤونها للنساء، وبذلك صارت أرض، سرّاً سابقاً، وعلانية لاحقاً، المالكة الحقيقية للقلعة، وللقصة!

وعلى مدار ثلاثة عشر عاماً، امتلأت القلعة بخمسة وعشرين صبياً، استطاعت أرض القذف بهم من رحمها، إلى الحياة، وفشل الأبوان دوماً، في تذكّر أسماء أبنائهم حسب تسلسل ولادتهم، أو إطلاق الاسم الصحيح على صاحبه، منذ المناداة الأولى، بل يضطر أحدهما، في كل مرة يريد أحداً من الأبناء، لاستخدام أكثر من اسم، حتى يصل إلى الاسم المطابق للمنادى!

منتديات الكوكب العاشر

حتى أن الإخوة أيضاً، كانوا يحتاجون إلى دليل أسماء(٤) مع صور، ليتمكّنوا من استعمال الاسم الصحيح أثناء التعامل مع الأخ المطلوب.

لا تزال النار متّقدة تحت جسد القائد، وقد اسودّت جدران القلعة، التي تُرى الآن قلعة مخرّبة، كأنها من الماضي السحيق، أو كأنها مكان غريب وغامض، أو لم تكن يوماً، المكان الذي بناه عناد، من مال حرام، ليبعد فيها إغماء، ناسياً، متجاهلاً، ما تكررت أمامه

(٤) انظر الملحق في آخر الرواية.

وأمام أبيه وابنه «تلك الصيغة»:

**[حذرتك ألا ترتل هذا النشيد، فيسكن في ذاكرتك، يأسرك ويلعنك، يفتتك فيستحوذ عليك، ولا يكون لك منه فرار، فيعدمك، وحيداً تموت وتشم رائحة رحيلك الأرض، ولن ينقذك من عذابك إلا عيد يأتي في ربيع يتلو رمادك].**

امتلأت القلعة، وغصّت حتى آخر ممر وغرفة بالسكان، كنّات لا يُعرف عددهن، لأن بعض الأبناء، تزوجوا عدة مرات، ومنهم من طلّق امرأة أو أكثر من نسائه. ولم تستطع أرض متابعة ما يحصل في الحياة الداخلية للأبناء.

اكتشفت أرض، من خلال علاقتها مع الأفعوانة دمج، أنها تستطيع شفاء المرضى من شتى أنواع الأمراض، وحين جرّبت ذلك لم يصعب عليها شفاء أي مرض، فجاءها من أصقاع الأرض عميان وكسيحون ومشلولون وُطرش وخُرس ومجانين ومهووسون.

واستطاعت أرض التغلّب على جميع الأمراض، إلى أن فقدت قدرتها، بعد اثني عشر عاماً من ممارستها، أي، حين ولدت ــ في البطن الثالث عشر ــ ابنها الخامس والعشرين، ولدها الذي سمته طُهر، لأن الأفعى الأم ماتت، وكادت أرض تموت من عُسر الولادة، ولكن!

حسناً، لا أرض ماتت، ولا قدراتها المهددة بالزوال قد زالت، بل ازدادت الأمور سوءاً في هذه الحكاية، لأن إغماء استمرّت في قصّ القصص، وملء مخيلة حرز بما حدث وما لم يحدث!

منتديات الكوكب العاشر

ومن كثرة ما سمع حرز من أمه، ونساءِ عمه، وبنات عمه، عن جدته أرض، وقدرات أرض، وأفعياها الاثنتين، وحكايات أخرى، صار يخلط هو أيضاً، بين ما سمع من قصص رُويت له، قبل وصوله إلى الحياة، وما حدث في حياته فعلاً، بعد أن دخل تلك الحياة، إلى أن صارت القصص محور حياته، فصار شخصاً مغرماً بالحكايات وأحلام اليقظة!

كان حرز، يدخل الغرفة الجديدة، بعد قراره بتحويل مسار حياته. ثم يدخل سريره، ويبدأ بصياغة حكاية، إلى أن يُمضي ساعات طويلة، ثلاث، أربع، خمس ساعات، وهو مستلق في سريره، إلى أن يضع نهاية وخاتمة مريحة لحلم اليقظة {الحكاية} الذي بدأه!

«ها أنا أكتب لحناً هاماً، يكتشف الناس أنني ملحن كبير ومغمور، يندمون لإهمالهم لي، يتهافت علي النقّاد، تصرّ إحدى الفنانات على التعرّف بي، تقدّم لي ثروتها، وتتزوّجني، تكتب الصحف عني، وتتناقل وسائل الإعلام الحديث عن أهميتي الفنية، وتنتشر أخباري الفنية عالمياً، ولكن أشعر بنوبات مرض غامضة، أذهب إلى الطبيب، لكنه لا يخبرني بالحقيقة، زوجتي فقط تعرف ـ وهي تعرف قبل أن تتزوّجني، إلا أنها تُضحّي من أجلي ـ أني مصاب بمرض خطير، ليس له شفاء، أذهب إلى أرض، تعتذر عن شفائي، وتبكي على رأسي، أمي ترتمي عند قدمي، وتعلن أنها على استعداد للمقايضة، أمام أي شاهد، لأن تعطي صحتها وتأخذ مرضي، زوجتي تردّ على النقاد، لا تخبرهم بالحقيقة، لا تفارقني، لحني يغزو الأرض، تعجب به أرض، ترقص له، أمي تقول إنه أجمل لحن سمعته في حياتها، ونجمة تحبه كثيراً، أنا فنان عظيم، الكل يتحدّث عني بإعجاب، ولكني سأموت بالداء الخطير بعد أيام، ولن أتمتع بشهرتي ونجاحي».

منتديات الكوكب العالمية

تنهمر الدموع من عينيه، يدق الباب، تأتي جدار، تنظر إلى وجهه المتورم: ما بك يا قريبي البعيد؟

لا يزال داخل حلم اليقظة، يخاف أن يحكي لها، فتسخر منه، وتسأله ما لا يجرؤ أن يسأله لنفسه: كيف صرت فناناً عظيماً، وأنت لا تعرف بعد كيف تُكتب النوتة الموسيقية؟!

**[حذرتك ألا ترتل هذا النشيد، فيسكن في ذاكرتك، يأسرك ويلعنك، يفتنك فيستحوذ عليك، ولا يكون لك منه فرار، فيعدمك، وحيداً تموت وتشم رائحة رحيلك الأرض].**

على جدار غرفته، لوّن طُهر مخططاً لأسماء العائلة، بدءاً من أبويه، إلى إخوته الأربعة والعشرين، وزوجاتهم، وأبنائهم، وبناتهم، فوصل العدد إلى ٩٩ شخصاً {عدا الأبوين}، انتسبوا إلى سلالة أرض وحِرث، وهم من يُدعون بآل القلعة، إلصاقاً بالقلعة كبناء، وما بداخلها من أسرار، حتى ظن الكثيرون، أن ثمة كائناً، من آل القلعة، سوف تعمّ شهرته الأرض، ويلصقون على باب مسكنه عبارة: هنا يسكن الشخص المهم، صاحب أحدث نظرية في تخليص الإنسان(٥).

وعلى الجدار الآخر لغرفته أيضاً، علّق طُهر، أيضاً، لوحة قصد منها السخرية، وحمل اللوحتين معه إلى مسكنه الجديد، وحين لحق به حرز ليبدأ مسيرته الفنية، كان يهمل اللوحة الأولى، ويقف طويلاً

---

(٥) «أتعتقد حقاً، أنه سيعلق في يوم ما، على هذا المنزل قطعة من رخام كُتب عليها، في هذا المنزل، في ٢٤ تموز ١٨٩٥، كُشف سر الحلم للدكتور سيغموند فرويد» **من رسائل فرويد إلى فليس**، دافيد باكان، ص ١٥١.

أمام الثانية، ليقرأ ما فيها، في كل يوم، لأكثر من مرة، إذ حوت اللوحة السطور التي كأنها لا بد منها، لتطريز حياة حرز القادمة، منذ اللحظات الأولى لولادته، حتى نهاية هذه الرواية، أجل، كانت تحمل «تلك الصيغة»:

**[حذرتك ألا ترتل هذا النشيد، فيسكن في ذاكرتك، يأسرك ويلعنك، يفتنك فيستحوذ عليك، ولا يكون لك منه فرار، فيعدمك، وحيداً تموت وتشم رائحة رحيلك الأرض، ولن ينقذك من عذابك إلا عيد يأتي في ربيع يتلو رمادك].**

وقد اقترح طهر ذات مرة: لماذا لا تلحّنها؟! فارتعد حرز بشدة، تلك الرعدة، التي يعرفها الفنان حين يقع على كشف جديد، في الفن، وفي داخله!

يطارد الخوف حرزاً أينما اتجه، إذ تقبع مؤامرات عمه، وتهديدات أمه، فيتجه إلى الحظائر والمستودعات والأقبية والسُّقف، وكل الأمكنة الصالحة للاختباء، بحثاً عن الطمأنينة، ويبدأ من هناك ــ في الأمكنة الرطبة والمظلمة والمهجورة ــ باكتشاف ما يهدّئ وجله، ويمنحه السلام!

في حظيرة جده حِرث، وكان يهرب من أمه، أغفى ليلة كاملة، وحتى الصباح في تلك الحظيرة، وحين استيقظ في عتمة الحظيرة، وتلصص من ثقب في جدارها، رأى الصباح وقد انبلج، فهرع إلى حذائه، وقبل أن يشرع بالخروج، سمع صوتاً ناعماً رقيقاً يتحدّث إليه دون تخويف:

ــ انتظر يا حرز، لا تغادر!

منشورات الكوكب العاشر

وارتجف الصبي، وتعرّق بشدة، وكاد يُغمى عليه من الخوف، وكاد يصرخ، إلا أنه تذكّر عمه الساخر منه «يا رعديد، ممّ تخاف؟» فتماسك، وقال غير مصدّق أنه يقول:

ـ حسناً، أنتظر، ماذا تريدين مني؟!

ـ أنا لست امرأة يا حرز، لا تخاطبني بلهجة المؤنث.

ـ ولكن صوتك ناعم كالنساء.

ـ لست امرأة، كما أني لست رجلاً أيضاً، اسمع يا حرز، أنت تخاف من أمك، وعمك، وسوف تخاف من أشخاص كثيرين كلما كبرت، ومن حيوانات، وأشباح، ومواقف، وأحداث، وأحاسيس، ومفاجآت، سوف يُلاقيك الخوف في كل لحظة، فهل تقبل بأن أساعدك؟!

ـ أقبل.

ولم يصدق حرز أن ذلك الصوت خرج من حنجرته، هو الكائن المعروف بأنه رعديد، وجبان، كم أحس بأنه يتغيّر حين نطق بقوة.

ـ إن لذلك شروطاً.

ـ وما هي؟!

ـ عليك أولاً أن تثق بقدرتي على حمايتك، ثم نتفق على الشروط.

ـ أقبل.

ـ اخرج الآن، وسوف تبلغ بعد أيام عامك الثالث عشر، فإذا لم

منتديات الكوكب العاشر

تشعر بالخوف منذ الآن ولغاية تسعة أيام، نلتقي بعد الأيام التسعة، ونبرم الاتفاق.

ـ أستكون معي أيها الكائن اللامؤنث، واللامذكّر، لحمايتي من الخوف؟

ـ بالتأكيد!

وغادر حرز الحظيرة مملوءاً بنشاط لم يعرفه من قبل، ولاحظ أن ظله على الأرض، لم يكن فيه انحناء أو ميلان، بل كان قوامه مستقيماً، ومنذ تلك اللحظة تغيّر لقبه، من الكائن المائل، إلى الكائن المستقيم!

**تجري أحداث هذه الرواية، بأزمنتها المتعددة، على خلفية مشهد احتراقه، أجل، يظل مشهد الاحتراق ثابتاً، بينما تتحول أزمنة القصّ، وتتعدد مستويات القصّ، وتتبختر راويات العمل، على خلفية آلامه.**

أما أرض، والفارق الزمني طويل بين حكايتها المحكية لحرز، وبين حكايته هو، أي حرز، فقد أتقنت لغة الأفاعي، وكل الحيوانات.

وأما دمج، الصديقة الجديدة لأرض، فكانت علاقتها بها، ذات شأن مميّز وشديد الاختلاف، فإذا كانت الأفعى الأم قد درّبت أرضاً على شؤون الولادة والتطبيب وشفاء الأمراض والتحدث بلغة الحيوان، فإن الصديقة الصغيرة، ذات الأفعال الكبيرة، وهبتها قدرات غيّرت في اتجاه أرض، حتى أنها أنستها مصيبتها بفقدان الأفعى الأم.

ومع انتهاء هذه الرواية، استيقظت جوزفين ذات صباح، لتجد على طاولتها رزمة أوراق صفراء قديمة، معنونة بـ «تفسير العلاقة السرية

بين أرض وأفعى» والتوقيع: جدار، ومن تلك الأوراق نقلت جوزفين ـ أثناء كتابة العمل[٦] ـ المقاطع التالية:

تلتقي الملكة أرض، بإحدى مخلوقاتها الأرضية، الأفعى دمج، وهي أسماء ذات دلالة في قاموس الملكة أرض، فإن دمج هي القدرة على امتلاك الحالة الثنائية، إنها المعرفة والجهل، الخير والشر، وترسل الملكة أرض الأفعى دمج، لترعى المرأة المسماة باسمها، أرض، ولتعلمها بعض فنون الحياة، وتلتقي الكائنتان الأرضيتان، أرض ودمج، في حمام أرض، وتتالى اللقاءات، ثم يحدث الاعتراف الكبير.

تعليق من جدار: يبدو أن الأفعى محاطة بسر عبر التاريخ؟! تُرى ما هو سر الأفعى الذي يظن أنها واسطة بين اثنين فقط، لتنقل المعرفة من أحدهما إلى الآخر، وما حدود معرفة ذلك الوسيط؟! أهو يحمل معرفة العارف، الموسّط، أم معرفة المنقول إليه، أم أنها مخلوق سري، يختبئ في ممارسة دور الناقل المعرفي فحسب، دون أن يكشف عن مزاياه؟!

ومن بعض الصفحات:

حين غضبت الملكة أرض في أحد الأيام على أفعى، وقد وهبتها الحياة الأبدية من قبل، منعتها من الذهاب إلى أرض، وكانت تلك ماخضاً وتكاد تلد، وعسرت عليها الولادة، وحين آن موعد انزلاق الجنين مهدداً بالموت، أرسلت الملكة رسولاً جديداً غير أفعى، التي

(٦) قدّمت جدار المادة الأساسية للرواية، ثم قامت جوزفين بالكتابة الأدبية، ثم جاء دوري النهائي، في الكتابة الأخيرة، شاطبة ما لا يلزم، موضّحة ما احتاج إلى توضيح، معتمدة في الكتابة الأخيرة على فهمي الخاص لفن الرواية.

ظُن أنها ماتت، وهي لا تموت، وإذ ذاك، انطلقت الأفعوانة الصغيرة، المسماة دمج، وهي ذاتها الأفعى الصغيرة، ذات الأفعال الكبيرة، منقذة أرض في اللحظات الأخيرة.

أما أفعى، فمنذ ذلك اليوم، مُنع عليها لقاء صاحبتها أرض، لسبب لا تعرفه إلا الملكة أرض وأفعى، إذ لعنتها أرض، وجعلتها تنام في الأوكار، وتتحدث إلى الأفاعي، بدلاً من نزع ثوب الأفعى، والظهور بقامة المرأة، متحدثة ـ إلى أرض ـ كالنساء، بشؤون النساء، متمتعة بمزايا النساء، من طعام وشراب وتدخين وثرثرة وضحك وغناء واستحمام وعناق.

ومن المقاطع:

قالت دمج لأرض: معي يبدأ عهد جديد، وبي ينبلج صبح آخر!

وتأوهت أرض حسرة على صديقتها الأم، ولكن مهارة الابنة، أنستها أحزانها، وبدأتا معاً التجربة الأولى، والخطوة الأولى في صداقتهما الجديدة، لتؤكد دمج على تميّز هذه المرحلة، فكان ما سمته دمج بـ: السحر الأول.

علّمت دمج أرضاً كيف تتلو الخطاب، مع طقوس أداء ذلك الخطاب، ويصعب عليّ هنا سرد الخطاب لغموضه، ولعدم ثقتي في كتابة بعض الأحرف والكلمات، ولعدم قدرتي على تفسير الكلمات، فهي تشبه معادلات أحرف لا يمكن فكّها إلا من قِبل ناطقيها، مثلاً: أ آ ب ح أبتح حتب حاق دجي شلو حداوا. عغ + سهخ + عغ ـ دعق * شهيق!

وتمتلئ عشرات الصفحات بأحرف وكلمات ومعادلات، وكلمات

مقلوبة، وكلمات من أحرف ميتة، ولغات منسية، وكتابات كأنها طلاسم أو رسوم حيوان أو أشكال أشياء غير مألوفة. ولصعوبة كل ذلك، سوف أكتفي هنا بنقل الطقوس المؤداة، بتصرّف مني، لأن ثمة انقطاعاً في أداء الطقس، وثمة فقرات ناقصة، ممحوة أو غير موجودة أصلاً، أو مكتوبة بحبر غير مقروء إلا لكلتيهما {أرض ودمج} أو، احتمالات ما، وثمة قطع أحياناً لسياق الطقوس، ليجد القارئ أمامه، مقاطع من نوتات موسيقية، وأعداداً وأرقاماً وأحرفاً لا علاقة لها بالنص {أو هكذا يُظن}!

إذن أنقل بتصرف:

تفلت أرض شعرها، ولا تدعه ضفيرة واحدة، بل تفرده شعرات متفرّقة، كل واحدة منطلقة وحدها ومنسابة من بدء منبتها، إلى نهايات امتدادها، وتحاول أرض نسل ثلاث عشرة شعرة، على عدد البطون التي حملت بها، شرط عدم انقطاع الشعرة المنسولة، وكان ذلك يقتضي دقة في فرز الشعرة ولفّها على الإصبع، كنول الغزل، حتى تصل إلى قرابة الرأس، فتنزعها بسحبة واحدة، وتقتلعها مسمّية باسميْ صاحبي البطن الأول {زلزال ـ أداء}، ثم تمسك بمنتهى شعرة جديدة، وتلفها على إصبعها حتى تصل إلى نهاية منبتها، وتقتلعها مسمية باسميْ البطن الثاني {أقدار ـ أحوال} ثم الثالث {آفاق ـ اشتياق}، إلى أن تصل إلى الشعرة الثالثة عشرة، والبطن الثالث عشر: طُهر.

وكانت دمج تساعدها في حصر تسلسل أسماء الأبناء، لأن ذاكرة أرض ـ ضمن انهماكها وتركيزها على ألا تنقطع أية شعرة، فتبدأ العملية منذ الشعرة الأولى، والحالة الانفعالية والعصبية التي كانت تصيبها في تلك الأثناء ـ لم تكن أبداً لتمكّنها من استعراض أسماء

منتديات الكوكب العاشر

أبنائها الخمسة والعشرين بالتسلسل.

وكلّما نتفت شعرة من جذورها، انوجدت بغتة، في أرض الغرفة، محل التجربة، زهرة نرجس مع عودها الأخضر، وانزاحت قطعة أفعوية عن جلد دمج، لتحل محلها قطعة بشرية، وإذ تنتهي أرض من نزع الشعرات الثلاث عشرة، تجد على الأرض ثلاث عشرة زهرة نرجس، وتكون دمج قد خلعت تماماً ثوب الأفعى، وارتدت ثوب المرأة، لتقف أمام أرض، صبية حسناء، في الثالثة عشرة من عمرها، تشع ببريق من جمال ليس بشرياً، ولا أفعوياً، فهي لا تشبه النساء، ولا تشبه الأفعى التي كانت تنهض بقوام بشري، لتطبب آلام المرضى، وتساعد أرض في الولادة، ولا تشبه أي امرأة {أو أفعى} التقت بها أرض، أو يمكنها الالتقاء بها!

وضحكت المرأتان معاً، أرض بشعرها السابح على جسدها المرتدي شعرها فقط، ودمج دون أردية، بشعر قليل منثور على عانتها وتحت إبطيها، وشعر قليل في رأسها، بنيّ بلون التراب، تفوح منه رائحة التراب المندّى بالماء، فكأنها مخلوقة من تراب!

وبدأتا معاً، أرض ودمج، بحل رموز العالم، من خلال ما أوتيتا من قدرات وعجائب تستطيعان القيام بها، ولم تكن أرض تعرف أنها تمتلك كل تلك الإمكانات، وكأنها كانت بئراً غير مكتشفة، أحكم عليها الغطاء، وحين جاءت دمج أزالت عنها التراب، وكشفت الغطاء، لتهبط أرض إلى بئر أسرارها ومواهبها وإمكاناتها.. وقد حاولت أرض عدة محاولات لامتحان قدراتها، فنجحت فيها جميعاً إلا واحدة، إذ إنها تمكّنت من إعادة شخص كان تائهاً عن أهله، حيث بثّته ـ عبر سحرها ـ رسالة ليعود، فكان أن وصلته الرسالة في مكانه البعيد والمجهول، وعاد في صباح اليوم التالي،

منتديات الكوكب العاشر

واستطاعت أيضاً إعادة ميت إلى الحياة، وجعلته يحيا لساعة واحدة، فقبّل يديها لأنها منحته إمكانية تسوية أموره التي تركها حين مات، وحقق ما لم يُتح له الموت تحقيقه، وعاد راضياً مطمئناً ليضع رأسه على وسادة الموت، ويعود إلى مضجعه، وكانت تستطيع {ويا للدهشة} اللعب بالمستقبل، وتغيير الأقدار، مع أنها تحفّظت كثيراً على ذلك، لأنه ليس من مصلحة أي إنسان أن يصير اللعب بمستقبله، ما لم يكن كائناً استثنائياً {ومن هو الكائن الاستثنائي بالنسبة لأرض، الذي يستحق أن يغيّر قدره؟!← } التعليق بخط جدار!

**[حذرتك ألا ترتل هذا النشيد، فيسكن في ذاكرتك، يأسرك ويلعنك، يفتتك فيستحوذ عليك، ولا يكون لك منه فرار، فيعدمك، وحيداً تموت وتشم رائحة رحيلك الأرض، ولن ينقذك من عذابك إلا عيد يأتي في ربيع يتلو رمادك].**

وردت «تلك الصيغة» حرفياً في إحدى الصفحات، ورغم قدرة أرض على اللعب بالأقدار وتغيير المصائر، إلا أنها لم تتدخل في تلك المسألة، أو تلك الصيغة، ولا واحدة من ثلاثتنا تعرف السبب، ربما فقط لتتمّ الحكاية، وربما لها أسبابها السرية، وربما!

يستلقي القائد على اللظى، متذكّراً وجه غياب، وثوبها الأبيض المبقّع بالدم، ويتألم، لا من ألم النار، بل من ناره الخاصة!

وأنا أشعر بنزق، لقد رمت جدار أمامي بالأوراق، قائلة: انتهى دوري، أكملي!

الأوراق متناثرة، والحكاية متعددة الأزمنة، وعليّ دوماً تشطيب

وترتيب وتنقيح و، أف، الأحداث متناثرة، والشخصيات موزّعة، والمصادر متعددة، وفوضى المسودات تربكني، ولا أعرف كيف أنظّم هذا الحشد من الأسرار والغموض والخطوط المتداخلة، إذ إن جداراً كانت تكتب بقلق أحياناً، لديها ثقة بأني سأتمكن من إعداد رواية جيدة لدى كتابتي الثانية، أف، يا للكسل، ما ينقذني من ضيقي، هو ثقتي بأنّ إحدانا ستتمكن من الإعداد النهائي للرواية، مخلّصة هذا العمل، من أخطائنا معاً، جدار وأنا ← الكلام لجوزفين!

خلال تلك التجارب المشتركة، بين أرض وأفعى أولاً، ثم بين أرض وأفعوانة ثانياً، والتجارب الأشد أهمية لاحقاً في استعارة الموتى، ثم إعادتهم إلى الموت، وكانت المحاولة الوحيدة التي فشلت أرض فيها، وكذلك دمج، هي استعادة أفعى!

تململ القائد في رقدته قليلاً، وكان اللحم قد تساقط عن معظم جسده، وبانت عظامه الفارغة من كسائها، إلا أن رأسه فقط، ظل محتفظاً بكل الملامح، والحواس، والرغبات، والأفكار. وكان يرى من جملة ما يرى وتفاصيله، ذلك الصغير حرز متنقّلاً، متشرداً، بين حظائر الحيوانات، وجدران القلعة القديمة، وحيطان القلعة الثانية، قلعة أبيه.

وكانت مسألة عودة الصبية دمج إلى أصلها الأفعوي، أمراً بمنتهى السهولة، كان يترتب على أرض فقط أن تلمّ زهرات النرجس الثلاث عشرة المترامية على الأرض، بعد أن تنهي العملية المجربة، وتقطف أرض الزهرات عن عيدانها، ثم تدعك الزهرات معاً بين كفّيها {ألذلك الدمج علاقة باسم الأفعوانة دمج؟} ثم تهصرها، وتمتصّ السائل المتسرّب من الزهرات، وما إن تبتلع أرض خلاصة

منتديات الكوكب العاشر

النرجس، حتى تعود الصبية دمج، لتصبح أفعى صغيرة ذات أفعال كبيرة، وتتسلل إلى مكانها الخفي عن أرض ذاتها، وتلمّ أرض شعرها إلى ضفيرة، ململمة آثار السحر المتبقية من ضيوف، وفناجين قهوة، وأعقاب سجائر، وسراويل، وشوارب، وصور مفقودين، وما ينساه الموتى العائدون إلى قبورهم من أغراض، وساعات وأقمشة، وأغراض شتى تحتشد بها غرفة أرض، محل السحر الأول، والمستمر.

«إنك لا تصل إلى معرفة غيرك، ولكنك قد تتمكّن من فهم نفسك، لأنك يا ابن الأرض، كائن معقّد، مركّب، لا تصغِ إلى ما تسمع، بل أصغِ إلى ضد ما تسمع، ولا تُفض بما سمعت إلى نفسك، لأن نفس من يتحدّث، تقلب الحكايات والأحداث، إن حقيقة الأمور تظل خبيئة ودفينة، لأن كل مخبّئ يجهد في إخفاء ما لديه، مبعداً عن كل أحد، معرفة أحد له.» ← المقطع الوارد، من رزمة الأوراق الموقعة بقلم جدار.

**[حذرتك ألا ترتل هذا النشيد، فيسكن في ذاكرتك، يأسرك ويلعنك، يفتتك فيستحوذ عليك، ولا يكون لك منه فرار، فيعدمك، وحيداً تموت وتشم رائحة رحيلك الأرض، ولن ينقذك من عذابك إلا عيد يأتي في ربيع يتلو رمادك].**

حين تزوّج زلزال بيداء، لم تستطع أرض خلق أي تفاهم بينهما، أي بينها وبين أولى كناتها، لأن اهتمامات المرأتين كانت مختلفة، إذ إن بيداء تعشق الجلوس على الشرفة، والنظر إلى الآفاق البعيدة، وهي تطرز وتحوك القماش والصوف والحرير، وتبتدع ألوان التطاريز من خيوط فضية وذهبية وأحجار تزيينية من لؤلؤ وصانجان وأحجار ملونة، كالزجاج المشبع بألوان لا تُحدّ.

أما ثانية الكنّات، عشواء، زوجة شق التوأم الأول، أداء، فكانت لا تعرف ليلاً من نهار، ولا الكلمة الخبيثة من الطيبة، ولا الطعام السيئ من الجيد. إذ كانت امرأة عشوائية، تنام النهار، وتفيق الليل، تتحدّث بما لا يجوز، ولا تعرف ما يجوز وما لا يجوز، تصف الأسود بضده، والجميل بعكسه، والعلم بما يخالفه. تضحك حين يكون أوان البكاء، وتبكي في أوان الضحك، تصمت حين يُطلب منها الكلام، وتتكلم حين يُطلب منها الصمت. وروت إحدى سلائفها، أن عشوائيتها، طالت فراشها، إذ يدخل فراشها من لا يحق له الدخول، بينما تطرد زوجها وتمنعه عنها!

أما زوجة أحوال، الشق الأول من التوأم الثاني، واسمها أعباء {انظر دليل الأسماء}، فكان قصارى جهدها منصباً على الطهو والولائم، وذبح حيوانات حميها حِرث، الذي جن جنونه حين ذبحت أعباء دجاجة نادرة، كان يتهيأ لجني صفقة من ورائها، فقالت له متبجّحة، وقد شمّرت عن زنديها المحشوين باللحم والبياض والأساور: اذهب إلى دار أبي واختر ما تريد من دجاج وخراف وماعز وأبقار، دار أبي مليئة بالحيوانات، وكنا نشبع من اللحم هناك، ماذا يعني أن دجاجتك نادرة؟ كله دجاج!

وكانت تقضي جميع وقتها وهي تذبح وتغسل وتنتف وتسلق وتشوي وتقلي، من الصباح إلى المساء، متجوّلة بين غرف الطعام والمطبخ وغسل الآنية وإعداد القدور وإشعال النار، ودعوة أهلها وأقاربها للطعام، وكان ما إن ينتهي برنامج الفطور، حتى يبدأ الإعداد للغداء، وما إن ينتهي الغداء، حتى تبدأ بتحضيرات العشاء، وحين تذهب إلى النوم، تستمر وقتاً طويلاً قبل أن تغفو وهي تحصي أعمال الغد، من ترتيبات وأنواع أطباق وأصناف حلويات و..

منتديات الكوكب العالمية

وللأمانة، روي أن طعامها كان شهياً ولذيذاً، وأن رائحته وحدها، كانت تثير غرائز الجوع لدى الشامّين، ومع لذة أطباقها، وشهرة مطبخها، إلا أن ذلك لم يكن مدعاة لمدّ جسر من علاقة مع أرض، التي اضطرت للاعتزال في غرفتها، غير قادرة على الاندماج مع النسوة اللاتي بدأن بالازدياد والازدحام في قلعتها ذات الغرف الكثيرة، والأولاد الكُثر، والأحفاد الأكثر!

وابتعدت أرض تدريجياً عما يُدعى «واقعية المكان، رغم أنها صارت أسطورة واقعية، إلا أنها اكتفت في عيشها بين جدران غرفتها، بين صديقتين، الأولى استمرت ثلاث عشرة سنة، والثانية، استمرت إلى ما لا يعرف عن نهاية أرض، وظلت أرض تنوس طويلاً بين وحدتها العميقة حين تغيب دمج والزائرون، وبين ضجيج القادمين من زوّار، يبعدونها عن لحظتها الخصوصية، تلك التي تكون فيها أرض، ما لا يُتوقع منها، من إحساس بالعزلة والغربة وآثار قهر يجهلها كل من يعرف أرضاً، الذي يظل مع حاله كثيراً، لا بد أن يتحوّل حاله إلى موضوع حاله!

تركت أرض شؤون القلعة لأحفاد لا تعرف أسماء أغلبهم، وكنّات تجهل أوقات مجيئهن إلى القلعة، وتذكر أنها لم تحضر زفاف أي منهن.

**تجري أحداث هذه الرواية، بأزمنتها المتعددة، على خلفية مشهد احتراقه، أجل، يظل مشهد الاحتراق ثابتاً، بينما تتحول أزمنة الروي، وتتعدد مستويات الروي، وتتبختر راويات العمل، على خلفية آلامه.**

أما عناد، أحد الأبناء الذين يصعب حصر تسلسلهم، ربما هو من

البطن الثامن أو السابع أو التاسع، وعلى الأرجح الثامن {انظر دليل الأسماء}، فقد وجد سلوته بعيداً عن قلعة أبويه الغائبين، أحدهما جسداً وحضوراً، والثانية حضوراً، مبالغاً {أي عناد} في غيابه...

حين كان يتجوّل مع عدد من إخوته، وكانوا آنذاك عشرة، إذ سمعوا من الغابة القريبة منهم، صوت غناء، جعل عناد الشهير بعناده، تاركاً خيله وسلاحه، وحصته من الصيد، وإخوته التسعة، متتبّعاً الصوت الذي أوصله ـ دون إخوته التسعة، إلى عين ماء في قلب الغابة، لا يصلها أحد عادة، لشدة امتلاء الدرب بالأشواك والنباتات النامية، لكنه تابع الصوت، فاتحاً طريقه بيديه القويتين، كيدي أبيه حِرث، محطّماً كل ما سدّ طريقه من شوك ونبات قارص وأشجار متشابكة التكوينات.

وحين وصل إلى منبع الصوت، بوغت الرجل، وخارت قواه، وارتخت يداه القويتان، كيدي أبيه حِرث، فهمد مكانه مندهشاً، فاغراً فمه، غير مصدّق، قابعاً، كما تيسّر له آنذاك، دون اختيار للمكان، فوق الأشجار والنبات القارص والأشجار المتشابكة التكوين.

وكان جلوسه هناك، لا يُمكّن المغنية من رؤيته، إذ حالت الأشجار دون رؤيتها له، وما حالت دون رؤيته لها، إذ تحايل واحتال، فوقع في مكان يراها منه، ولا تراه، وكان المشهد واضحاً أمامه بشدة، هكذا كان:

ثمة صبية تجلس على حافة عين ماء، تكوّم حولها ملابس كثيرة، وتغسلها برفق وصبر وتؤدة، وهي تغنّي غناءً موجعاً، لا لها، بل موجعاً لسامعها، أجل، كان لا بد من ذلك، أن يحسّ بالألم كل

من تصله ذبذبات صوتها، وكأن تلك الذبذبات محمّلة بطاقات تتسرّب عبر الهواء المنقول إلى أذن المستمع، ذلك الهواء الناقل للصوت، والحزن، والألم، والفجيعة، إذن كان لا بد من أن يشعر المستمع بكل ذلك، الحزن، والألم، والفجيعة، وبعضهم، البكاء، أو النحيب، أو الإغماء {حسب قدراتهم الانفعالية}!

أحسّ عناد بالقهر، وأن قدميه لم تعودا قادرتين على حمله من شدة الحزن، أحسّ بأنّ العالم ضيق، وانتابته رغبة في الموت، كان يبكي دون قدرة على ضبط انفعالاته، وكان حزيناً إلى درجة لا يمكن تدوينها هنا ـ بعد مرور زمن طويل على تلك الحادثة، ووجود فارق زمني طويل بين زمن القصّ {التدوين} وزمن الحكاية {الرواية} ـ {ألا يشعر أحدنا، بأنه في لحظة معينة، تتشابك عدة أحداث وعناصر وأمزجة، وتندمج ثمة عوامل مختلفة من طقس طبيعي، وطقوس داخلية، وصور، وأفكار، وأشياء أخرى غيرها، فيشعر هذا الـ أحدنا، بأن العالم مسدود بوجهه، وأنه يعيش داخل محدودية لا يمكن كسرها أو تخطّيها، فيحزن، أو يبكي، أو يندم على شيء ما، أو قد يفكّر بالموت، ويمتلئ بقهر يراكم لحظتها {في تلك اللحظة} كل الصور السوداء التي مرت عليه، إن لم يكن قد حدث ذلك مع أحدكم، فإنه ـ على الأقل ـ يحدث معي، ولن أدّعي أنه من تأثير غناء تلك الصبية الحزينة، المحمّلة بإرث لا علاقة لها به، ولا بد منه، إرث من الحزن والقهر والبكاء، لن أدّعي ذلك تماماً، ولكن، أحب أن أقول، إنه ربما كانت تلك المشاعر التي تقف أمام هذا الـ أحدنا {أنا على الأخص} قد لا تكون منطقية وعقلانية في زمن مرورها، ولكنها تحدث، ونكتشف بعد مرورها، أنها لم تكن منطقية، ولكن في لحظة مداهمتها لنا، لا يمكننا مناقشة ذلك، لأننا نقع في قلبها، في قلب الحزن، والألم، والفجيعة}.

مع انتهاء الأغنية، كانت قد أنهت الغسيل، وكانت الفتاة قد نهضت وشرعت بالرحيل، حاملة على أحد كتفيها، كومة من ملابس مغسولة، مشوّحة وملوحة باليد الأخرى على النوارس والنسرين الذين وقفوا صامتين يبكون أمام ذبذبات صوتها، مودّعة أولئك الحزانى، الطيور، الحيوانات، النباتات ، مودعة الغابة حزناً لن ينفكّ لأيام!

وحين شرعت بالخطوات الأولى من الرحيل، الصبية الحسناء، ذات الصوت المؤدي إلى الهلاك، وفتحت لها الأشجار درباً للعبور.

حين صمتت، كفّ الصمت عن الصمت، عاد كل شيء إلى حركته، وتحركت اللغة في الحياة، فسُمع صوت الطبيعة، وصهيل جواد من بعيد، وصفير رجال يدعون أخاً ضالاً وسط الغابة، وضجّت الغابة بأصوات ساكنيها، الحيوانات والطيور والريح والماء، وكفّ الذهول عن الحضور في عناد، وحلّ الصحو محله، فلحق عناد بالصبية دون أن تراه، أو تحسّ به.

وفقده إخوته التسعة، وعادوا إلى القلعة بجواد دون راكبه، مرتعدين خوفاً من فكرة سيئة دارت بين أفكارهم، وعبرت رؤوس تسعتهم، واستقرّت متجزئة في تفكيرهم جميعاً، فجلسوا واجمين، محاولين إخراج الفكرة السيئة، ولكن لا بد من حدث يغيّر الفكرة إلى ضدها، وفجأة، رأوه يسير ببطء، مطأطئ الرأس، ناظراً بانكسار إلى الأرض، دون تلك النظرة العنيفة، القوية في عينيه، وكأنه لم يكن عناداً الذي عُرف بعناده، أو كأنه تبدّل.

استمرت يومياته الحزينة، متشابهة: حزن، ألم، شعور بانسداد الطرق بوجهه، كفّ عن الطعام، والخروج من القلعة، والالتقاء بأحد،

منشورات الكوكب العاشر

وكأن صوتها سكنه، فاستقرت بداخله فكرة أن الحياة لا ينبغي أن تُعاش، وأن الموت أمنية، ويتوقف كل شيء عن الرغبة في الوجود، يتوقف حفيف الأشجار، ويخرس همس الهواء، وتكفّ العصافير عن الزقزقة، والضفادع عن نقيقها، والماء عن تموّجاته، والأوراق الساقطة على العشب عن هسهساتها، حتى أن الديدان الصغيرة، والنمل، والفراشات تتجمّد من الحزن، وتدخل في سبات طويل من بكاء وصمت!

كان يستيقظ من نومه متألماً، كأنه ينام داخل منامات التعذيب، ويتأوه طيلة نومه، إذ كان يسمع صوتها في مناماته، فيعاني من آلام ذبذبات صوتها الواخزة، المُبكية، القاهرة، وتنتابه تلك الرغبات وهو نائم، أنه: انتهى!

واستيقظ من نومه ذات مرة، شاعراً بآلام مبرحة، متيقّناً أنه سيموت، فنادى إخوته، وطالبهم بإحضارها له، ليراها قبل موته، وحزن الإخوة عليه بشدة، وذهبوا مدلولين على مكان وجود تلك الصبية القاتلة، ولكنهم لا سمعوا غناءها، ولا عثروا لها على أثر، وأنكرها كل من سُئلوا عنها، وكأنها لم تكن موجودة فعلاً،

{ينزلق القصّ من يدي، فتمسك به إغماء متابعة ما أقوم به، متّخذة ضمير المتكلم← } جوزفين.

أدركت أمي أن مصيبة ستحلّ على العائلة الجديدة، آل حِرث، وحزنت على الشاب الذي وقع أسير هوى ابنتها، ولم تستطع أن تشرح لأحد حقيقة ابنتها، أي حقيقتي، فحاولت إخفاء وجودي، لتمنع الكارثة عن حياة الشاب عناد، الذي أبدى إخوته استعدادهم لتلبية كل شروط العروس المبحوث عنها.

منتديات الكوكب العاشر

ولكنهم، الإخوة، عادوا ممسكين بتلابيب الفشل، {أتابع، القصّ، مزيحة إغماء عنه، وعني} وحين غالب مرضه، وعاند جسده المرهق، ركب حصانه، متجهاً إلى المكان الذي رأى طريقه في منامه، متتبّعاً الخطوات ذاتها التي ما فارقت مخيلته، ذلك المكان، الذي يستطيع الذهاب إليه في نومه، ويقظته، في مرضه، وصحّته، وحين وصل، قبع في البقعة ذاتها، بين الأشواك والنباتات القارصة، الحاكّة {المسببة للحك}، بين التين الوحشي والزعتر البري والفطر السام والتوت المزّ الأحمر، والسامّ وحيوانات لا تفر من تحت قدميه، بل يقبع بجرأة دون حراك عند قدميه وبين ساقيه، ضباء {ج. ضب} وضفادع وجرادين وأفاع صغيرة وديدان. وحين أنهت غناءها، وحملت غسيلها على كتفها، وبدأت الحيوانات الصغيرة بالهرب من بين قدميه، واتجهت هي، تلك الصبية، لتغادر عين الماء.

منتديات الكوكب العاشر

حين حدث ذلك، كما يحدث في كل مرة، تُجهز الصبية إغماء على العالم بذلك الغناء، وإذ ذاك، انزرع أمامها بغتة، ذلك الشاب المدعو عناد، دون أن تعرف الفتاة بداية لمشهد حضوره {أن ترى المشهد بعد بدئه، كأن تراه من الوسط، أو قبل النهاية، تحتاج إلى تفسير في معظم الأحوال، ويكون ثمة شيء ناقص، وغير مفهوم}، رأته أمامها دون أن تراه يمر، أو يعبر، أو يقطع الطريق إليها، وارتمى تحت قدميها، مبللاً حذاءها المتشقق العتيق بدموعه، ذلك الحذاء الذي حاذرت ألا تبلله بماء الغسيل، كي لا تبلّله أكثر، بلله هو بدموعه، فبلاه!

نظرت إليه وكأنها لا تراه، أو كأنها لا تصدّق ما ترى، أو لا تفسّر ما ترى، ثم، وكأنه غاب عن مجال رؤيتها، استدارت عنه، متجاوزة ما رأت، واستمرت في مسيرها.

كان يلاصقها، يسير معها كتفاً بكتف، يثرثر إليها، يوجّه إليها الأسئلة، وهي تسير صامتة، وكأن ثمة فاصلاً من زمن آخر، يجعلها لا تسمع ولا ترى ولا تفسّر، وتركها حين دخلت دارها، وأغلقت الباب بوجهه، وكأنه فعلاً حلم أو حكاية أو ذكرى، كأنه لم يكن مرئياً لها، وحدث ما كانت تخشاه أمها، إذ، في اليوم التالي:

ذهب عناد مع إخوته الأربعة عشر، وتوأمه، ذهبوا جميعاً، ستة عشر شاباً، على ستة عشر جواداً، وعادوا بها، مزدانة بالذهب والفضة والحناء والأغاني.

لا بد أن أرضاً فرحت كثيراً، لأن امرأة جديدة تدخل حياة العائلة، وطمحت أرض، وتمنّت صداقة مع كنّتها، لكنها، من جديد، أُصيبت بنكسة من العالم النسائي البشري.

منتديات الكوكب العاشر

**[حذرتك ألا ترتل هذا النشيد]**

ألقى الصبي الخجول، الناتئ العظام، برأسه على كيس الطحين في مستودعات جده، وكان يهرب إلى القلعة، قلعة جده، كلما أراد الاختباء من أمه، تلك المرأة الدائمة التهديد، ببتر ذاكه، أو قلع عينه، أو استحضار كائنات تختبئ خلف الجدار، جاهزة دوماً للانقضاض عليه، على حرز:

كنت أُصدق أن ثمة كائناً لا يشبه البشر، هو مزيج من ذئب وثعلب وحمار وإنسان وتمثال ضخم، تستطيع أمي استدعاءه حين تغضب مني، وأن ذلك الكائن العجيب، يستطيع قتلي، وطحن جثتي، وعجني، بينما أحسّ بكل ما يفعل بي، ثم يعيدني ثانية إلى الحياة، ويطلب مني الخضوع لرغبات أمي، والمشكلة أني لا أفهم

رغبات أمي، إذ إنها سرعان ما تغيّر رغباتها، وتتنقّل من رغبة إلى أخرى غير متوقعة، وبسرعة لا أكاد ألحظ فيها انتقال الرغبة، وتبدلها، وانقلابها.

اخترعت أرض، ولا أدري كيف اتفقت مع أمي، فأقنعتها بالحكاية، وتآمرتا علي، كلتاهما، أمي، وجدتك أرض، إن المقطع التالي من الرواية ليس صحيحاً، وقد فوجئت حين قرأت مسودات جدار، لا تصدّق ما قيل يا بني، إني كأم لك لا أبغي تضليلك، إن جدتك أرض تتلاعب بالحقائق، كما استطاعت التلاعب بالمصائر، لا تصدّق يا حرز أني أصاحب أحد أبناء العالم السفلي، وأنك قد لا تكون ابن أبيك عناد، أمي أصابها الخرَف وصدّقت حكاية صارت ترددها سراً ليلة زفافي: انتبهي، قد ينتقمون مني بك، وحين أسألها: من؟ تبكي وتجيب أنها من أجل الأولاد، أنا، وافقت على تلك الاتفاقية المشؤومة، وتروي أمي، جدتك، رواية لا تصدّق، عن كيفية مجيئي إلى الحياة.

{يستعرض حرز الآن حكاية أرض عن أمه، تاركاً حكاية جدته لأمه عن أمه كما روتها أمه}:

بعد زواجهما بأسبوع، دخل أبوك المنزل عائداً من جولة له، وكانت أمك تستحم، وحين اقترب من الحمام ليعلمها بمجيئه، سمع أصواتاً تتحدث، فأصغى وميّز حواراً بين أمك وصوت غريب لم يعرف صاحبه، واقتربت من عناد إحدى زوجات أخيه، أظنها كانت أضواء، أو فضاء، لا أذكر تماماً، وقالت لابن حميها بصوت هامس: زوجتك غريبة الأطوار يا ابن حمي، سألتها إن كانت تريد أن أفرك لها ظهرها، وهذه عادة عندنا، نحن السلائف، تدخل أي منا على غيرها في الحمام، وتفرك لها ظهرها، أو تساعدها في. المهم، امرأتك

رفضت إدخالي إلى الحمام، ولم تكن هذه المرة الأولى، فهي دوماً تستحم وحدها، وكلما عرضت إحدى سلائفها عليها المعونة، ردت زوجتك: لدي من يساعدني، وحين نسألها، ومن لديك؟ تسكت مبتسمة ولا ترد، واليوم يا ابن حمي وأخا زوجي العزيز، واربت باب الحمام سراً دون أن تنتبه، وهي داخله، فلمحت شكلاً لم أتعرّف إليه، ولم أستوعبه، لأنه بلمح البصر غاب، ولكني واثقة من أني رأيت شكل كائن يشبه البشر، وقعت عيني في عينه، ثم اختفى، كأنه خيال، وذاب عن النظر!

واقترب عناد من الحمام، يا بني حرز، ودفع الباب بغتة، فانفتح على آخره، ويا هول ما رأى!

حين زار حِرز جدته أرض ليسمع الحكاية، حكاية أمه، وحقيقة نسبه، من مصدر يثق به هو والجميع، وسيرة أرض كما شاعت وانتشرت، هي سيرة الصدق والحكمة، سيرة المرأة التي غادرت تماماً سيرة الانفعال، وقد دار بينهما ذلك الحديث، إذ أخذت أرض تروي الحكاية التي بدأتُ بها في السطور السابقة، وسوف أتابعها، وكان حرز قد قرر زيارة أرض قبل رحيله ومغادرة القلعتين معاً، للالتحاق بعمه طُهر، وأراد آنذاك أن يحسم أموراً كثيرة قبل مغادرته، كما أنه زار أبيه أيضاً، وسيأتي ذكر ذلك لاحقاً، إذن،

حين زار حِرز جدته أرض ليسمع الحكاية، وحين دخل عليها، بوغت بجمالها، فهو سمع كثيراً عن حكمتها وقدراتها، ولكنه لم يتوقّع أن يجد أمامه امرأة يصرعه جمالها، وأن تكون تلك الشابة الحسناء هي جدته، والجدة ـ كما تروي حكايات الجدات، أو الحكايات عن الجدات ـ امرأة معروفة بالحكمة، المعرفة، الخبرة،

منتديات الكوكب العاشر

الحكاية، الحقد على الأم {الكنة}. ولكن أياً من الحكايات لم تروِ سيرة الجدة الشابة، الجميلة، التي تصرع ذلك الحفيد، فتجعله لا أسير حبها وحنانها واحتوائها، بل أسير جمالها، وبالتالي ــ قصّتها ← صيغتها! ← جدار {إن هذا يحصل مع الأمهات، أو قد يحصل مع الجدة إذا حلت محل الأم، أي كانت الأم غائبة «متوفاة، مطلقة، مسافرة، هاجرة»، ولكني لم أسمع به قد حصل بين الحفيد وجدته! ← } جوزفين.

نعم، حين زار حرز جدته أرض ليسمع الحكاية، وحين سقطت عيناه، نظرته، على كامل قوامها، جسدها، حضورها، شعّ من الغرفة ضوء لفّه، وسرى برق في جسده، فكأنه تيار من رعد وبرق وأمطار، وتصوّر جسده مسلوحاً على تلك الصخرة، وقد نبتت أمامه زهرته البيضاء، والتي سمّاها زهرة المساء، تلك التي تتفتّح له، حين يزهر جسده، وتخضرّ ذكورته، ويخصب ذهنه.

ضحكت أرض وهي ترى حفيدها الشاب يتلوّن، وقد اصطبغ وجهه بالحمرة، ولفّه الضوء، وشمت منه رائحة الحليب والزبدة، فأدركت أنه في لحظة كهذه، يبيع الرجل الدنيا وما عليها، ليلحق بامرأته حتى آخر الكون، وآخر المغامرة، واحتفظتْ بمكانتها كسيدة متسيّدة سمعتها وحكايتها، خارجة من سيرة الانفعال، لتمسك بيده بهدوء، وتروي له قصة أمه، وحقيقة نسبه، كما سمعتها، لا كما تعرفها. ← لا أعتقد أن ذلك اللقاء قد تم فعلاً، وسوف تأتي أحداث تؤكد أن حرزاً لم يلتقِ بجدته على الإطلاق، ولكن لا أعرف أيا منهما {جدار، أو جوزفين} قد افترضت ذلك اللقاء، وأنا أرى أنه كما سار المثل «إذا تعددت الأيادي في الطبخة، احترقت!»، وأرى أيضاً أن الضرورة الفنية والفكرية تُلزمني باعتماد مستويات

منتديات الكوكب العاشر

القصّ الثلاثة، ومراحله الثلاث، والاعتراف بكل ما جاء في المرحلتين السابقتين لقصّي.

إن ما رآه عناد يا حرز، شيء لا يمكن تسميته، لم يكن رجلاً، ولا حيواناً، ولا شجرة ولا جداراً. كان شيئاً لم يرَ أبوك منه سوى أسفله الواقف على أرض الحمام، قدميه المكوّرتين دونما أصابع، كأقدام البط، تربطها أغشية، وحين رفع نظره إلى فوق، ليرى تتمة المشهد، اختفى، المشهد، والشيء، والقدمان. وحين رأته أمك وهي تستحم، تابعت عملها غير عابئة به، وراحت تدعك شعرها بالصابون، وتصب الماء!

هذا ما روته لي كنّتي، ولم تكن وحدها تعرف ذلك، بل سمعتُ قصصاً متعددة عن أمك، فلم أحتمل بقاءها معي في منزل واحد، فضلاً عن أمر غنائها المزعج، الذي كان يوترني، وكانت أمك يا حرز {قفز وجه زوجة عمه احتواء إلى ذاكرته، فأخذت الكلام من أرض، مستعيرة خطابها، متابعة ما كانت تقوله أرض}: إن أمك لم تكن تتحدث إلى أحد، ولم يسمع أحد صوتها، حتى أن أباك كان يكلّمها فلا ترد، بل تنظر لحظة إلى مكلّمها {أياً كان} ثم تغيب نظرتها، فكأنها، تُختَطفْ، ويبقى جسدها موجوداً دون وعيها، والحالة الوحيدة التي كنا نسمع فيها صوت أمك، حين تغني، وكنا جميعنا نتوقف عن أي عمل نقوم به أثناء غنائها، لا بإرادتنا، ولا باختيارنا، بل أمر غامض، شيء من قسرية، وإرغام، أنه حين تغني، لا يمكن الإتيان بأية حركة، فكأنه غناء الثبات، إذ كانت بيداء، سلفتي، تمسك الإبرة بيدها وتتجمّد كأنها تمثال من حجر، ومرة وخزت الإبرة إصبعها، وهي متجمدة كتمثال مندهش من صمته وصمت المحيط، وكذلك عشواء، سلفتي أيضاً، كانت تفيق من

منتديات الكوكب العالمية

نومها مذعورة، أما أعباء، فقد اشتكت لزوجها، وأقامت الدنيا، أن سلفتها إغماء حين تغني، تُلكئها عن طهوها، حتى قالت إن نار الموقد تنطفئ تحت القدور ما إن تشرع إغماء بالغناء!

ولكثرة الشكاوى، اضطرت أرض إلى أن تطلب من أبيك مغادرة القلعة، ما دامت أمك رفضت الامتثال لرغبتنا جميعاً في الكف عن الغناء، أو على الأقل ابتكار طريقة أخرى في الغناء، كأن تغني غناءً يُشعرنا بالسعادة والفرح والأمل، أو اللامبالاة، أو الدهشة، أو الصخب. لكن أباك، عناد، أبى مغادرة القلعة، إذ إن له ذكريات لا يستطيع تركها، وأنت تعرف يا حرز صعوبة أن يغادر المرء طفولته وذكرياته وتاريخه، وقلائل هم الذين يملكون دوافع لمثل ذلك، والأقل هم من يلبّون تلك الدوافع {حين تنوجد}، لا تنظر إلى جدتك يا بني، إنها امرأة قوية، ومختلفة، إنها تظهر كأنها دون تاريخ أو ماض، وكأنها فعلاً انولدت للتو، وانولدت امرأة شابة على الفور، دون أن تمر بذكريات الطفولة، وتاريخ وماض. نعم، إنها حاضر مستمر {هذا الزمن لا يوجد في اللغة العربية، لكنه موجود في لغات أخرى}، أو مستقبل مندمج مع الحاضر، إن هذه المرأة نادرة، إذن يا حرز، عثر أبوك على حل وسط كما يقولون، إذ جعل أمك تعاود الغناء أمام تلك العين، حيث عرفها وأحبها، وبذلك لا تزعج أحداً من سكان القلعة، ولا تُحرم من رغبتها بالغناء {أو قدَرها بالغناء كما تتدخل إغماء بالتوضيح، قبل أن تدخل في الإغماء}.

ولكن أرض اعترضت على وجود أمك في القلعة، بعد وقت آخر، رغم توقف أمك عن الغناء داخل القلعة، وكانت حجة أرض أن لأمك نشاطاً سرياً يتعارض مع نشاطها، وأنها على اتّصال بكائنات

هم على النقيض من الكائنات الذين تتّصل بهم أرض، إذ قالت أرض ـ والكلام على ذمّتها، وعلى الأرجح أنها أصدق من أمك، لا لأني أكره أمك، بل على العكس، من المعروف في التاريخ النسوي، أنه إذا خُيّرت المرأة بين حماتها وسلفتها، اختارت الثانية، ولكني أميل إلى الاعتقاد بصحة كلام أرض لما شاع عنها من دقة وما شاع عن أمك من فوضى وخلل في القصّ والفهم . المهم ـ أن نشاطها {أي أرض} يدعو إلى الخير، وأنها تصاحب كائنات تسعى لخدمة الناس، وراحتهم وهناءتهم {شفاء الأمراض، إعادة الغائب، مداواة الأحزان، مداراة المصائب، توليد النساء}. أما نشاط أمك، فهو نشاط شرير، يسعى إلى تخريب البيوت، وإثارة القلق في النفوس، وتفريق الأحباء، ونشر الأمراض. هكذا قالت أرض يا بني، وأنا رغم عدم موافقتي على سلوك أمك، إلا أني لا أنسى لها خدماتها، إذ إنها كانت تكوّم كل ثياب سكان القلعة الوسخة، وتذهب بها إلى عين الماء، لتعود بها نظيفة ـ ولا أعرف العلاقة السرية بين الغسيل والغناء بالنسبة لأمك، وعلاقة ذلك أيضاً بكون أرض، كما شاع عنها، إلهة الاغتسال، إذ إن ثمة قواسم بينهما، الغسل، الاتّصال بكائنات ما، لا مرئية، إذن، لماذا ذلك النفور، لا الالتقاء؟ ـ عدا ملابس أرض، التي كانت ترفض أي احتكاك أو تعامل مع إغماء، وكأنها لم تكن كنتها، بل منافستها، أو ضرّتها!

{أعتقد أن الغسيل الذي كانت تمارسه إغماء هو شكل من أشكال العقاب الذاتي، وأن الغناء الذي تؤديه بطريقة بكائية، هو كذلك عقاب، فالفعلان يتلازمان في كونهما حالة عقاب تمارسها إغماء ضد حالها ← جدار}.

يا بني يا حرز، لا تصدّق كلام الأعداء، إن زوجات عمك جميعهن يكرهنني، لأن أرضاً أثّرت عليهن، جدتك تلك الساحرة

الشمطاء، وللأسف أنها جدتك، لا تصدّقها يا حرز، إنها امرأة لعينة، مشعوذة، تتحدث إلى القطط والأفاعي، تميت الأحياء وتحيي الأموات، إنها امرأة خبيثة، غسلت أدمغة نساء عمك، وطردتني من القلعة لأنها لم تتمكن من السيطرة عليّ ووضعي تحت إبطها، كانت تريدني أن أكون مثل الباقيات، أن أكنّ لها الولاء، والطاعة العمياء، أنا لا أشتري جدتك الخبيثة بقرش {أو ربما قالت فلس أو درهم أو نكلة}، إن الحقيقة لا يعرفها سواي، إن منشئي سري للغاية يا بني، وهذا نتيجة اتفاق لعين بين أمي، جدتك الحمقاء، وبينهم، وسوف أطلعك على السر ما دمت قد كبرت الآن، كنت أنكر ذلك قبل الآن، لأنك كنت صغيراً، ومن المحتمل أن تؤذيك معرفة ذلك، أما اليوم، فقد صرت صبياً يافعاً، يمكنني الاعتماد عليه في هذه الحياة القاسية، إني أرغب في إطلاعك على ذلك، لأنه يهمني أن تنتصر لي، وتقف بوجه أعدائي {لم تقل يهمني إطلاعك على القصة، لأنك صرت يافعاً ومن حقك معرفة ذلك، أو أني أحترمك بعد بلوغك، لو أنها جربت مخاطبتي هكذا، آه ← حرز}، أنا لم أختر منشئي، ذلك قدِّر لي قبل ميلادي، كما قدِّر لك قبل ميلادك أن تكون ابني أنا، منهم! {تعتقد إغماء أنها وحدها تعرف القصة} ← جدار، سوف أقول لك الحقيقة كاملة:

إن الأمر ليس بيدي، لا أستطيع رفضه أو قبوله، {كأنها تكرر}، لأن ثمة قوىً بعيدة عن الإنسان، وغريبة عنه، تقوده وتتحكّم به، وتتدخّل في مصيره، وتسيير أموره، وقد وقعت أمي في شرك تلك القوى، إذ كانت المسكينة عاقراً، تزوجت ثلاث مرات، ولم تحمل من أيٍّ منهم، الاثنان ماتا، والثالث، أبي، استمرت معه خمسة عشر عاماً دون إنجاب، وكادت تطق قهراً لأنها دون أولاد، وتتألم حتى الموت كلما رأت ولداً في حضن أمه، وذات يوم غامض، هكذا

روت لي أمي، كما أروي لك الآن، وعند مغيب الشمس، دق باب دار أهلي رجل أسود الوجه، أزرق العينين، وتسوّل من أمي كسرة خبز، لكنها بدلاً من كسرة الخبز، أحضرت له طبقاً من الطعام، لحم ولبن، وسرّ المتسوّل، وكاد يبكي من الفرح، وأكل بشهيّة ونهم، ثم قال لها: لتتحقق أمانيك أيتها المرأة الطيبة، فقالت له أمي: كُل أيها المسكين، وأسرعت لتحضر له طبقاً آخر، وطلبت منه أن يدعو لها بالإنجاب: فأنا محروقة القلب، محرومة الذرية، آمل أن أرى حصاد بطني قبل موتي. وصار الرجل الأسود ذو العينين الزرقاوين يأتي في كل يوم، ليتناول طبقاً مميّزاً، ولا تملّ أمي من زياراته، بل تُجلسه عند عتبة باب الدار، وتُحضر له الطعام، وتُحمّله «زوّادة» تلزمه إن غاب عنها، وأحياناً تقدم له الحلوى والفاكهة، وتعتقد أمي أن سرّاً ما يكمن خلف ذلك الرجل، وهي ترتاح إليه، وتُطعمه من أعماق قناعتها، وبعد عدة أشهر من تكرار الزيارة، والأكل، والدعاء بالإنجاب، فاجأ أمي وهو يشرع بالذهاب: أعدك بأن تحبلي، وتري حصاد بطنك، ولكن بشرط، هزّت أمي رأسها بذعر موافقة، قال: إن كان مولودك ذكراً فهو لك، قرّي به عيناً، وإن كان المولود أنثى، فهي لنا، وسألته مذعورة: من أنتم؟ صمت ونظر إليها نظرة عميقة، ارتعدت لها أمي، وفهمت المقصود، بلعت ريقها الجاف، وتصببت عرقاً وهي تشعر بالفرح والخوف، وكانت أمي مستعدة لأي اتّفاق من أجل أن ترى حصاد بطنها.

وفي اليوم التالي، أحضر لها حجاباً، وطلب منها أن تعلّقه في عنقها، فقط حين تنام مع زوجها، ففعلت أمي، استحمت وتعطّرت، وعلّقت الحجاب «الحرز» في عنقها، وقال أبي «جدك» كما روت أمي، إنه لم يتذوق طعمها مرة في حياته، كما في ذلك النهار «كانا يجيدان ذلك في النهار، بل يعتقدان أن ضوء النهار فأل حسن»،

وقال إنه شعر كأنه يفعل ذلك للمرة الأولى في حياته، إذ كانت لذيذة كفاكهة سقطت للتو عن غصنها. وخلال أيام قليلة حدث ذلك، لاحظت أمي آثار الحجاب في بطنها، إلا أن ذلك المتسوّل غاب ولم يعد له أي أثر!

كانت أمي تدعو الآلهة أن يكون مولودها ذكراً، لتهنأ به، وتقضي الليالي متوجسة، ماذا لو أنها وضعت أنثى، ثم تقول لنفسها، يا امرأة أنت لم تصدّقي أن تري حصاد بطنك، أصارت لك شروط، ليأت المولود ما يأتي، المهم أن تريه، وتصبحي أماً، ثم نجد حلولاً لكل شيء، وكانت هكذا تتقلّب على سريرها يمنة ويسرة، ولا تنام ليلها، وفي النهار تبقى قلقة مضطربة تتأمل حياتها القادمة مع ابنها أو ابنتها، وتتخيّل ما سوف يكون عليه المولود، ولا تستقبل أحداً ولا تزور أحد، ولا تخرج من الدار، هكذا محبوسة داخل دارها وأحلامها، وترقُب أحياناً زيارة المتسول الغامض الذي انقطع عنها طوال تلك الفترة، وبعد تسعة أشهر، نعم، بعد أن استوى بطنها ونضج، كان لا بد من ثمرة بطنها أن تسقط على الأرض وترى ضوء النهار، صرخت أمي من الألم، وسقطت أنا على الأرض، وحزنت أمي قليلاً، وفرحت كثيراً، كانت تتمنى أن أكون ذكراً، أما هكذا، بأنوثتي، فهل ستنفّذ أمي الاتفاق؟

كانت سعادة أمي أكبر من خوفها وقلقها في حملي، لم تفارقني لحظة، ولم تفتح الباب لأي طارق، وقال أبي، إنه في اليوم السابع لولادتها بي، دق باب دارنا متسول سأل عن صاحبة الدار، قال لأبي: إن امرأتك طيبة القلب، لقد أطعمتني من طعامكم، وسقتني من مائكم، أريد أن أبارك لها بالمولودة، وحين دخل أبي على أمي النفساء وأخبرها برغبة المتسول المسكين برغبته ليبارك لها، صرخت

صندوق الكوكب العالمي

أمي مذعورة، وكاد الحليب يطير من ثديها: اطرده من هنا، اطرده، اطرده.

يبدو أن أمي كانت تريد نسف الاتفاق، وحاولت إبعادي عن الناس، والأحداث، وتربّيت سبع سنوات دون أن أرى أكثر من دارنا، وأكثر من أبوي، وحين بلغت السابعة من عمري، دق الباب، في ذات عشية، وحين فتحت «كانت أمي تستحم، ورغم تحذيراتها ألا أفتح الباب، فإن أمراً غامضاً جعلني أنسى وأتناسى تحذير أمي» فوجئت برجل أسود الوجه، أزرق العينين، يقف بالباب، قال لي: قولي لأمك أن تفي بوعدها، قبل أن أقصف عمرها! ورحل، وحين أغلقت الباب خلفه، وأخبرت أمي بما حصل، صرخت بي مؤنبة: ألم أحذّرك ألا تفتحي الباب لأحد، وتكررت الحادثة، ثلاث مرات، أنسى تحذير أمي، كأن رائحته خلف الباب كانت تخدّرني، تلغي ذاكرتي، يقول جملته ذاتها: قولي لأمك أن تفي بوعدها، قبل أن أقصف عمرها! ويرحل.

وفي المرة الرابعة، قفزت أمي من الحمام، والماء ينقّط من كل جسمها، وكانت شبه عارية، صرخت به: إذا عُدت إلى هنا أيها المعتوه فسأجمع عليك الناس ليقتلوك، اذهب من هنا، ولا تعد بعد اليوم!

ولكنه قال: والوعد؟

ـ أي وعد؟! لا توجد بيننا وعود.

ـ لا تظني أنك بذلك تخدعينني، أستطيع أخذها متى أريد، كما وهبتك إياها حين أردت.

ـ إنها ابنتي، حصاد بطني، ليس لك علاقة بما حصل.

ـ أنت تتنكّرين للاتفاق؟ سنرى!

ثم رحل.

أغلقت أمي جميع منافذ البيت، أقفلت عليّ باب غرفتي، ولم تدعني أنام إلا في حضنها، تعانقني كأنها ستخنقني، كيفما استدرت أو تقلّبت ارتطمت بجسدها، كانت تقيني بيديها وساقيها، وكأني سأهرب أو أفرّ من بين أصابعها.

كنا نمضي أوقاتنا الطويلة بالحكايات، كانت تروي لي الحكايات، كما أفعل أنا معك الآن، ودوماً، من هنا جاء ولعي بالحكايات، لم تترك أمي حكاية حدثت لها أو سمعتها ولم تروها لي.

وانزويت مع أمي سبع سنوات أخرى، حتى بلغت ورأيت الخط الأحمر في سروالي، وزال عنا خطر ذلك الرجل، إذ بعد غياب سبع سنين لا بد أنه ملّ من الأمر، وربما مات، ولكن حيطة أمي لم تتوقف أو تنته، وذات مرة، لعبت بعقلي بنت جيراننا، وقد التقينا سرّاً عدة مرات، كانت تتسلل إليّ حين تذهب أمي إلى الحمام، تتسلل من السطح، وتنزل إلى صحن الدار، نتحدث أحاديث البنات، وقصص الحب والهوى. نعم، ذهبت خفية عن أمي، مع قريناتي من البنات، إلى عين الماء، للاستحمام، من كثرة ما روت لي تلك الفتاة، والتي لم تخبرني باسمها في يوم، ربما لخوفها من عقاب أمي، وكانت جميع الصبايا في الحي، يتفقن في يوم محدد من الأسبوع، للذهاب جميعهن للاستحمام في عين الماء.

منتديات الكوكب العاشر

كان يوماً رائعاً يا حرز، شيء من حلم، أو منام، أو حكاية، ليس الوقت متاحاً الآن لأروي لك عن جمال ما رأيت، أنا الفتاة التي لم ترَ طوال عمرها «حتى ذلك الوقت» سوى أمها وأبيها، وخلسة، في بعض الأوقات، ابنة الجيران، ترى فجأة عشرات الصبايا في عدة وضعيات، لا وقت لذلك الآن {يبدو أن جداراً تلهث خلفها، تحثها بسرعة لإتمام الحكاية، فالرواية لا تزال في أولها، ورائحة الاحتراق بدأت تشوّش جدار قليلاً ← جوزفين}، وحين ابتعدت عن موكب البنات قليلاً، ليتسنّى لي التلذذ بالماء، فهو ليس ملكاً لجدتك كما يدّعون، لا وقت لذلك، دعنا من أرض، يا للسخرية، يعتقدون أنها إلهة الاغتسال، وأن فعلنا جميعاً نحن الصبايا في عين الماء، من آثار وتأثير إلهة الاغتسال، يا لله {أسمع صراخ جدار بين السطور، لا وقت لدينا، أمامنا عمل طويل، هيا} لا وقت لدينا الآن يا بني، نعم، ابتعدت عن البنات، لأتلذذ بالماء المحاط بالأشجار والأحجار الملساء الملوّنة، كأنها حيوانات مائية صغيرة، وربما كان بعضها من تلك الحيوانات، سرطانات الماء والضفادع وأنواع لا أعرف أسماءها، جلستُ وحيدة كعروس بحيرة لا ينازعها أحد على مياهها، إذ ذاك يا بني، ويا للمفاجأة، تعرف ماذا رأيت يا حرز، آه لم تحزر، طبعاً اسمك حرز وليس حزر، أوه، أعتذر ليس لدينا وقت، رأيت المتسول ذاته، الرجل الأسود، ذا العينين الزرقاوين، ولا أعرف كيف وصل إلى هناك، حيث يُمنع على الرجال الاقتراب من ذلك المكان، وخاصة في يوم الاستحمام، كأنه لم يمرّ بمكان، وكأنه انخلق بغتة جواري، على تلك الصخرة، جلس بمحاذاتي، أمسك بيدي وقال: تعالي معي، أمك لم تنفّذ الاتفاق، لكنك من حقّنا، وصرخت بصوت انشقّ له المكان، وهرعت البنات نحوي، إلا أني قبل أن أراهنّ يصلن إلي، وجدتني أهبط، ويده فوق فمي،

منتديات الكوكب العلمية

شيء فظيع يا حرز، كنت أنزل، كيف حدث ذلك، لا أعرف، كان يضع يده على فمي، ونحن نغطس في الماء، وننزل حتى مسافات، أجهل تحديدها.

عند هذا الحد توقفت أمي عن الكلام، وازدادت دقات قلبها، كنت أسمع تلك الدقات كموسيقى صاخبة، واصفرّ لونها، وصارت تشبه تلك المرأة التي تصير إليها أمي في الحمام، والتي لا تشبه أمي التي أعرفها.

«إذ لاحظ حرز أن أمه تصبح امرأة مختلفة في الحمام، نعم، تصبح امرأة غير أمه، فهي حين تثور وتغضب، تتغيّر ملامحها، ويشك في أنها أمه ذاتها التي يعرفها، وكأنها تتبدّل أو تتلبّس شخصية أخرى، أو أن امرأة غيرها، لا يعرفها، تسكنها» ← مقطع سابق!

أزبدت، وأرغت، وأغمضت عينيها في إغماءة جديدة.

وقالت زوجة عمه سماء، أم نجمة، وكان حرز يخلط بين زوجتي عميه، الأختين التوأمين ـ والسلفتين، سماء ومساء، بالأسماء والأشكال، فهما توأمان، تزوجتا من أخوين توأمين أيضاً، ومع أن الأخوين {العمّين} يختلفان جداً، أحدهما بدين وقصير، والآخر، مثل أبيه، طويل ونحيل، إلا أنهما، الزوجتين، كانتا متطابقتي الأوصاف، كبيرتي الفم، خضراوي العينين، بيضاوي البشرة، بارزتي الأنف، لهما صوت أجش كالرجال، ضخمتين، لهما المقاس ذاته، كأنهما حين صُنعتا، كان الصانع يوزّع عليهما اللحم والعظم والدم والملامح ، بالمقدار ذاته، وكان ما يميز واحدة عن الأخرى بالنسبة إلى حرز، هو حضور نجمة، التي تحسم الفوارق بين المرأتين، أمها وخالتها، إذ تتجه ما إن تصل إلى أمها سماء، فيعرف حرز أيهما

منتديات الكوفي العاشر

سماء، وأيهما مساء، وقد فشل تماماً في وضع علامات تفريق، حتى أنه في إحدى المرات، ربط ذيل ثوب سماء {أم نجمة} بخيط ذهبي، ليفرّقها عن أختها، لكنهما كانتا سرعان ما تبدلان الملابس، وكان من المحال أن يعتمد ملابسهما المشتركة والمتبادلة، كعلامة تفريق!

وكان ثمة علامة تفريق واضحة يمكنه اعتمادها، إلا أنها كانت تأتي متأخرة، إذ عليه أن يقترب ويتكلم ويسمع، ليعثر على هوية إحداهما، إذ حيث تلك العلامة كانت في طبيعة التعامل معه، فقد كانت سماء تدلّله، وتحتويه، وتشفق عليه لأن أمه ـ بسبب حالات إغمائها المتواصلة ـ كانت تهمله، فتقوم سماء بواجبات الأم نحوه، تطعمه، تنوّمه مع أولادها، تغسل ملابسه، وأحياناً تضع رأسه على فخذها وتعبث بشعره حتى ينام، أما مساء، فكانت تلوم أختها، محذّرة إياها من أن يرث حرز مرض أمه، فينقله إلى أولاد أختها سماء.

قالت أم نجمة لـ حرز في ذات أمسية، حين فرشت على السطح، ونام الجميع، إلاها، إذ جلست تنتظر زوجها، وفارق النوم حرزاً، وكاد يبكي لأن أمه كانت قد أحرقت «ذاكه» بالنار، فهرب قبل أن تشب النار بجسده {أترى ثمة علاقة بين تلك الحادثة وخلفية الرواية التي تجري الأحداث عليها الآن، أثمة فرح غامض، أو ألم مرغوب به، دفع حرز لاستعادة المشهد، وتكراره، أكان يتمم عقاباً لم تتمه أمه، أ. أ. أ.أ. يا للغموض!← } أنا، لكنه تألم وتورّم «ذاكه»، وهرب إلى السطح، كعادته في الالتجاء إلى أحد ما، وغالباً سماء، فأخذته تلك، سماء، وأجلسته في حجرها، وضمّدت له «ذاكه» بالأعشاب والمساحيق، حتى هدأ الألم، وخفّ الورم،

وراحت تتحدث إليه، لا كطفل، بل كصبي يافع يجب أن يعرف كل شيء عن أمه، وأبيه، كي يكون عاقلاً، ولا يرث أمراض أمه، وغضب أبيه، قالت من بعض ما قالت:

التقى أبوك عناد بأمه ذات صدفة، وكانت أرض قد غابت عن الحضور تماماً، فلم يكن لها وقت طعام، أو ميعاد جلوس مع بقية العائلة، وكان حِرث أيضاً، قد طار باحثاً عن مغامراته الحيوانية {مع الحيوانات} إلى أن أصبح صوت الحسّون، ومواء القطة، ونقيق الضفدع، وكل ما يمتّ بصلة إلى أصدقائه الحيوانات، أهم من أولاده الخمسة والعشرين، وكناته اللواتي يصعب تعدادهن {انظر دليل الأسماء} وأحفاده العاجز عن معرفتهم، حين يلتقي بأحدهم في ممرات القلعة، لا يعرف إن كان غريباً أو قريباً، ابن أحوال، أو طُهر {ناسياً أن طُهراً لم يتزوج}، وحين يرى الأولاد يعبثون بأعشاب ونباتات حيّة، ويقتلعون ورودها، التي تحرص على استجلاب النادر والفريد من أنواعها، ويتشاجرون ويتصايحون، كان حِرث يتوقف فجأة أمام تلك المشاهد، ويحاول ربط ملامح أحد الأولاد مع ابن له، فيعجز عن الوصول إلى معرفة هوية الولد {الصبي أو الفتاة} ومعرفة أبيه، أو إن كان الولد ابناً لابنه، أو لغريب، أو لابنته، ناسياً أن زوجته أرض لم تلد له البنات ذات يوم!

حين مرّت جدتك، فلمحها أبوك في الممر، وهي تمر من غرفتها في طريقها إلى أحد الطوابق، وحين رأت أباك وقفت أمامه، قاطعة طريقها، ونظرت إليه بتأمل محاولة التعرّف إليه، ثم سألته: أنت عناد؟! هزّ أبوك رأسه مذهولاً، ألم تعد أمه تذكره، لقد أهملته، وكذلك أهملت بقية إخوته، آه إنها لا تزال شابة كما رآها آخر مرة، أجل، كانت تحتفظ بمشهدها لآخر مرة رآها فيها، وكأن الزمن

منتديات الكوكب العالمية

لم يمر عليها، شعر عناد بدوار خفيف، وصار يتصبب عرقاً، غير مصدّق أن المرأة التي تقف أمامه، هذه المرأة، ذات النظرة العجيبة، إذ تنظر إلى أي كائن، فيأخذ بالارتعاش، ويتعرّق، وكأنها إلهة مؤقتة، نزلت على الأرض في مهمة، وستعود إلى أمكنة مجهولة، وتسافر، وتغيب. إن أحداً من سكان القلعة لا يشعر بأنها موجودة دوماً، فهي لا تصدر أصواتاً حين تسير، ولا تفتح باباً، ولا تأكل طعاماً على مائدة الطعام، وحين تتنصّت إحداهن {الكنات، أو الحفيدات} لا تتمكن من التقاط أي صوت يدل على وجودها داخل المكان، وقد تجرّأت مرة فنظرت من ثقب المفتاح، ولكني لم أرَ شيئاً في غرفتها، وقد خفت كثيراً لأني فعلت ذلك، ورأيت منامات كريهة، جثثاً ودماء، ثم سمعت صوتها يقول: لا تعودي للتلصص عليّ ثانية!

إن لجدتك سطوة عجيبة يا حرز، كم كنت أتمنى أن ألتقي بها، لكنها كانت قد حسمت أمورها، إذ حين تزوجت عمك انعتاق، ودخلت القلعة بعد ست كنات قبلي، وأنا السابعة كما تعرف، نعم، كانت جدتك قد حسمت أمورها، وحددت موقفاً نهائياً من الكنات، وكثرت أعمالها، فانزوت في ركنها، وما التقت بأحد منا، نحن سكان القلعة، من أبناء وكنات وأحفاد، آه يا حرز، كم اشتهيت أن أجلس معها كصديقتين، فأحكي لها عن همومي، دوماً تصورت أنها أكثر من سوف يفهمني، كم ناجيتها في وحدتي، وتضرعت إليها أن ترسل لي لأذهب إليها، كم حدّثتها في غيابها، إلى أن خشيت أن أعتقد أنها لا تحسّ بي، وربما لها أسبابها، كنت أحس بالوحدة في تلك القلعة، أمي هجرت أبي وأنا لم أزل فتاة صغيرة، واعتنت بي عمتي، وكانت امرأة قاسية، تحقد على أمي، وتضربني، هل عرفت الآن، سبب قسوة أختي مساء، لقد ورثت

منتديات الكوكب العاشر

تلك الطباع عن عمتي، أما أنا، أف، لماذا أتحدث هكذا، لم يكن ذلك قصدي، اسمع يا حرز، لا تنم، كنت أنوي أن أحدّثك عن ذلك اللقاء الذي تمّ صدفة {ربما قصدته أرض} بين أبيك وجدتك، اسمع الحكاية يا بني، وتجاهل آلامك، سوف تشفى غداً، أو بعد غد على أبعد تقدير، اسمع، ففي الحكاية عِظة، لا لأن جدتك ذات طاقات غامضة، بل لأن ثمة سراً في أصلك ومنشئك، فربما لا تكون ابناً لذلك الرجل المتعرّق المرتجف المرتعش الواقف أمام أمه، وقد أحسّ برغبة جامحة قضت على كل ما حوله من حاجات ومشاهد، لو أنه ينهال على يديها تقبيلاً، كان لجدتك أثر سحري على كل من يراها، إذ يشعر بأنه بحاجة إليها، وأنه سيجد حلولاً عندها، فيضحي بكل ما لديه من أجل الحصول على ساعة واحدة يكون فيها مجتمعاً بها، أرض، أوه، وكم سمع عناد، سلفي، عن الحاجّين إليها، الذين يتباركون بها، لكنه انتظر مرتعداً، مرتجفاً، مرتعشاً {إن أية لفظة من تلك الفصيلة، لا تدل على الاهتزاز الذي كان يعانيه في تلك اللحظة}، انتظر معرفة سبب توقّفها المباغت أمامه، وكأنها قطعت أمراً كانت تنويه إذ رأته، أو هكذا بدت لنا، وكانت قد عوّدتنا أنها حين تمر ـ صدفة أو عمداً ـ أمام حشود من المصطفّين أمامها، فكأنها لا ترى أحداً، ومرة، وأرتجف حين أذكر ذلك، رأيناها، تعبر أحد أعمامك، ورآها كذلك عناد، وهي تعبر أخاه، عمك انبهار، الصبي الثاني من البطن السادس، إذ دخلت خلاله، كأنه ستار من قماش، أو ورق، أو ضباب، ثم خرجت منه بالسرعة التي يعبر فيها أحدنا شلال ماء، بعد أن عبرته كـ هواء، ظلّ المعبور به، عمك انبهار، يهذي لأكثر من عشرة أيام، وهو يعاني من الحمى لشدة الانبهار، كان يصرخ: معدتي، أحشائي، قلبي. لقد كانت هنا، لقد دخلت وخرجت من هنا. كان يقول أشياء غامضة، ويهذي بكلام غير مفهوم، أنها مزّقته كأرنب، وأنها

منتديات الكوكب العالمية

أخطأت توزيع أجهزته الداخلية، فصار قلبه في قدميه، وكبده في رأسه، وأحشاؤه بين يديه. كاد يقتله الخوف والدهشة، وكان يتصبب عرقاً ـ كما أبوك الواقف أمامها مرتجفاً يغتسل بعرقه ـ إلى أن مرت أرض عليه، في غرفته، واضعة يدها على جبينه، مبتسمة له، فقبّل يدها، ونهض صارخاً بسعادة: لقد شُفيت!

وحاول عمك الاستفادة من تلك الحادثة، التي وجدها مخيفة في البدء، ثم أخذ بنشر دعاوى وأقاويل أنه مختار من أرض، وفيه بعض خصائصها، فقد مرت به، دون سواه، وعبرته دون سواه، وتركت بصماتها ورائحتها وآثار جسدها، في أعماقه!

إلا أنه لم يستفد من ذلك، لأنه كان يثرثر بدهشة، عن آثار أرض بداخله، الحفر التي زرعتها فيه، الأخاديد، المعرفة، السحر. وكان بذلك ينفّر كل شخص كان من الممكن أن يؤمن به، لعدم حكمته في الصمت، ولو قليلاً.

وضعت أرض يدها برفق على يد عناد، وكأن يدها حين أحاطت بيده قد ابتلعتها، أي كأن يد أرض قد ابتلعت يد عناد، كما تبتلع التربة المياه المنسابة عليها، سحبت يده نحوها، رأينا ذراعه تتبع قبضتها، وقالت له بصوت سمعناه، بعذوبة من يشرب ماءً هنيئاً بعد ظمأ طويل،كانت المرة الأولى التي أسمع بها صوت أرض مباشرة، لا من المنام، لم يكن صوتاً كباقي الأصوات، لم يكن تغريداً، ولا غناء، كان شيئاً مثل السحر، شيء يجعلك تشعر بالرغبة في النوم، النعاس، شيئاً يغفيك {يجعلك تغفو}، شيئاً مطمئناً، يخلق لديك قدراً هائلاً من الأمان، قالت، وسمعنا جميعاً ذلك:

ـ يا ولدي المسكين، لن ترى ذريتك!

ثم تركته ومضت، كضوء، كشعاع، كإشعاع، كألق، كبريق. شيء

منتديات الكوكب العاشر

سريع ولكنه يلمع، ويُدهش، ويُمتع.

حاول اللحاق بها، لكن سرعتها فوق سرعة الزمان، والضوء، والهواء. وقف عناد مبهوراً يحدق بوجوهنا ليتأكد من حقيقة ما حدث، وما سمع، إذ إننا جميعاً، وهو، نعرف مثلما يعرف: كانت إغماء حاملاً، ورأينا بطنها ينتفخ بك!

لن يستطيع عناد تكذيب أمه، لأنها كانت أكثر من أمه، لقد تجاوزت الأمومة، لتدخل في الأسطورة، وهو يدرك أنها، وقبل أن تكون أماً له ولإخوته، كانت إلهة ما، إلهة النظافة، إلهة الاغتسال. وصارت بعد أمومتها، أكثر من موضوع غسل وتنظيف وشفاء، صارت أسطورة، يحجّ إليها الزائرون من كل الأصقاع، إلى أن ملأوا القلعة ضجيجاً وازدحاماً، وراحوا ينامون على الطرقات والشرفات وفي ردهات القلعة، منتظرين أدوارهم للدخول على أرض، والمثول تحت قدميها، لتنقذهم من آلامهم، وآلام أحبائهم، والاستماع إلى نصائحها وتوجيهاتها، إما من خلال لقائها المباشر، وإما من خلف ستار، أو جدار خشبي، بحسب وضع كل منهم، مما حدا أبناءها الأربعة والعشرين {ذلك أن طُهراً لم يكن يؤمن بما يحدث في القلعة، ويشتم أمك ويصفها بالدجّالة، ونعجب كيف أنها لم تؤذه حتى اليوم} لبناء منزل مستقل لأمهم، متطرّف عن القلعة، منعزل، هادئ، مريح، محاط بالأشجار والمياه العذبة، والشلالات، يرتاح فيه القادمون، وتمارس فيه أمهم نشاطها دونما إزعاجات الأحفاد والكنات والأولاد، منزل مخصص لإبداعاتها الخاصة، ولزبائنها الذين بدأوا خاصّين، وانتهوا إلى عدد كبير ومتنوع من الطبقات الاجتماعية والفكرية.

منتديات الكوكب العاشر

## خربشة على النص:

كثيرون ممن كانوا يذهبون إليها سراً، كانوا يسخرون منها أمام الملأ، وعلى صفحات الصحف، ثم أُفاجأ بهم إذ أراهم عند جدتي، تلك التي لا يعرف أحد لماذا تسمح لي دون غيري، بعدم إغلاق بابها بوجهي، حتى شاعت عني جملة {جدار التي لا يُغلق بوجهها جدار}، لقد رأيت عندها ذلك الصحافي الذي هاجمها، وكان يحكي لها ــ من خلف ستارة ــ عن فتاة يحبها، ويكاد يموت في هواها، وهي تصدّه، وتريد رجلاً غيره، كان يتوسّل إلى أرض أن تنقذه من آلامه، وحين رآني أخرج من خلف ستارة ــ إذ كانت أرض تقف في الطرف الثاني من الستارة، بحيث تراه دون أن يراها ــ وقلت لها: هذا هو الذي نشر عنك تحقيقات مطوّلة في الصحف، فردّ علي، لقد كنت أقصد إشهارها، وهذه أساليب صحافية لمساعدتها على الانتشار، وأنا في أعماقي الحقيقية مؤمن بالسيدة أرض، وأتوسل إليك يا سيدتي ألا تغضبي مني، وأن تساعديني.

## زيادة في الخربشة:

تلك أساليب تافهة و، {لا أريد التقييم} متّبعة في البلدان الديكتاتورية، إذ يهاجمون أحداً من أتباع السلطة، ليظهروه على أنه مضطهَد، ليحصدوا له جائزة وشهرة، ويعتقلون سياسياً من أتباعهم، ليظهروه بطلاً ويتوجونه زعيماً للمعارضة، ويعتقد الجمهور، أن الزعيم فعلاً من المعارضة! ← لا جوزفين، ولا جدار.

## تتمة الخربشة الجدارية ــ من جدار إلى الأوراق

يا للبراعة، كان يدير أحاديث علمانية، يحكي فيها عن هجرانه المطلق لعالم الأرواح والوحي والأفكار الميتافيزيقية، وكان يعلن

انتماءه الكامل للعلم، وعبادته له، وأن الأمم لن تتحرر إلا بالعلم، وهذا الـ ميتافيزيق، يصيبنا بالعطب، ويجعلنا لقمة سائغة أمام الأطراف الأخرى، وأذكر أنه ساق جملة مفردات من عولمة، وغزو ثقافي، طمس الهوية.

وحين نصبت له كميناً في مؤتمر صحافي، أقيم خصيصاً تحت عنوان «الفكر الميتافيزيقي والفكر العلماني»، لأني قررت توزيع صوره على الحضور،حيث انكبّ ساجداً أمام أرض، يقبّل يديها بضراعة، فوجئت وأنا أمسك بالصور، بأن جميع الصور كانت تُظهره وحده، منكبّاً ساجداً أمام شيء لامرئي، يقبّل شيئاً ما منه، وعرفت أن صور أرض لا تُلتقط، ولكنه لم يعرف ذلك، وحين رآني وهو يدخل قاعة المؤتمر، اصفرّ وجهه من الخوف، غمزتُ له: تعرف ماذا في جيبي؟!

منتديات الكوكب العاشر

ابتسم ابتسامة يسميها الكتّاب: صفراء، لكنها لم تكن ذات لون، كان وجهه دون لون، كأنه قادم من الموت:

ـ لا أعرف، ماذا؟

ـ لقد أسعدني التقاط بعض الصور لك، مع جدتي، وسوف أوزعها على الحضور.

أمسك بذراعي، وخطا معي بضع خطوات نحو الخارج، ثم قال:

ـ نتفاهم دون فضائح!

ـ حسناً، ماذا تقترح؟

ـ أنسحب أنا ولا أقول أية كلمة، وأنت تمزقين الصور.

ـ وتُقلع عن ادعاءاتك العلمانية؟

ـ موافق!

ـ أسمح لك بالهجوم على الفكر الغيبي في حالة واحدة فقط.

ـ متى؟

ـ حين تكون صادقاً في تبنّيك للفكر العلماني، حين تحياه في وحدتك كما مع الآخرين، مثل عمي طُهر.

وإذ ذاك، لمحنا طُهراً يتنطّع للحديث، بوجه شديد الاحمرار، يجلس حرز بجواره، ويتكلم طُهر:

ـ إن الروح حالة غيبية، ولا يمكن الفكر العلماني {المخبري} أن يؤمن بما لا يراه إلا مخبرياً، الروح موجودة من خلال المؤمنين بها، ولكنها خارجهم، ليس لها وجود.

منتديات الكوكب العاشر

وصرخ أحد المؤتمرين:

وهل أنت ترى عقلك يا ابن العاهرة حتى تؤمن بوجوده، أم أنك بلا عقل؟

وسُمع صوت صراخ من القاعة:

لا تشتمه بأمه أيها الأحمق، لأنه ابن السيدة أرض.

ورد صاحب الشتيمة:

ـ أنا لا أصدق، ابن أرض، ويقول هذا الكلام، كيف تبرر طاقات أمك إذن يا بني؟

كانت لهجته قد تغيّرت، وكأنه خاف.

وأكمل طُهر كلامه:

أشكرك لأنك وصفتني بابن العاهرة، لأن ذلك يمتّعني من ناحية، ويضر بك من ناحية أخرى، لأنه يعني فقدانك لأسلحتك الذهنية، وأما بالنسبة إلى العقل، عقلك وعقلي وعقل أي شخص آخر، فأنا لا أؤمن به أيضاً، إني لا أؤمن بكل ما لا أراه: الضمير ـ الوجدان ـ الخير ـ العقل ـ الحب. أؤمن فقط بالإنسان، الإنسان وحسب، هذا الكائن الذي هو أنت وأنا وجميع الموجودين هنا.

وسأله صوت لم أرَ صاحبه الغاطس في مقعده:

ـ إذا كنت لا تؤمن بالعقل، فما الذي يجعلك تتحدث الآن؟

ـ الدماغ، تلك الكتلة البيضاء المتموضعة في الرأس، والحاملة لـ خلايا ودم وأعصاب، أوامر عصبية، تحرك لساني، وذاكرتي اللغوية، وبقية أدوات الوعي لدي، فأتكلم وأتفاهم معك، أو أتخاصم، وأرفع لواء العلم، أو ترفع لواء الروح.

ـ وأمك؟

ـ أمي امرأة عادية.

وقبل أن يتابع كلامه، ضجت القاعة بأصوات تطالب بإسكاته، خوفاً من نقمة أرض، وأصوات تُطالب باستمراره في الكلام، لتوضيح الحقائق، وأصوات تقف على الحياد وتوضّح أنه، باعتباره ابناً لأرض، فقد يقدّم حقائق مهمة، دون التعرض لأذى أرض وانتقامها، وكعادة تلك التجمعات {المؤتمرات ـ الاجتماعات ـ الندوات ـ المقابلات} فإن «الطاسة» تضيع، ويخرج الجميع كما دخلوا، يحملون أفكارهم التي دخلوا بها، دون تغيير، وكأنهم

منتديات الكوكب العاشر

جاؤوا للتسلية وتمضية الوقت. وكان حرز لا يزال جالساً بجوار عمه، يمسك بمنديل يجفف به عرقه المتجمع تحت خصلات شعره، مندهشاً من قدرة عمه على التحدّث ساعات وساعات، أمام ذلك الحشد من المعارضين له، إذ كانت القاعة تحوي مئات الحضور، تنطّع ثلاثة أو أربعة منهم للدفاع عن الفكر العلمي، وانزلق واحد منهم أثناء الحوارات، وتحزّب العشرات للفكر الروحي، متكئين على الأديان، والحماية التي يقدمها الدين لهم {من الناحية القانونية، والشفهية معاً، إذ لا تزال معظم القوانين مستمدة من التشريع الديني، ومن يجرؤ على المخالفة، إذ لا مجال للحوار، بل الأحكام واضحة ولا حاجة للاجتهاد والتفسير، والحقائق محتواة في تلك التشريعات!}، أما البقية الباقية {الكثيرة} من الحضور، فقد اكتفت بالاستماع، أو التثاؤب والملل، أو النوم {دون مبالغة} وكان طُهر أحد ثلاثة أشخاص احتفظوا بنشاطهم وقدرتهم على الحوار، لمدة ثلاث ساعات، وأدهش الجميع حين قال في نهاية المؤتمر، إنه يؤسفه، أنه وهو الذي تربّى في أحضان الفكر الروحي، الذي كان من الممكن أن يؤمن له الراحة والأمان، مما لا يؤمنه لغيره، لكنه يهجر ذلك الفكر {الغيبي} لأنه وضع يده بدقة على الإثباتات العلمية، والثوابت العملية، وأن كتبه القادمة، وكُتب زميل له يعمل في حقل الفكر الخالص، أنّ كتبهما سوف تساعد من يرغب بجدية في إقامة حوارات حقيقية، موضوعية، من الوجهين، الميتافيزيقي والعلمي ← تتوقف جدار عن الخربشة، وكنت أتمنى لو أني أزلتها من النص، لأني أُتّهم دوماً بالبعد عن الفن لصالح الفكر في أعمالي الفنية، إلا أن خربشتها كانت عميقة في الورق، وكادت تمزّقه وكأنه ليس ورقاً، بل جدار.

منتديات الكوكب العاشر

كيف لا يصدق عناد أمه يا حرز {تتابع سماء} وهو يراها تعبر انبهار، وكيف يفسّر انتفاخ بطن امرأته؟ فما حكاية انتفاخ بطن أمك يا ترى؟ أي يا حرز، ما حكايتك أنت؟!

زوجات عمك، سلائفي، لا يطقنني، حتى سماء، تلك التي تعتني بك حين أمرض، لديها مأرب، تريد أن تسيطر على تفكيرك لتكرهني، جدتك ساحرة شمطاء، وكناتها عديمات الأخلاق، أما أنا يا بني، فإن لي وضعاً خاصاً، وبالتالي، أملك عذراً كبيراً، ألم أعتبرك الكائن الوحيد الذي أفشى بسرّي، تعال، هيا نخرج من هذه الغرفة الكئيبة، أريد أن أتنفّس الهواء خارجاً، وأكمل لك الحكاية.

أف، كانت تأخذني من يدي، تخرج بي من الغرفة النظيفة المرتبة، تبتعد بي عن الدور المسكونة بالبشر، فنمرّ في طرقات ترابية وعرة، يدخل التراب والغبار في عيوننا وثيابنا وأحذيتنا، وأقول في سرّي، أين هو الهواء الذي تريد أمي أن تتنفّسه، وبغتة أشعر بالخوف، ها نحن بعيدون عن الناس، وأخشى ـ في تلك اللحظات ـ من النظر إليها، لأجدها وقد أخذت ذلك الوجه الذي يحل محل وجهها، وتصير تلك المرأة التي أخاف منها، قبل أن تسقط في الإغماءة.

تنتابني رغبة في الهرب، تقبض على يدي كما يقبض صاحب الدار على يد اللص الذي أمسك به بالجرم المشهود، وتثرثر لي، وأصمت دونما إصغاء، متوسلاً أرض {إذ علّموني جميعاً، عدا أمي، أن أتوسل أرض في الأزمات} ألا تقع أمي في الغيبوبة، مما يخيفني بشدة، وكانت أمي لا تكمل أية حكاية، فهي، إن لم تقطعها بسبب إغماءاتها، تملّ، وتتوقف عن الحكي، لتأخذ بالغناء.

منشورات الكوكب العاشر

**تجري أحداث هذه الرواية، بأزمنتها المتعددة، على خلفية مشهد احتراقه، أجل، يظل مشهد الاحتراق ثابتاً، بينما تتحوّل أزمنة القصّ، وتتعدد مستويات القصّ، وتتبختر راويات العمل، على خلفية آلامه.**

حين أدخل غرفتي، تلك الغرفة الصغيرة التي قدّمها لي عمي طُهر في المدينة، بعد أن انفصل عن القلعة، وسكن وحده في شقة مؤلفة من ثلاث غرف، خصص الأولى لمرضاه، والثانية لراحته، والثالثة لي.

حين أدخل، أجد مفاجآت في غرفتي، لا كتلك التي كان عمي رؤية يخبئها لي فتؤدي إلى شعوري بالفزع، بل مفاجآت مضحكة ظاهرياً، ومحزنة جوهرياً.

مثلاً، يعلّق لي قصاصة مكتوباً عليها:

أو يعلق لي جماجمه، وهياكله العظمية وأقفاصاً صدرية وقلوباً صناعية على مسمار في الباب، ما إن أفتحه لأدخل، حتى تسقط فوق رأسي، مع ورقة: آسف، شيء ما لإخراجك من الأحلام!

أو أن تحشر جدار أصابعها، فتخربش على أوراق طهر ملاحظاتها، وتثرثر لي بين سطور طهر، كأنها لا تجد ما تكتب عليه إلا سطوره، فلا أكاد أميز ما كتبه طهر، مما حشرته هي، مثلاً هذه الورقة الصغيرة «المجعلكة»، امتلأت بحواشٍ وهوامش من الوجهين:

منتديات الكوكب العاشر

## الوجه الأول:

| | |
|---|---|
| إلى الرجل الصغير، الحالم الكبير:<br>مررت ولم أجدك في المنزل،<br>تركت لك هذه الرسالة، لأذكّرك<br>بموعد الساعة الثالثة<br>تبدأ المحاضرة في الثالثة تماماً،<br>سوف أتحدّث عن شخص<br>يشبهك،<br>محشو بالأحلام والحكايا<br>والمخاوف الغامضة<br>البارحة، كنت تهذي في منامك،<br>أيقظتك، ولكنك! عدت للنوم، | العزيز حرز، تقيم جمعية الرفق<br>بالإنسان المريض والمعقد والمحشو<br>بالأحلام، رحلة إلى جزر الأفاعي<br>والجدات الجالسات على عروش<br>من نور وعبور<br>أدعوك للذهاب، لقد قطعت لك<br>تذكرة وأعتذر لعدم مرافقتي لك،<br>لأني كما تعرف، أنا تلك التي<br>لا يُغلق بوجهها جدار، ولا ينغلق<br>باب، سوف أذهب للنوم في<br>أحضان تلك المرأة التي أعطتني<br>ما لم تعطه لغيري، وتركتكم<br>جميعاً تغارون من اصطفائها لي<br>وسوف أمد |

## الوجه الثاني:

| | |
|---|---|
| نعم، سوف أمد لك لساني<br>ساخرة،<br>هأ هأ هأ هأ<br>الكتابة الصغيرة والمائلة لي،<br>أما المستقيمة والرصينة والكبيرة،<br>له، عمنا، عمك، الطبيب<br>الطاهر،<br>طهر. باي. | فلم أزعجك، كنت تصرخ:<br>جدتي، أرض، أنقذيني<br>ثم تهمس باسم رؤية،<br>أنت لا تزال في داخلك طفلاً<br>خوّافاً،<br>يبحث عن الأمان عند جدته<br>الأسطورية،<br>سوف تقودك حكايات جدتك<br>إلى الجنون،<br>احضر في الثالثة تماماً، وإلاّ،<br>شكوتك لأمي أرض، هأ هأ هأ |

منشورات الكوكب العاشر

أرفع صوت المسجل عالياً، أحاول التمتع بالسيمفونية، سمْعتها العالمية تشدني إلى ضرورة سماعها، ولكن، ما إن تبدأ أولى ضرباتها، حتى أغيب عن الغرفة، ولا تعود أذناي تسمعان الموسيقى الحالية، بل أسافر مع أحلام اليقظة، فأرى أمي تتوسّط الساحة، جالسة، تمسك بمكبر صوت وتغني، أوه كم أحس بحنين إلى غنائها الموجع، ومواويل الانكسار، صوتها يهزّني، أدوخ بها، تسكرني، أما الموسيقى الكلاسيكية، والنوتات التي أدرسها، فهي تشبه دروس الرياضيات لطالب مغرم بمطاردة الضفادع والأرانب والحيوانات البرية، والقفز في البراري والحقول.

أهدى لي عمي طُهر مجموعة موسيقية لعازف ملأت شهرته الأرض، وقال إن تلك المعزوفة سوف تخلّصني من شرودي من الموسيقى / هربي مما أسمع، والارتماء في حضن الماضي، وما يسميه طُهر بـ إرثي اللحني!

ولكن مع كل ما سمعت، لم أستطع إلا التحليق هرباً من المسموع، والارتماء السمعي في صوت أمي، وهدهدتها العذبة، بعيداً عن نوباتها، أمي، لولا نوباتها، لكانت أهمّ مغنية على وجه الأرض، لكن، يا لحظّها العاثر!

حين تغني أمي، أتمايل، أهتز، أرتعش، أحلم، أبكي، أرى صوراً، أخترع، أطير، أصبح أكثر مِن أنا، أتفتت إلى أكثر من جِرز، وأنكّب، أتبعثر، أحلم في اليقظة، حلماً شبه ثابت، موضوعه واحد، والتفاصيل متغيّرة، العنوان هو دوماً: أنا كقائد موسيقي!

{كان حرز، يدخل الغرفة الجديدة، بعد قراره بتحويل مسار حياته، ثم يدخل سريره، ويبدأ بصياغة حكاية، إلى أن يُمضي ساعات

منتديات الكوكب العاشر

طويلة، ثلاث، أربع، خمس ساعات ، وهو مستلق في سريره، إلى أن يضع نهاية وخاتمة مريحة لحلم اليقظة {الحكاية} الذي بدأه!

«ها أنا أكتب لحناً هاماً، يكتشف الناس أني ملحن كبير ومغمور، يندمون لإهمالهم لي، يتهافت عليّ النقّاد، تصرّ إحدى الفنانات على التعرّف بي، تقدّم لي ثروتها، وتتزوّجني، تكتب الصحف عني}. ← مقطع سابق! ← لتأكيد الحالة الحلمية المتأصلة فيه ← جوزفين.

إذن، العنوان هو: أنا كقائد موسيقي، مع تعديل التفاصيل، كأن، أحلم:

عيناي مغمضتان، ثمة أداء موسيقي جديد، أضع نوتات موسيقية جديدة، وأقود فرقة موسيقية كبرى، وأصبح في تلك اللحظة: القائد، قائد أوركسترا لم يسبق لها أن كانت كذلك، لا من حيث عدد العازفين، ولا نوعية الأداء، ولا شهرة قائدها وإبداعه.

وحين يكف صوت أمي عن صناعة حلمي، إذ تتوقف عن الغناء، تنقطع الصور، ويموت ذلك القائد، فأسقط في حالة عجز وعطالة، وأشعر بأنّ العالم ضيّق وتعيس، فأبكي، أو! أنام {ثمة تعارض بيّن بين الأثر الذي يتركه غناء إغماء على الجميع، وبين الأثر المتروك على ابنها}.

إن صوت أمي هو المحرك الأساسي لأحلامي، وإبداعاتي، وعزفي، إنها حين تغني، تخلقني من جديد، تكرر الإتيان بي، لا من رحمها، بل من صوتها، وكأني ربيب حنجرتها لا أحشائها، وذلك الحنين المزمن إلى صوتها، يشعرني بارتباط بحبالها الصوتية، لا

منتديات الكوكب العاشر

حبالها السرّية، كأنها حملت بي من لحنٍ إلهيٍّ، وحملتني في حنجرتها، وغذّتني بألحانها وترانيمها، فصرت ابناً لصوتها الذي يصدح لحناً وموسيقى، حتى لو كانت تحكي حديثاً عادياً، على ألا تقع في تلك الحالة المخيفة، الإغماء، فتصير أمي امرأة أخرى، تلك المرأة التي تشبه عصافير السماء الموهوبة بألحان لا يمكن تقليدها، أو الإتيان بمثلها، وترانيم النسائم الهادئة، وأصوات الطبيعة المبدعة، نعم، تصير تلك المرأة {أمي}، امرأة أخرى، بشعة، مخيفة. إني في كل إغماءة تقع فيها أمي، أحسّ ـ في كل مرة ـ بأنها امرأة غريبة، وأني لا أفهم شيئاً مما حولي، إنها حين تسقط في نوبتها، تُسقطني في حالة من الدهشة والفراغ وعدم الفهم. وكل ما له علاقة بالضياع واللايقين!

إنها {أمي} إذ تغني، وإذ لا تغني، بل أستحضر غناءها، أحسّ برحابة الحياة {لاحظ فروقات تأثير غنائها}، وإيماني بقدرتي على قيادة أوركسترا، نعم، إذ تغني، أو أستحضر غناءها، تنتابني حالة القائد: الثقة ـ السيطرة ـ القوة ـ الامتلاك ـ القرار ـ الإرادة ـ البناء. القيادة بكل عمقها!

وحين أعجز عن استدعاء صوتها، أصبح كـ قائد مهزوم، منسحب، خجول، ضعيف، متخاذل، منكسر، وكل ما يمكن أن يحسّه أي قائد مهزوم!

مهزوم حين لا تكون، وقائد منتصر بها، حين تكون.

قائد موسيقيّ لا عسكري، كما أبي، صوت أمي يوقظ قدرات قيادية لدي {إما أنها مدفونة، وتستفزّها أمي للظهور، أو أشك أحياناً بأني لا أمتلكها، إلا أن أمي تستحضرها من مكان ما، تستعيرها،

تُلبسها لي، تصيّرني رغماً عن الكون، القائد الذي به أحلم}، فأقود العالم نحو موسيقى تخلّصه، وأقود الموسيقى، إلى تخليص العالم.

إذا كنت قد ورثت شيئاً عن أبي، فهو حب القيادة، وإذا كان ثمة خلاف كبير وأسايا بيننا، فهو في شكل القيادة، إذ أراها في الموسيقى، العازفين، الآلات، ويراها، في الجيش، العساكر، الدبابات والقذائف. شكلان من القيادة لا يمكنهما الالتقاء، إلا في فكرة، حب القيادة.

حين أعزف السيمفونية حسب النوتة، لا أحسّ بوجودي معها، أجل، أحسّ بغرابتها {السيمفونية}، إنه أداء خارجي، أعزف بمهارة، ولكن دون متعة، دون إيمان، كمن يتعلم لغة ثانية غير لغته الأساسية، كأنه انتقل ليحيا في محيط آخر، لا يعرف لغته، فيضطر إلى تعلم لغة المحيط الجديدة، ينطقها بسلاسة، ولكنه، حين يحلم، أحلام يقظته المحببة، أو المكروهة، وحين يكتب همومه، وحين يرى مناماته، فذلك كله يحدث: باللغة الأولى!

أو كمن يدين بديانة جديدة، مختلفة عن ديانته الأولى، ربما يختار الثانية، بينما تكون الأولى قد اختارته، لكن حنينه، يبقى للأولى، رغم تعارض ذلك مع المنطق. لماذا نكتب الذكريات الأولى، واللذائذ الأولى، بالشيفرة القديمة، الأولى، لماذا نحنّ إلى الأيام الأولى، الأمكنة الأولى، التضاريس الأولى، النكهة الأولى؟!

إن أمي، هي الموسيقى الأولى، وما تلاها من موسيقى، رغم براعتي في استخدامها وتمثّلها وأدائها {بعد أن تجاوزت ضعفي الموسيقي، فأتقنت النوتة والسلالم الموسيقية والمقامات}، إن كل الموسيقى التالية لا تسبب لي المتعة حين أسمعها مني، أو من غيري، ولا تزال متعتي

منتديات الكوكب العاشر

الموسيقية الوحيدة، هي أداء أمي، وما تعلّمته منها من ألحان وأغانٍ، وأداء!

إن لذتي اللحنية هي أمي، أما الأُوركسترا العظيمة التي أحلم بقيادتها، والموسيقيون الكبار، والألحان العظيمة، فقد ظلّت فقط: قيادة أحلام!

**تجري أحداث هذه الرواية، بأزمنتها المتعددة، على خلفية مشهد احتراقه، أجل، يظل مشهد الاحتراق ثابتاً، بينما تتحوّل أزمنة القصّ، وتتعدد مستويات القصّ، وتتبختر راويات العمل، على خلفية آلامه.**

منشورات الكوكب العاشر

استلقى القائد على كومة القش المعدّة كسرير، فمدّ فوقها بطانية عتيقة، وعلّى مكان رأسه، لتتسنّى له مراقبة مشهد احتراقه كاملاً، وإذ استلقى {في بداية الرواية}، أشعل سيجارته ببطء، وأنهاها قبل نهايتها، رامياً إياها بين أكوام القش المتكدّسة تحته، ليأخذ سرير القشّ بالاحتراق ببطء، محرقاً معه كل ما يتكدّس فوقه، من بطانية سوداء، وجسد القائد.

من الأبطال المهمين في هذه الحكاية، حكاية سكان القلعة، وأرض سيدة القلعة الباطنية، وحِرث السيد الظاهري للقلعة، وحِرز الضحية الكبرى لتلك الحكايات [يعتبر حرز أنه ابن الحنجرة، بينما تعتبره جدار {إحدى صاحبات الرواية}، أنه ابن الحكاية، لقد ولدته إغماء في قلب الحكاية، وتنوّعت الحكايات حوله، وشاركت عدة مصادر في نسج قصص وحكايات، واقعية وخيالية، لتبهر مخيلة الصبي، وتحبسه داخل عالم من احتمالات القص، والأسطرة، والتخييل، والأحلام.

لقد تفاوتت مصادر القصّ حوله، حبكت نسيج تكوينه الداخلي {التخييلي على أغلبه} نساء تعارضت معلوماتهن، وتفاوتت مقدرات القص لديهن، ما بين امرأة متقصّدة، لا عن حسن نية، نقل معلومات {أو تحذيرات} عبر الحكاية، وأخرى، امرأة عم، هدفت التقصّي الموضوعي لحالة الحكي، وأم، تدعو حكايتها إلى التصديق، لا لأنها أم فقط، بل لدهشة الحكاية، وجدة، فاقت مقدرتها في توليد الصبي/ القائد/ من الحكاية، حين أطلقت تلك الصيغة، ولا ينقذها تبريرها الوارد في الصفحات الأولى: «ولقد تلوت صيغتي على جميع أبنائي وأبنائهم وبناتهم، فأهملوا، إلا حرزاً، فحقّت عليه اللعنة» قالت أرض للصبية السوداء، ذات العينين الزرقاوين: آثام، إذ إنها، يتلك الصيغة، حمّلت حرز المولع بالحكايات والأحلام، حملاً إضافياً، أسره إلى لحظة احتراقه، داخل صيغ الجميع وحكاياتهن: جدته، أمه، زوجات أعمامه، بنات أعمامه، بنت بنت عمه. {هل المرأة هي الأكثر ولعاً بالحكاية، صناعتها، نقلها، ترويجها، وهل قدرة صياغة الحكاية/ الرواية لدى المرأة أكثر عمقاً، لتجذّرها / المرأة، في القصّ، وهل المرأة هي الأبدع في عالم الرواية إذن؟!← } جوزفين.

**[حذرتك ألا ترتل هذا النشيد، فيسكن في ذاكرتك، يأسرك ويلعنك، يفتنك فيستحوذ عليك، ولا يكون لك منه فرار، فيعدمك، وحيداً تموت وتشم رائحة رحيلك الأرض، ولن ينقذك من عذابك إلا عيد يأتي في ربيع يتلو رمادك].**

لقد عاش الولد تلك الصيغة، التي لا يعرف أحد بدقة، الشخص الموجهة له، أهو حِرث، أم عناد، الغائر على الأموال، الآكل للمال الحرام، ومن الشخص المهدد بالموت وحيداً، لتشم رائحة فساده

الأرض، وهل تلك الصيغة مجزّأة، بحيث تتوجه كل جملة منها إلى شخص ما، أن تحذّر حِرث مثلاً، فتلعن عناد، فيموت حرز وحيداً، وتشم الأرض رائحة ابنه. أم تحذّر حرز، فتلعن أبناءه، فيموت أحفاده. لمن التحذير إذن، وممَّ حرّزته أرض، حين سمته بذلك الاسم: حِرز! من الأبطال المهمين في هذه الحكاية إذن، لا من خلال قدرته على الحكي، إذ حاول مغادرة الحكاية، بل، لأنه تماماً: خرج من الحكاية!

لقد استطاع طُهر الخروج من هذه الحكاية، والنفاذ إلى خارجها، وإذا عدنا إلى دلالات الأسماء {لا الدليل}، نعرف أن أرضاً هي التي أطلقت الأسماء على أبنائها الخمسة والعشرين، وبعض أحفادها وحفيداتها، بمعونة أفعى، وأفعوانة في المرة الأخيرة {الخامسة والعشرين}، فلماذا تمت تسمية هذا الأخير، بذلك الاسم، طُهر؟!

هل حين غادر طُهر الحكاية، صار طُهراً، أم أنه كان طهراً قبل الحكاية، فكان خروجه رغماً عنه {مقدّراً له}، هل الحكاية إذن هي اللعنة، تلك اللعنة المنزلة من صاحب التحذير، أو صاحبته، وإذا كانت الحكاية هي اللعنة، فهل هي نقيض الطُهر الذي جسّده البطن الخامس والعشرون، إذ غادر اللعنة، وتمثّل نقيضها؟!

أربعة وعشرون ولداً عاشوا داخل الحكاية {اللعنة المفترضة بحسب التأويل السابق}، وأبناؤهم، وبناتهم، وزوجاتهم، حتى إغماء، المتمردة على الحكاية، اللاعنة للحكاية الأولى، والصانعة لحكاية جديدة، كانت بشكل ما، ابنة بارّة للحكاية، إذ وهي تهم بصناعة حكايتها، فهي وبالمنطق مؤمنة بحكاية أرض، فتحاول إزالة أثرها، بابتداع حكايتها الخاصة بها، آه [إن متعة الحكاية تفوق متعة

العيش!] ← متّفق عليه {ج، ج، م}[٧].

من هنا {من هذه المتعة} تأتي رغبة جدار، في تحويل الحكاية المحكية، المسموعة، والمنقولة، بتصرفات طويلة، ومداخلات أطول، إلى أوراق، تقدمها لكائن ما، تختاره في أزمنة لاحقة، مع عدم التقيد بعامل الزمن، إذ إنها {جدار} تملك إمكانية تجاوز الزمن بأزمنة لا محددة، والقفز إلى أزمنة قادمة، أو أزمنة لم تأتِ بعد، لتضع الأوراق على طاولة ما.

استيقظت جوزفين ذات صباح، لتجد على طاولتها، رزمة أوراق، حملت عناوين:

«تلك الصيغة» أو «هكذا أموت وحيداً» أو «نهاية قائد» أو «السيمفونية الأولى».. / كانت اقتراحات عنوان العمل متنوعة، وثرية.

**روايــة**

**تأليف: جدار**

**حكاية**

**حكي: أرض {الحكاية الشفوية}**

**سيمفونية**

**أداء:**

منتديات الكوكب العاشر

(٧) الأحرف الأولى من أسماء كاتبات العمل الرئيسيات.

الشخصيات الرئيسية: إغماء ـ حرز ـ عناد، نجمة ـ جدار ـ شمس ـ آثام

الشخصيات الثانوية: سماء ـ مساء ـ أحوال {انظري الدليل}.

تحت تصرف السيدة جوزفين، لإخراجها فنياً، وتوكيلها من تراه {أو تراها} مناسباً، لكتابة أخرى.

أما صاحب الرقم ٢٥، طُهر، فقد غادر الحكاية، وأخذ معه فقط ـ من الحكاية ـ «تلك الصيغة» المتناقلة على لسان أرض [حذرتك، يلعنك،فيعدمك، وحيداً] لا لاعترافه بها، بل.

إذ كان يظن أنه يسخر، وكأنه كان يؤكد لـ حرز، أنه المعني الأكبر، بتلك الصيغة، ليصدق أن التحذير موجه له، واللعنة عليه، والموت، ورائحة الفساد. وصدّق حرز تلك الصيغة، ولم تأتِ الصيغ اللاحقة/ كما أمر اللغة الثانية، الدين الثاني، الإيمان الثاني، الحب الثاني، المشهد الثاني. لتشطب أو تلغي أو تحوّل، الصيغة الأولى.

اتسم طُهر بذلك النمط الواقعي، المنطقي، المتخلّص من أسر الحكايات، النابذ لقصص البدء، والإنشاء، والصياغة، والقيادة، والنهايات!

لم تأسره، أو تسرّه، حكايات رويت له عن: طبيب سوف تملأ شهرته الأرض، وسوف يُكتب على باب القلعة، بعد أزمنة، هنا عاش الطبيب فلان، وسوف يُؤسس لنظرية علمية، وتدرس أفكاره في المحافل العلمية، ويقبل عليها أجيال جديدة، كما تقبل الأجيال القديمة/ الحالية، على أرض.

منشورات الكوكب العاشر

لم تسحره صيغ أرض حول مصيره، بل، وما إن أنهى دراسته الأولى، حتى حزم حقيبة عتيقة وجدها بين أغراض حِرث، وغادر إلى بلاد بعيدة، ليس فيها قلاع وآلهة وحكايات.

لا شيء أكثر من مخابر، ومجاهر، ودراسة للجراثيم والحشرات، وتحاليل دماء وخلايا وبقايا.

لقد اعتبر طُهر أمه امرأة مشعوذة، وأباه رجلاً ممسوساً في عقله، وحزم أمره، أن يدرس التشريح، ويأتي بوثائق تخجل أمه منها، فإما تكف عن ادعاءاتها واستقبال الناس والعبث بمصائرهم، وقيادة حياتهم، أو يضعها في السجن أو مأوى للمجانين، وكذلك بالنسبة لأبيه، الصديق الوفي للحيوانات، كليم الطيور والحشرات والزواحف، إلى أن صار تفكيره بسوية تلك الكائنات التي يعاشرها، أي صار يفكر كالحيوان!/ ربّوا واتعبوا/!

لم يرَ طُهر أمه بعد سنّه العاشرة، وحين غادر القلعة، كانت قد مرت اثنتا عشرة سنة دون أن يلتقيا، فقد تولت أولى زوجات إخوته شؤون تربيته، ثم تناوبت الأخريات على ذلك، حتى يمكن القول إنه نشأ دون أم، فهو لم يتلقَّ تربية أو توجيهاً أو ملاحظات، واكتفت نساء إخوته بتقديم واجبات سطحية، تقدّمها أية عاملة مأجورة «تنظيف، تغسيل، إطعام»، بل وزدن على ذلك محاولة إفساده بنقل وتناقل الثرثرة والحكايات!

وكذلك نشأ طُهر دون أب، لم يكن له من ينقل له خبرته أو وساوسه أو همومه أو تأملاته أو استفساراته.

ولم يشعر أحدهما، حِرث وأرض، بإهمالهما لأولادهما، لأن لكل

منهما، برأيه، وظيفة، أو رسالة، أهم من تربية عدد محدود من البشر {لماذا أنجبا إذن ذلك العدد المحدود من البشر؟}، فبينما كان حِرث يرى رسالته في الوصول إلى النادر والفريد من حيوان وطائر، كانت أرض ترى رسالتها خدمة البشرية، بإنقاذها من القدر المقدّر لها سلفاً، أو التخفيف من آثاره، فلم تتحيّز لابن أو زوج أو كنة أو حفيد {عدا جدار، وفي زمن متأخر}[٨]، بل ردت على كل من جاءها، ولبّت كل من طلب، وساعدت كل من سألها، وأعادت القدرات إلى كل من فقدها، وحققت آمال كل من قد خاب منها، وشفت كل من عرفت علّته، أعادت الغائب إلى وطنه، والعاشق إلى عشيقته، ومنحت من تريد الإنجاب قدرة ذلك، وحققت لكل ذي أمنية أمنيته.

أما لماذا لم تساعد عناد في أن تكون له ذرية، فذلك شأنه، إذ إنه لم يطلب منها العون، وهي لا تقدّم شيئاً لمن لا يطلبه، ولا تتدخل في تحويل المصائر لمن لا يذهب إليها، أما لماذا لم تتدخل في تغيير مصير حرز، فذلك أمر خارج ملكاتها، إذ إن اختلاط نسبه، يضعهما {أرض، وحرز} في مأزق يصعب عليها اجتيازه، ما دام محاطاً بتدخلات من خارج عالمها.

هل حين أقول: من الأبطال المهمين في هذه الحكاية، يجب أن أتحدّث عنه طويلاً، إنه: طُهر الذي يمتلك أهميته من مغادرته للحكاية، فكيف يمكننا أن نحكي عنه، وقد غادر الحكاية.

---

(٨) يبدو أن في تحيّز أرض لـ جدار، وتمييزها عن غيرها، شيئاً من رغبة في المشاركة أتت متأخرة، بعد أن فشلت أرض في بناء علاقة صداقة مع كائن {أو كائنة} آدمي، ويبدو أن ذلك زاد في وحدتها الخاصة، فأذعنت، وفي وقت متأخر لرغبتها في أن تكون امرأة، لها صديق (ة).

لقد غادر طُهر القلعة، وما إن أنهى أعلى مستويات الدراسة في البلاد البعيدة، حتى عاد إلى بلده الأول، وأقام في مدينة بعيدة عن قلعة أبويه، وقلعة أخيه {لم تكن القلعة الثالثة قد أُقيمت بعد}، سكن وحيداً، وأرسل لمن رأى فيه خيراً قادماً ـ عبر تلمّسه في المقدمات والبراهين والاستدلالات ـ ليقاسمه العيش هناك، رغبة منه في تأمين الجو الذي ينقذه من الحكايات، وليقوده نحو حلمه المتعارض مع الحكاية، والمبني على الجهد والعمل، حلمه اليقظ والنائم والمستمر، حلمه الثابت: قائد أوركسترا!

/ وانضممت إليهما، في وقت لاحق، لأتفرّغ لكتابة هذا العمل / ← جدار.

**تجري أحداث هذه الرواية، بأزمنتها المتعددة، على خلفية مشهد احتراقه، أجل، يظل مشهد الاحتراق ثابتاً، بينما تتحوّل أزمنة القصّ، وتتعدد مستويات القصّ، وتتبختر راويات العمل، على خلفية آلامه.**

يمكن الجزم دون شكوك أو مخاوف من عدم صدقية العمل، أن زمن القصّ / أو التدوين لم يستمر لأكثر من نهار، من صباحه/ إذ استلقى قائد الأوركسترا على كومة القش، أو على سرير القش، إلى أن أسدلت الفتيات الستارة، مع تحديات بعضهن لبعضهن.

كان ما إن يبتعد عن الآخرين، ويصبح وحده، حتى يُجري مقارنات بينه وبين جميع الموجودات حوله من أشياء، ثابتة في الطبيعة، أو مصنوعة، أو حيوانات، وعلى الأغلب، لدى الحيوانات، إذ يقعى بين الدجاج والقطط والماعز والأرانب، باحثاً عما يشبه ما بين ساقيه، وكان إذ لا يعلم بوجود بروز لدى إحداها، يحسّ

منتديات الكوكب العاشر

بالحسد تجاهها، ويحسّ بالحزن أيضاً، إلا أنه سرعان ما يهدأ، حين يعثر على من مثله، يحتفظ بتلك اللعنة هناك، وكان يظن آنذاك أن ثمة حظوظاً تُخلق مع الكائن، البشري والحيواني على السواء، وتحدد مصيره في الحياة، فإن حمل تلك اللعنة اللحمية / الزائدة اللحمية، كان تعيس الحظ، عاثره، فاشلاً، منبوذاً. وإن كان دونها، يحيا مرحاً، سعيداً، محبوباً، كـ نجمة، التي كان يزداد إحساسه بالغيرة منها والحسد يوماً تلو الآخر.

إذ تطورت حالاته التلصصية، وصار يتلصص على النساء، والرجال، في أوقات الاستحمام على الأخص، ليتسنّى له التأكد من موضوع الحظوظ واللعنات.

وكان يشعر بالذعر، إذ معظم من رأى، كنّ دون زائدة / لعنة لحمية!

في إحدى نوبات أمه ـ وقد سبق له أن رآها عارية / من ذوات الحظ الحسن ـ أخذت إذ ذاك، زوجة عمه سماء، تغسّله مع ابنتها نجمة، فاكتشف أيضاً أن نجمة، حين تكون عارية، تشبه أمه، وتختلف عنه، وأنها من ذوات الحظ الحسن.

كانت العلاقة بين حرز ونجمة، علاقة وطيدة، إذ لم تكن نجمة تعرف بعد، الفرق بين الأخ وابن العم، أو بين الأم وزوجة العم، أو بين الأب والعم، وكذلك حرز {إذ إنهم عاشوا معاً لأوقات طويلة، يأكلون، ينامون، يسهرون، يستحمون}، فكان حين تنادي نجمة أمها بـ أمي، يعتقد حرز أن عليه مناداة سماء بـ أمي، أي إن لفظة «أمي» خاصة بـ سماء، وعلى الكل أن يدعوها هكذا «أمي»، أو حين تدعو نجمة عناد بـ عمي، يحذو حرز حذوها، فينادي عناداً بـ

منتديات الكوكب العاشر

عمي، وكذلك نجمة، إذ كانت تدعو إغماء كما يدعوها حرز، «أمي»، وتدعو والدها «عمي».

كانا يقضيان معظم أوقاتهما معاً، حتى أثناء النوم، كان في معظم الأحيان يبقى للنوم في قلعة جده، مع أعمامه، وأبنائهم، وكان لا يعرف، لماذا عليه هو وحده، الإقامة في منزل مستقل «قلعة عناد»، بينما تغصّ القلعة «قلعة الجد» وتعجّ بالأولاد والنساء والرجال والحيوانات والأزهار والطيور.. لماذا كانت تصرّ أمه أحياناً على اصطحابه إلى مكان إقامتهم الخاصة بثلاثتهم فقط «عناد ـ إغماء ـ حرز»، وتكون تلك الليالي من أقسى الأوقات عليه، إذ يفتقد حكايات سماء، وتعليقات نجمة، ومداخلات مساء، وتهديدات الأعمام، وبقية الزوجات، والمرح والصخب وجنون الجماعات.

أجل، كان عليه أن يفتقد كل ذلك التجمّع، ليذهب وحيداً، للنوم في قلعتهم، وحين يكون الأب مسافراً {وهنا يزداد إصرار أمه على اصطحابه} يشعر بوحدة منفّرة، إذ ينام وسط الخوف والحنين {الافتقاد}.

وحين بدأ حرز يعي، أن لكل كائن أماً واحدة، وأباً واحداً فقط، حين شرح له عمه طُهر ذلك، سار حزيناً من القلعة الأولى إلى الثانية، فقد أدرك أن عليه ـ ونجمة أيضاً ـ التضحية بإحدى الأمّين {سماء أو إغماء}، أما من جهة الآباء، فلا غضاضة، لأن كلا الأبوين غائبان باستمرار، وكأن القلعة قلعة نساء، وتدارس مع نجمة طويلاً مسألة اختيار أمٍّ، لتكون لهما، وابتدآ قسمة الأمهات، لكل منهما أمّ واحدة، انحازت نجمة على الفور للأم إغماء، قالت إنها تحسّ بحنانها حين تمشّط لها شعرها، وتدندن لها أنغاماً تجعلها تحسّ

منشورات الكوكب العاشر

بالأمان، وحين تستحمّ معها، تحسّ بالحرية في الحمام، أكثر مما تحسّها مع الأم سماء.

إلا أن حرزاً انحاز نحو الأم سماء، دون إعلان أسبابه، وحين ألحّت عليه نجمة ليبدي تلك الأسباب، قال إنه لا يستطيع شرحها، لكنه فقط يرتاح مع سماء، ويريد أن تكون أمه، ولم يستطع أن يشرح لـ نجمة، ذلك الرعب الذي يحسّه، حين تعثر أمه على «ذاكه» في الحمام، فتضربه إلى أن يُغمى عليها، بينما لم تكن سماء تُبدي أمام تلك القطعة اللحمية أي اهتمام، وكأنها، مثل أي شيء آخر من جسده، يده، ساقه، أذنه. وحين رغب في الحديث، تراجع، خشية أن تسخر نجمة من تلك اللعنة اللحمية / الزائدة اللحمية، فيخسرها!

وذهب الولدان، حرز ونجمة، إلى الأمّين، سماء وإغماء، لإطلاعهما على الاتفاق، دون إبداء الأسباب، لأنها من الأسرار، وسخرت المرأتان {الأمّان/ مثنى أم} من الاختيار الخاطئ لكلا الولدين، وشرحت، كل واحدة منهما، أنه لا يحق لأحد منهما، أو غيرهما، اختيار أمه أو أبيه، إذ تنام المرأة بعد عشاء ثقيل، فتندسّ في الفراش، وترتفع حرارتها، وفي الصباح، تجد في سريرها بيضة، بحجم بطيخة، ثم تفقس البيضة، ويخرج منها الولد، لذلك فإن إغماء باضت حرز، وكذلك سماء، كانت قد باضت نجمة.

كم تمنّى حرز، لو أن أحداً قد غيّر مصيره، فسرق بيضة سماء، ووضعها في فراش إغماء، وأعطى بيضة إغماء لسماء، فتظن سماء أن حرزاً ابنها، وتظن إغماء أن نجمة.. وابتأس بشدة، إذ فكّر أنه ربما يكون ابناً لسماء، لكن يداً سيئة، بدّلت موقعه، من فراش سماء، إلى فراش إغماء. وظلّ على الدوام، ينادي إغماء بـ «أمي»، وينادي سماء بذات النداء «أمي»، ويحسّ بوقع تلك الكلمة،

منشورات الكوكب العاشر

وحرارتها، حين يدعو بها سماء، لا إغماء، لأنه كان يميل أكثر إلى سماء، ويتمنى لو أنها كانت أمه، أما مناداته لإغماء، فكانت تقليداً يمارسه الأبناء دون أي دفء أو انفعال.

{«لو أنها كانت أمي»، أو «لو لم تكن أمي هي أمي» وجمل أخرى مشابهة، رافقت أحلامي ورغباتي طويلاً، حتى أني كنت أصرّح أمام أمي: لو أن أختك أمي، لو أن عمتي أمي، أو: لماذا تكون حصّتي من الأم هي أنتِ. وكنّا، في طفولتنا المبكرة، أخي وأنا، وقد ذكرت هذه الحادثة في مكان ما من كتبي، نتصوّر أننا لسنا أبناء أهلنا، وأنهم سرقونا أو خطفونا أو أن أهلنا الحقيقيين تخلّوا عنّا. كم كنت أبدي، بأحلامي، تصريحاتي، جزءاً كبيراً من دوافعي الكتابية، لو أن أمي لم تكن أمي، ولو كان أبي رجلاً غير ذلك الـ أبي}.

أحسّ حرز بالحقد نحو نجمة، لأنه صدّق أن ثمة يداً لعبت في تحويل مصيره، ومصيرها، وأنها تنعم بكونها ابنةً لسماء، دون أن يكون لها حق بذلك، لأن الجميع كان يعرف العلاقة الحميمة بين نجمة وإغماء، إلى درجة أن أي وافد غريب على العائلة، كان يظن أن إغماء أمٌّ لنجمة، لأنها كانت تعاملها باستثناء، وتغفر لها أي تصرّف ينجم عنها، وتناديها بـ ابنتي، بينما تعاقب حرزاً على أتفه الأشياء!

ومما زاد في حقد حرز على نجمة، أنها من ذوات الحظ الحسن، إذ:

في إحدى نوبات أمه ـ وقد سبق له أن رآها عارية / من ذوات الحظ الحسن ـ أخذت إذ ذاك، زوجة عمه سماء، تغسّله مع ابنتها نجمة، فاكتشف أيضاً أن نجمة، حين تكون عارية، تشبه أمه،

وتختلف عنه، وأنها من ذوات الحظ الحسن ← مقطع سابق!

وبدا حرز حزيناً أكثر من قبل، ومائلاً نحو الميلان {يرجى عدم الخلط في التسلسل الزمني للأحداث، نحن الآن في عهد ميلانه، قبل بلوغه الثالثة عشرة}، ومال أكثر إلى الصمت والانعزال، إذ لم يكن له أصدقاء غير نجمة، فصار يبتعد عنها، ولا يذهب إلى القلعة، ولا يتسلّق سورها، ولا يسرق بيض الدجاج، ولا يتلصص على النساء في الحمام، ولا يجلس في قلعة أبويه حتى، بل، هام طويلاً في المراعي، واجداً سلوته بين قطعان الماشية والأغنام، حزيناً، غاثياً باستمرار، مصاباً بالدوار، والصداع، والإغماء.

ولاحظت مساء تلك الأعراض على الصبي، فحذّرت أختها سماء «إنه مصاب بداء أمه، أبعديه عن نجمة، إنهما {حرز وأمه} مسكونان بـ ، أبعدي ابنتك عنه، وإلا سكنها الـ» وكانت تخشى من ذكر أسماء الجان أو الشيطان، لأنه كان من الشائع {وحتى اليوم} أن من يذكرهم، يحلّون فيه، ويسكنونه، {إلى أنه حتى الآن، يدعى مرض السرطان عند العوام بـ هداك المرض / أو ذلك المرض، كش بره وبعيد، ولا يذكرون اسمه: سرطان}.

إلا أن نجمة لم تترك صديقها حزيناً، دون أن تخفف عنه، فهي كانت تحبه كثيراً، وتتفاهم معه، رغم صعوبات نطقه، وثأثأته، وانفراط جمله إلى كلمات مبعثرة، وانفراط الكلمات إلى أحرف، كـ حبات المسبحة، وكانت نجمة تتمكن من لملمة الأحرف المنفرطة، وجمعها في كلمات وجمل، وتتفاهم معه من خلال تلك الجمل، ولم تكن تحمل له أية مشاعر مما كان يحمل ضدها، بل كانت تجد فيه صديقاً تتسلى معه، وقد اعتادت عليه، فهو لم يبدِ مرة محاولة لضربها، كما يفعل بقية أبناء أعمامها، بل كان يدافع

منشورات الكوكب العاشر

عنها، ويساعدها حين تغطس قدميها في الوحل، ويمسك بيدها حين يصعدان تلة أو صخرة عالية، ويقطف لها الزهور التي تحب، ويتسلّق من أجلها الأشجار، لاصطياد الضباء والحرادين، وكانت تذهله متعتها في اصطياد الحرادين، حتى أنهما ذات مرة، أحضرا ذلك الحيوان «بربختي»(٩)، وكانت نجمة قد ألحّت عليه في اصطياده، بعد أن رغبت في استعادة تلك اللحظات، حين كانت سماء قد {رمت عليه بمنديلها الأبيض الشفاف قائلة: يا بخت نجمة؟ فتلوّن البربختي بلون زاه جميل، وحين نزعت عنه المنديل، ورمته ثانية، قائلة: يا بخت حرز، فاسودّ الحيوان، وصار داكن اللون ← } مقطع سابق!، ورمت نجمة بمنديلها الأبيض الشفاف قائلة: يا بختي، فأصبح لون الحيوان أخضر يانعاً بلون الربيع، وحين نادته نجمة: يا بخت حرز، انتقل لون الحيوان إلى الأسود، فخاف حرز، متذكّراً المشهد ذاته، الذي جرى مع سماء، لكن نجمة سحبته من ذراعه {كأنها تقلّد أمها} قائلة: هذه خرافات!

منتديات الكوكب العاشر

وفي أعماقها، صدّقت كما صدّق حرز، أن حظه / بخته، سيكون أسود، كلون المنديل المسودّ من لون الحيوان، إذن، لا تملك نجمة من أسباب، تحمل بموجبها من مشاعر تجاه حرز، إلا المحبة، ورغبة المساعدة والمساندة، كما ساعدها وساندها دوماً، فألحّت عليه لمعرفة أسباب حزنه وانزوائه، وطاردته حتى المراعي، وظلت تطارده، وتلاصقه، وتسأله، وتتوسل إليه، متباكية، لمعرفة ما حلّ به.

---

(٩) ضرب من الزحافات. كلمة مؤلفة من «بر» بمعنى «مع» ومن «بخت» أي الحظ، أي مع الحظ، «بربخت» أي مع الحظ، يريدون نقبعك على نية كشف طالعنا، ثم يرفعون القبع ويحكمون على طالعهم حسب لون الحرباء ـ الأسدي جزء ١٢، **الموسوعة**. وقد مر شرحها في بداية هذا الفصل.

وحين صارا وحدهما، في قمة الجبل، وقد قاربت الشمس على المغيب / أحسست بأن العالم من فوق يختلف، أحسست بأني كائن صغير في عالم واسع، وشعرت بغتة بدوار يشبه الضياع، أجل، أحسست بأني ضعت، وأن العالم لا محدود، ولا منته، وكل ما يحدث هناك، تحت، خلف هذه القمة شيء تافه، ولا أهمية له، انتابتني حالة من الكبرياء، واللا أهمية معاً، اختلطت مشاعري بشدة، مع وجود نجمة اللّحوح جواري، كجزء من عالم غير محدود وغير متناهٍ، عالم متناه في الكِبر[١٠]/ وقد هبت نسائم باردة، منعشة، وكانت تنشج باكية، نادبة حظها، لأنه لا يثق بها، ولا يحكي لها عن معاناته، وأسراره، كما تفعل هي معه، / وحين نهضت، اكتشفت عن بُعد، بُعد الجبل عن القلعتين، قلعة جدي جِرث، وقلعة أبي عناد، وأحسست بأنهما بعيدتان عني، وكأني بعيد عن آثارهما، ومرّ نسر من علو قريب مني، فأحسست بدوار لذيذ، وكانت نجمة تعتصر أزهار الشقيقات الحمراء[١١]، مستعرضة حكاية أمي عن تلك الشقيقات، عابثة، غاضبة، لاهية. اخضوضبت أصابعها بدم الشقيقات[١٢]، ولوّثت ثوبها الأبيض، فبدت كأرنب

منتديات الكوكب العاشر

---

(١٠) أعتقد أن مداخلات حرز، بموافقة جدار، وقيام جوزفين بتبييضها، غير منطقية، لأنه لم يكن بسن تسمح له بتلك الأفكار، وأنا نقلت ذلك في كتابتي النهائية للعمل، دون قناعة بذلك، ولكن احتراماً للكاتبتين السابقتين.

(١١) تقول حكاية إغماء: ثلاث شقيقات أحببن شاباً واحداً، وكي لا يتركن للقدر أن يفرّقهن، ذبحن أنفسهن، كي لا يتزوج الشاب واحدة دون الأخريين، فتتألم اللامتزوجتين، ونمت مكان دماء الشقيقات الثلاث، تلك الورود التي تزهر في كل عام، حين تطل الذكرى السنوية لانتحار البنات، فيكون إذ ذاك، موسم الانتحار.

(١٢) ثمة مذاهب عديدة حول تلك التسمية، منها ما ورد في الحاشية السابقة، والواردة في تفاسير القلعة غير الواردة في أماكن أخرى.

مذبوح / اقترب حرز منها، وكانت مشاعره متضاربة نحوها، فهو حين يحس بأنه يحبها، سرعان ما ينفي ذلك {كأنه يخشى أن يكون حبه لها، حالة إضافية من حالات الحظ الحسن المرافقة لنجمة} فيعود إلى الغيرة منها، والحسد، وتتطور مشاعره نحو الحقد عليها، وما إن يحقد عليها، حتى يشعر بذنب كبير تجاهها، فهي طيبة معه، فيغضب من حاله، لأنه يحقد عليها لامتلاكها أشياء لم تكن لها اختيارات بامتلاكها {أمها سماء ـ عدم وجود الزائدة اللحمية ـ تحوّل لون البربختي}، وأحسّ بحنان مباغت نحوها / ذلك النسيم، الابتعاد عن القلعتين، شعوري بلامحدودية العالم، ذلك الدوار، أو الضياع / فجلس يبكي مثلها، نادباً حظه السيئ، لأنه يثق بها، ويريد صداقتها، لكن ما يعانيه سيحطم تلك الصداقة، وأقسمت له نجمة بحياة أرض {قمة القداسة بالنسبة إليها، ولغيرها}، التي لا يقسم أحد بحياتها كذباً، ووعدته بأن تظل على صداقتهما، وظل هو يمانع، وظلا هكذا، هي تتوسّله، وهو يتهرّب، حتى نهض فجأة، وخلع سرواله، وأراها مشكلته، فخافت نجمة، وابتعدت عنه واجفة، وبكى جاثياً جوار صخرة كبيرة، فقد أحسّ بأن صداقتهما، كحبّات المسبحة، انفرطت، ولا مجال لـ لمّها، وأنهما ليسا من نوع واحد، بل من نوعين مختلفين، وظلت هي صامتة، مندهشة، إلى أن لملمت دهشتها وقالت له بصوت متقطّع: اسمع يا حرز، ما من مشكلة دون حل، ماذا يعني أن لديك دودة لصيقة بك، نستطيع قتلها، ونعود أصدقاء كما كنّا.

وسُرّ قليلاً باقتراحها، ونهض فاتحاً ساقيه، حيث أمسكت الصبية الصغيرة بذاكه بأصابع مرتجفة، خائفة من أن تعضّها تلك الدودة أو تقرصها، فهي تشبه أفعى صغيرة، وشعر كلاهما بالخوف، حين

منتديات الكوكب العاشر

نهضت الدودة، ملتفّة على نفسها، فاستطالت وأصبحت أكبر حجماً، ومدّت رأسها، كأنها تحاول الدفاع عن وجودها، ولكن نجمة، رغم خوفها، تماسكت، وأخذت تشدّ الدودة بقوة، صارخة: اخرجي أيتها اللعينة، غادري جسد صديقي!

وكان حرز يضغط على أسنانه من الألم، وهي تشجّعه: اصبر، احتمل، إنها ملتصقة بك، يجب أن نقتلعها! ثم قالت: اسمع يا حرز، ربما كانت مشاكل نطقك تعود إلى هذه الدودة اللعينة، يجب أن نزيلها، أنا متأكدة أن لسانك سينطلق بعد انتزاعها، إنك تتعثّر بالنطق بسببها.

واحتمل حرز آلامه، ليتخلّص من مصائب تلك الدودة، كانت نجمة تشدّ بقوة، وهو يتألم بقوة أكثر مما تشدّ، حتى كاد الدم ينفجر من تلك الدودة التي صارت حمراء بلون الحديد المشتعل، والمائل إلى الانصهار، وانخدشت قليلاً {تلك الدودة} من أظافر نجمة، وسالت بضع قطرات من دماء، فسقط حرز مغمياً عليه من الألم، على قمة ذلك الجبل، قرب المرعى.

**[حذرتك ألا ترتل هذا النشيد، فيسكن في ذاكرتك، يأسرك ويلعنك، يفتنك فيستحوذ عليك، ولا يكون لك منه فرار، فيعدمك، وحيداً تموت وتشم رائحة رحيلك الأرض، ولن ينقذك من عذابك إلا عيد يأتي في ربيع يتلو رمادك].**

إن ذلك المنام، الذي استيقظ منه مذعوراً، لم يكن لمرة واحدة، بل كان يتكرر، ولكن بتفاصيل مختلفة، {يميز حرز، والصبايا «الكاتبات» بين الحلم والمنام، ليكون الحلم لديه هو حكاية تتم في اليقظة، أما المنام فهو حكاية تحدث أثناء نومه} وكان حصوله في

المرة الأولى، على النحو الآتي:

أخيراً، وكم أنا سعيد، كنت في وادٍ أخضر، تحيط بي أزهار حمراء وصفراء وبنفسجية وبيضاء، وقد اصطفت الفرقة بكاملها، وجلس العازفون خلف آلاتهم، ووقف بعضهم جوار آلاتهم، في الهواء الناعم، وظهرت فتاة جميلة، ليملأ صوتها الوادي الواسع، الكبير، فيصدح صوتها، ويملأ صداه الجهات النائية، كانت تقول: ها نحن نسمع اليوم، المعزوفة التي تُعدّ أهم حدث موسيقي، أتركم أيتها السيدات والسادة، مع قائد الأوركسترا، الذي لحّن ووزّع هذه المعزوفة، أتركم مع الملحن العظيم، الموسيقار الفذّ، والقائد العبقري، الفنان حرز، في معزوفته العملاقة: الحلم.

وهدرت أصوات تصفيق، كأنها شلالات مطر مباغت، واكتظّ الوادي بالحضور، وألقوا الورود مكان قائد الأوركسترا، ولم يكن القائد قد أخذ بعد مكانه بين العازفين، أفراد الفرقة، وقد بدأ العازفون، والعازفات، يداعبون آلاتهم كل على حدة، لحين ظهور القائد، وبدء المعزوفة.

وقد اشرأبت الأعناق، وامتدت الأبصار، باحثة عن القائد، مؤلف المعزوفة العظمى، وكأنهم ينتظرون زعيماً سياسياً، أو فاتحاً عسكرياً، أو منقذاً روحياً.

وإذ، وأنا مضطرب، قلبي يدق بعنف، فرحاً، وخوفاً، وهلعاً، لذة النجاح، النصر، تحقق الحلم، الحلم الذي انتظرته سنوات طويلة، لم أصدّق تلك اللحظة، أني تمكّنت من تأليف «لحن الحلم»، وكنت خائفاً، لأني لا أذكر شيئاً عن المعزوفة، ولا أعرف متى لحّنتها، وما هي مفرداتها الموسيقية، كنت خائفاً لأني لا أعرف اللحن، ولا

أعرف كيف سأقود الفرقة، ولكني كنت سعيداً أيضاً، فلو لم أكن قد صنعت ذلك اللحن / الحلم، لما احتشد كل ذلك الجمع الهائل من الناس، والعازفين، ولما نظّموا ذلك الحفل الضخم!

ارتديت سترة القائد {قائد الأوركسترا}، تلك السترة السوداء، ذات الذيل، وهي تخلق رعشة غامضة داخلي، رعشة، تشبه حالة الخلق، كنت أحسّ بالخلق وأنا أرتديها {كأني أرتدي قدرة الخلق وشخصه} وهرولت من إحدى الجهات، متّجهاً نحو المنصة، لأتّخذ مكاني، موجّهاً وجهي نحو الفرقة، وظهري للحضور!

منتديات الكوكب العاشر

وإذ، ولكن، ويل. أواه، كنت كلما أقترب، أسمع صوت الموسيقى، وقد بدأت، اندهشت، كيف تبدأ الأوركسترا بالعزف قبل وصول القائد، وتحيته للجمهور، وتقديم الفرقة، وحين وصلت، وجدت قائد الأوركسترا وقد أخذ مكانه / مكاني، ماذا حصل؟ ألم يقولوا إن قائد الأوركسترا هو حرز، أنا، حسناً، يبدو أنني من شدة الفرح بدأت بالتشتت، سوف أصل لأحتل مكاني، وأقود فرقتي، وفي لحظات سريعة، مرت برأسي المعزوفة كاملة، تذكّرتها، وتذكّرت اللحن، وكأنه مكتوب في ورقة أمامي، تحرّرت من الخوف، واحتفظت بالفرح، وشيء من قلق، لأني تأكدت أن ثمة شخصاً يقود الأوركسترا، إذ بدأ «الكورس الأبدي»(١٣) بإنشاد اللحن المميز للصيغة ذاتها {حذرتك ألا،}، وأخذ الجمهور يردد خلف الكورس: {حذرتك ألا،}، إلى أن تحول الجمهور إلى كورس أبدي!

---

(١٣) الكورس الأبدي: اصطلاح ورد عند جوزيف كامبل في كتابه **قوة الأسطورة**، ص٢٩، دار الكلمة، ١٩٩٩.

وحين وصلت المكان، نظر إليّ ذلك الكائن باستعلاء وسخرية، وكان يتابع العازفين بحركات يديه، ورأسه، وجذعه، وحواجبه، وعينيه، وقد هبطت من الرعب، كنت أحسّ بالهبوط، كان المكان ينزل أمام ناظري، وأنا أكاد ألتصق بالأرض، وأسبح في ماء مالح، وحين هبطت تماماً، ووقعت، كنت أتمسّك بساقي السرير، إذ سقطت عنه، وأفقت من النوم مذعوراً، فقد كان ذلك الكائن، الذي تسلّم قيادة حلمي، حتى في المنام: أمي، إغماء! وعاودتني تلك الرعدة، وأنا أتذكر اقترح طهر، تلحين الصيغة!

**تجري أحداث هذه الرواية، بأزمنتها المتعددة، على خلفية مشهد احتراقه، أجل، يظل مشهد الاحتراق ثابتاً، بينما تتحوّل أزمنة القصّ، وتتعدد مستويات القصّ، وتتبختر راويات العمل، على خلفية آلامه.**

بعد مرور الأيام التسعة، من ذلك اللقاء السريع في حظيرة حرث، ومن استقامة قامته، رأى حرز كلمات مكتوبة بضوء يشبه أشعة الشمس، كتابات كانت تلمع في ظلام السقيفة، وكأن الشمس تسرّبت من جدران حُفرت فيها تلك الجملة، فبدت الكتابة من شمس: موعدنا في المقبرة، بعد المغيب.

استطاع حرز أن يمتلك إحساساً بالقوة بعد قراءة تلك الكلمات، التي غابت فور قراءته لها، ولم تكن الشمس قد غابت بعد، وكأن ثمة مصدراً غامضاً أمدّه بالقوة، فهبط من السقيفة، وتجرّأ في مدّ لسانه نحو عمه، وإغاظته، قائلاً: لن أهرب إلى السقيفة بعد اليوم، وسوف أحبسك أنت هناك، ومضى مسرعاً.

واندهش رؤية من جرأة ابن أخيه المباغتة، فضحك سعيداً من ذلك،

منشورات الكوكب العاشر

وصرخ به قبل أن يغيب عن مجال رؤيته: سأنقّب في السقيفة عن سرّ شجاعتك المفاجئة.

وصعد رؤية إلى السقيفة ممسكاً بفانوس، كي لا يباغت بالأشياء التي وضعها كمائن تخويف ومصائد إرهاب لـ حرز، إلى أن نسيها من شدة كثرتها وتراكمها.

ونقّب رؤية، فما وجد سوى الأغراض التي كان قد دسّها هو، إضافة إلى بعض المجلات والقصص التي كان حرز يتسلّى بها أثناء إقامته الطويلة، إذ كان يختبئ هناك، هارباً من أمه، وعمه.

لم يعثر رؤية على ما يمكن اعتباره سراً كان يرغب في معرفته، وإذ صاحت به إغماء:

ـ ماذا تفعل في السقيفة؟!

ـ أفتّش عن قوة حرز!

ثم هبط، شارحاً لها نظريته:

الخوف مصدر هام من مصادر الإلهام، أحاول أن أزرع فيه رعباً من المجهول، أحكي له عن قصص وكائنات مخيفة، تنشط في الظلام، والأماكن المهجورة، والزوايا المنسية، كالسُقف والزرائب والمقابر. لقد حلمت دوماً أن أكون فناناً،كنت في صباي المبكّر، أكتب قصصاً وروايات سيئة، وحين كبرت قليلاً، اهتممت بالتسلية، فتوقفت عما كنت أعتبره قصصاً رديئة، وفقدت قدرتي حتى في ممارسة تلك الرداءة، ولم يبق لي من الحالة الفنية، سوى اسمي: رؤية، ورأيت ـ من خلال اسمي / رؤيتي ـ في حرز، نعم رأيت فيه، ذلك الكائن الذي سوف يفعل شيء ما، أنه يملك الإمكانات

منشورات الكوكب العاشر

لذلك، ويحتاج إلى الدفع، فحاولت دفعه، وبدأت المعركة بيننا، لاستفزاز شيطان الإبداع عنده.

لم تكن إغماء تفهم نظرية رؤية، لأنها ببساطة، كانت شاردة، بينما هو يتكلّم، كانت هي تحلم، وعند المغيب، بينما كان رؤية لا يزال يشرح، وإغماء لا تزال تحلم، وتكاد تقع في إغماءتها المعهودة، كان حرز يتجوّل حول المقبرة بشيء من خوف، وحيداً دلف نحو الداخل، وما إن وصل إلى أول قبر، حتى سمع صوتاً يقول:

ـ اركع، أنت في أرض خاصة!

ركع حرز مرتعداً من الخوف والبرد، لا برد المناخ، بل برد الخوف، متلفتاً حوله، دون أن يرى أحداً، خاطبه الصوت ذاته:

ـ وعدتني ألا تخاف، ازحف الآن وابحث عن قبر كُتب على شاهده «هنا يجتمع الأحلاف» وانتظر هناك.

نفّذ حرز الطلب، وزحف بيديه وقدميه {على أربع} نحو القبر المحدّد، واستغرق ذلك منه حوالى الساعة، أو أقل بقليل، وظن أنه تاه، إلى أن رأى تلك الجملة، وبالحروف ذاتها، حروف الشمس «الميثاق الجديد ـ هنا يجتمع الأحلاف».

فتوقف عن الزحف، وجلس على قدميه بوضعية الركوع، وجاءه الصوت:

ـ اسمع يا حرز، لقد وعدتك بالحماية، تذكر، حين التقينا في حظيرة جدك؟

ـ أذكر.

منتديات الكوكب العاشر

ـ اسمع يا حرز، أنت دون أب يحميك، ودون أم ترعاك، أنت بلا جد أو جدة، أنت فريسة الخوف، والثأثأة، والقلق والعزلة، سأحاول حمايتك يا حرز.

ـ نعم.

ـ حين يكون المرء ذا أم وأب، أو أحدهما، لا يقع فريسة للخوف، ولكنه يقع فريسة للعصاب.

ـ «يصمت».

ـ هل تفهمني؟

ـ لا.

ـ إن أحدهما، الأب، أو الأم، أو أي مربٍّ آخر، حتى لو كان أباً أو أماً بالتبني، أو عمة أو خالاً، يحقق الحماية مقابل العصاب، تأتي الصيغة هكذا {أحميك على أن أعصبك}، ويقع الكائن فريسة للعصاب القادم طوال حياته، إنه ينام بهناءة في سرير دافئ، ويشرب حساءً لذيذاً وساخناً في الشتاء، وثمة من يشتري له الهدايا، ولكنه يشتريه إلى الأبد، نعم يا حرز، إن الآباء يشترون أبناءهم، يسحبون منهم فرديتهم، ويجعلونهم أتباعاً لهم، ولأن الطفل لا يملك اختيارات، يضطر لقبول صيغة تلك المقولة {أحميك على أن أعصبك} فيقع كأحد طرفي عقد الإذعان، أتفهمني؟!

ـ لا.

ـ سوف تفهم في ما بعد، أنت تشعر بالخوف، أليس كذلك؟

ـ نعم.

مسلسلات الكوكب العاشر

ـ وتريد أن تحس بالأمان؟

ـ نعم.

ـ تريد أن ينطلق لسانك فتكف عن الثأثأة والتلعثم؟

ـ نعم، وهذا أيضاً.

«مشيراً إلى ما بين ساقيه».

ـ سوف تتخلّص من كل هذه المشاكل، مقابل شروط.

ـ نعم.

ـ إنه شرط واحد.

ـ نعم.

ـ الطاعة الكلّية!

ـ موافق.

منتديات الكوكب العاشر

ـ طاعة دون نقاش، تفعل كل ما أطلبه منك، هذا هو اتّفاقنا، إنه عقد مختلف، ميثاق جديد، تحالف ضد حلف الآباء، في حلفك معي، لن تكون مطالباً بشيء من تبعية أو إذعان، إن كل حامٍ يفرض شروطه، إن أرضاً مثلاً تطلب الإيمان بها، وإغماء تطلب التغيّر، وعناد يطلب الشجاعة، ورؤية يطلب الإبداع، وطُهر يطلب المنطق. إن لكل شروطه، أنا لا أطالبك إلا بالطاعة، وأنا أمنحك ما تريد، وما تحتاج، وكل ما يلزمك [الإيمان ـ التغيّر ـ الإبداع ـ المنطق] فكّر يا حرز، الحياة صعبة، ومليئة بالمخاوف، ولا يستطيع الإنسان أن يعيش دون حماية خارجية، والإنسان الذكي يختار حاميه، أكثرهم عطاء، مقابل أقلّهم أخذاً، وهذا يتحقق في ميثاقنا الجديد، لن تمنحني سوى الطاعة، وأنا أمنحك كل ما تريد، فكّر،

وسألاقيك بعد سنوات، للاتّفاق.

ـ موافق.

كان حرز يقصد أنه موافق على الميثاق، لكنه لم يسمع أي رد، وكأنه لا بد من الانتظار سنوات أخرى.

غادر حرز المقبرة واثباً، قافزاً، إذ قال له الصوت، حين نهض حرز ليسير على قدميه: تغادر على طريقة «القفز والوثبة»(١٤) لا تطأ كلتا قدميك الأرض معاً، بل كالغزال تثب، قدماً فوق، وأخرى على الأرض، لقد حررتك من الزحف، اقفز وثب، أنت في الأرض الخاصة.

حين صار حرز خارج المقبرة، أنزل قدميه، وقف قليلاً يلهث، كان يتملّكه إحساس غامض بالقوة، وكان يسير مسرعاً نحو القلاع الثلاث، وكأنه يطير، إذ بدا فعلاً من بعيد، وهو يفتح ذراعيه ويسير مسرعاً، وكأنه نسرٌ قد حط على الأرض، وأخذ يسير سريعاً، فاتحاً جناحيه للريح {كما يقولون}.

**تجري أحداث هذه الرواية، بأزمنتها المتعددة، على خلفية مشهد احتراقه، أجل، يظل مشهد،**

ومنذ ذلك اليوم، أي منذ حادثة المرعى، على قمة ذلك الجبل، بين

---

(١٤) «القفز والوثبة» طريقة في التأمل، استخدمها أبولافيا Abulafia / ١٢٤٠ للتأمل، وطريقته تشبه طريقة التحليل النفسي في التداعي الحر، وأبولافيا أحد المتصوفين اليهود الذين درسوا التوراة والمشنا والتلمود والكابال وخاصة سفر yetziran. من كتاب **التصوف اليهودي** لـ دافيد باكان.

منشورات الكوكب العاشر

نجمة وحرز، ضاع كل أمل في عودة صداقتهما، بل انقلبت الأمور عكسياً، فراحت نجمة تتحاشى النظر إليه، وكأنه خطيئة أو تهمة، بل، وصارت أيضاً، وما أكره ذلك، وأقساه على الصبي، جعلت فريقاً من الأولاد يتضامنون معها ضده، إذ انقسما إلى فريقين، وكانت لبراعتها، ومواهبها في التآمر والتكتّل والقدرة على القيادة، وتلك ميزة تنفرد بها الإناث، ويتفوقن على الذكور، إذ في المعارك السرية، تنجح النساء في كسب التأييد، ولا يجب الاعتداد بتلك الأرقام الظاهرية التي يحصل عليها المرشحون في الانتخابات، لأنها تمثّل الجانب النظري. أما واقعياً، وفي حقيقة الأمور، فإن مكائد النساء، تفوق عقلانية الرجال، ولا سيما في الأوساط البدائية، إذ تشكّل البدائية تربة خصبة لنمو مهارات المرأة الشيطانية، ويقلل العقل والمنطق والعلم، من احتمالات فوز تلك الفئة من الناس، ولأن أحداث الرواية تجري في زمن بدائي، حيث السحر، والجن، وأرض وإغماء، في تلك التربة، نمت مهارات نجمة، فألّفت فريقاً قوياً يسخر من حرز، من ثأثأته، خوفه، أمه التي تطارده، واحتفظت نجمة بالسبب الحقيقي، وبقي حرز منعزلاً وحيداً في فريقه، كان وحده، رئيس الفريق، الخاسر، المنكسر، المهزوم.

وازدادت مصائبه مع توالي الأيام، وكان يزداد إيغالاً في وحدته، وابتعاده عن الناس، ولجوئه إلى السُّقف والحظائر والأمكنة المهجورة!

وحين اقترحت عليه سماء، ذات ليلة صافية النجوم، أن يذهب إلى أرض، ليحدّثها عن همومه، فقد يجد لديها حلاً، اعترضت إغماء طريقه: جدتك امرأة ساحرة، قد تزيد آلامك، إنها تكرهني، وهذا سبب كافٍ لتسبب لك الأذى، انظر كيف هجرنا والدك، ورحل إلى الجبال، أما كانت تستطيع إعادته للعيش معنا، إذا كانت فعلاً

تريد لنا الخير، وتتمتع بقدرات إضافية كما يزعمون، إنها يا بني امرأة مدّعية، مشبعة بالأكاذيب!

لم يمتلك حرز دوافع للذهاب إلى أرض، فهو لم يؤمن بها، ولا بشيء آخر، لأنه لم تتولّ تربيته أمٌّ تزرع فيه الإيمان، ولا أب يوجهه ويدلّه، لذلك كان كائناً دون اتجاه!

أما نجمة، فكم كانت دهشتها كبرى، وندمها أكبر، بعد فوات الأوان، حين علمت أنه ليس الوحيد الحامل لتلك الزائدة بين ساقيه، بل، وآخرون، آخرون تحبهم، ولا يمكنها قطع العلاقة معهم، وشرحت لها أمها، كذلك بعد فوات الأوان، على أن ذلك، ليس عيباً، وليس دودة، بل هو جزء من التكوين، يأتي مع الكائن في بيضته، وهنا ينقسم الكائن إلى ذكر، أو أنثى، وفهمت نجمة أنها أنثى، وأن حرزاً ذكر، ولكن معرفتها ظلت خاصة بها، لم تطلع حرزاً عليها، بل ظلت تُظهر له العداء الذي بدأته، ولم يمكنها التراجع عنه، إذ لا يمكنها إعلان أسباب التراجع.

**[حذرتك ألا ترتل هذا النشيد، فيسكن في ذاكرتك، يأسرك ويلعنك، يفتنك فيستحوذ عليك، ولا يكون لك منه فرار، فيعدمك، وحيداً تموت وتشم رائحة رحيلك الأرض، ولن ينقذك من عذابك إلا عيد يأتي في ربيع يتلو رمادك].**

وحين كان يمر ذات مغيب، من الطريق الخلفي لتلك المدرسة ــ لا يمكننا أن ندعوها مدرسة بالمفهوم الحالي لهذه الكلمة، بل داراً أسسها أحد المشتغلين بالأعشاب والتداوي، ثم أوصى بها ليتعلّم بها الأولاد أشياء من مثيل علمه، التداوي والفلك والشعر. وحين مات ذلك الرجل، تحوّلت داره إلى مكان يؤمّه الأولاد الراغبون بمعرفة

تلك الفنون أو العلوم ـ إذن، حين كان حرز يمر، اندهش إذ رأى صبيّاً يبول على الجدار، وكان ذلك الصبي، يحمل تلك اللعنة بين ساقيه، فأدرك حرز معاناة الصبي، ولحق به حرز ليواسيه، ويخبره أنه مثله، يحمل ما يحمل، إلا أن الصبي فرّ هارباً، متصوراً أن حرزاً سيشكوه إلى ذوي دار العلوم والفنون، إذ خرق قاعدة «ممنوع التبوّل هنا».

وحدث أيضاً، أنه دخل على عمه طُهر، وكان الآخر منكباً على صوره التشريحية وكتبه، يعالج جسداً صناعياً، يفكّه استعداداً للدخول في عالم التشريح، وكان حرز يريد من طُهر أن يشرح له علاقة الشمس بالأرض، وعلاقة المجموعة الشمسية بجدته أرض، وكان الأستاذ ظهور يشرح ذلك، إلا أن حرزاً كان شارداً، إذ لمح انتفاخاً بسيطاً تحت سروال الأستاذ ظهور، فخطرت لحرز فكرة شغلته، إذ تصوّر أنه ـ أي ظهور ـ يحمل تلك اللعنة اللحمية بين ساقيه، وأخذ يتصوّر الأستاذ عارياً، فشعر بلذة، لذة أعادت له توازنه، فكأنه كان ينتقم، حين كان يتصور الأستاذ ظهور عارياً يعالج تلك الكتلة اللحمية، وحين يتصوّر أن الأستاذ كائن عادي مثل نجمة، وإغماء، وسماء، ومساء، وخفاء، ونداء، وسقاء، وحياء، وبيداء وبقية من رأى من أجساد تستحم في حمام القلعة، دون تلك الزائدة اللحمية المتدلية بشكل مخجل، كان يشعر بالخوف والقهر والخيبة، وظل طوال قيام الأستاذ ظهور بالشرح، يقوم هو، حرز، بتعرية الأستاذ، ويأتي دور الطلبة، واحداً تلو الآخر، وردة، سمة، مغتاظ، منفعل، متعة، وآخرين، يقوم بتعريتهم، وتصوّرهم بالوضعين، مع الكتلة / اللعنة، ودونها، ولم يكن يستطيع الحصول على إجابة دقيقة.

كان يتمنى أن يراهم عراة بالفعل، لو يتسلل إلى أمكنة الاستحمام

في جميع البيوت، ويرى جميع من يعرفهم عراة، بل ومن لا يعرفهم حتى {ربما هذا حلم الكثير من البشر}، قد يعثر على أحد آخر مثله، ومثل ذلك الصبي الفارّ، وحقد حرز على الثياب، تلك التي تغطّي الحقائق، وتجعل الناس يبدون في صور ليست حقيقية، العري هو الحقيقة، والحقيقة هي العري، ألا يسمعهم يقولون: الحقيقة العارية، أما الثياب فهي زيف، خداع، وتصوّر لو أن البشر مثل الحيوانات، تسير عارية، لسهل عليه النظر بين السيقان، لمعرفة حكاية تلك اللعنة اللحمية.

وقرر في نهاية الدرس، أنه في حلول الظلام، سوف يتسلق الجدار إلى غرفة الأستاذ ظهور، ليراقبه ويراه عارياً، وجعلته تلك الفكرة يشعر بأن الزمن ثقيل، وتمنى لو أنّ الليل يحل سريعاً.

كان الأستاذ ظهور من أشد الأساتذة لعاناً في تلك الدار، وكان جميع الأولاد يحبونه، وقد تفوّق في نقل المعلومات إلى الأولاد بيسر وسهولة، وكان وسيماً ولطيف المعشر، ولم يكن قد تزوّج، مع أنه وصل إلى سن الزواج منذ وقت بعيد، إلا أنه كان يعيش وحيداً، مع أخته التي مات زوجها، وظلت وحدها، ليس لها سوى أخيها ظهور، وكانا يملكان مالاً لا تأكله النيران، كما يقال، وكان لأخته زوابع، طباع غريبة، وشاذة، إذ كان الأولاد يخافونها كثيراً.

وبالرغم من مخاوف حرز من زوابع التي رويت عنها حكايات مخيفة، من رؤية أحدهم لها وهي تلتهم أصابع طفل، وآخر رآها تشرب كوب دم، وقيل إنها كانت تذهب إلى المقابر ليلاً، تفتح القبور، وتخرج الجثث من مراقدها، وتُفرغ أحشاء الموتى الجدد، باحثة عن ثروات ابتلعوها قبل الموت، كي لا يورثوها لأحد، وإنها تسرق المواليد من أمهاتهم، وتأكل لحمهم الطري، وتشرب دمهم

الطازج، ثم ترميهم في الروث وبقايا البشر، وإنها ماهرة في اصطياد الأولاد، من أعمار حرز، تحبسهم، وتربطهم على أسرّة من مسامير، حتى تصفى دماؤهم، ثم تحشو أمعاءهم بالمال، وتدفنهم في حديقة منزلها، مخبئة أموالها عن اللصوص، قصص، وقصص، وقصص!

رغم كل ما روي عنها، مما يرعب، ويُبعد، فقد كانت لذة حرز في تعرية أستاذه أكبر من أي خوف، أو انفعال آخر.

تسلّق سور الحديقة، وزحف، حتى وصل إلى البناء، وتسلّق الطابق الأول، حيث تقيم زوابع المرعبة، وقصصها الأشد إرعاباً، ثم إلى الطابق الثاني، حيث أغراض ظهور، أي مكان إقامته، وقبع في الظلام، على الشرفة، مفتشاً عن ظهور بين الأغراض.

وبغتةً، ظهر ظهور في الغرفة، كان الوقت مساءً، ولم يتسنّ لظهور رؤية أحد في الشرفة، ولم يتوقع ذلك أصلاً، وبدأ بخلع ملابسه، قطعة، قطعة. ويا لخيبة الأمل، إذ احتفظ ظهور بسرواله، حين دخلت عليه زوابع، ونظرت للتو نحو الشرفة، وارتعب حرز بشدة، إذ أحس بأنها رأته، فكاد يرمي بنفسه من الشرفة، لكنه اختبأ بين أصص النباتات الضخمة، وجلست زوابع قليلاً على حافة السرير، ثم نهضت تلملم قطع الثياب المتناثرة، حملتها وغادرت، أقفل ظهور الباب خلفها، وتلفّت حوله بغباء، كأنه يتأكد من أنه ليس للحيطان عيون وآذان، وجلس على حافة سريره، وأنزل القطعة الوحيدة المتبقية من ملابسه، نعم، أخذ يُنزل سرواله ببطء، كأنه يختلس، وكان المشهد واضحاً لحرز، الذي كان قابعاً في ظلام الشرفة، كمتفرج في قاعة عرض أُطفئت أضواؤها، ليتسنى للمشاهدين رؤية الشاشة المضيئة، كان المشهد داخل الغرفة هو الشاشة المضاءة، وكان شعور حرز بالإثارة، هو شعور أي متفرج يقبع أمام شريط سينمائي.

منتديات الكوكب العاشر

وافتتحا معاً، حرز وظهور، لحظات المتعة، والدهشة، واللهاث، كان ظهور يغمض عينيه ويفتح فمه ويتأوه، ثم غاب عن المشهد، واستلقى على السرير، بينما نهض حرز بجرأة واقترب من المشهد، مندهشاً من انفعالات ظهور، ومداعباته المطوّلة، لتلك اللعنة اللحمية {أو يعتبرها فقهاء النفس نعمة لحمية؟ فيتّهمون عدم حاملها/ تها بالنقص والدون؟! يا للحماقة! ← } جوزفين

لم يستطع حرز، في اليوم التالي، الذهاب إلى دار العلوم والفنون، إذ لم يكن يستطيع احتمال تذكّر وجه الأستاذ المتألم، المتأوه. أحسّ حرز بأن عذاب أستاذه يفوق عذابه، لقد رآه يرتعش، ويتأوه، ويتلوّى، يغمض عينيه. أما هو، حرز، فإن تلك اللعنة / النعمة بحسب بعضهم إذن، لم تكن تسبب له ذلك الألم، بعد!

إذن، حين دخل حرز على عمه طُهر المنكبّ على صوره التشريحية وكتبه، يعالج جسداً صناعياً، كما ذُكر سابقاً، فوجئ بوجود بروز بين ساقي الجسد، سأل عمه مبهوراً: ما هذا؟ مادّاً سبابته اليسرى المرتجفة نحو ذلك البروز، مما جعل طُهر يضحك طويلاً من جهل حرز:

ـ يا غبي، حين كنت في سنّك، كنت أعرف كل شيء عن تلك الأمور، بل كنت أصغر منك، يا لحماقتك!

وأخذ طُهر يشرح لابن أخيه الجاهل، الفرق بين المؤنث والمذكّر، وأحضر له صوراً تشريحية توضح شروحه، وصمت حرز مطوّلاً، ثم سأل عمه: وما علاقة ذلك باللغة؟

متسائلاً عن دروس اللغة التي تقسم الأشياء إلى مؤنث ومذكّر

ومحايد، فهل: الشمس والطاولة والتفاحة والسماء الرياح والشجرة، أشياء لها أعضاء تناسلية مؤنثة، على عكس الربيع والمساء والقمر والضوء والعلم. فضحك طُهر من أعماق مصادر الضحك، ونهض آتياً بمجلد ضخم، ملوّن، يحوي تشريحاً تفصيلياً لأجهزة الإنسان، ومنها، الجهاز التناسلي، أما موضوع الوردة والصداقة والأمومة والمدرسة والعقل والمنطق والباب والكرسي والنافذة، فهذه أشياء، يتعلم حرز لاحقاً، لماذا فُصلت إلى مذكر أو مؤنث، أو محايد في لغات أخرى، ولم يكن يعرف حتى ذلك الوقت، أن ما يعتبر مؤنثاً في لغة ما، هو مذكر في لغة أخرى، والعكس صحيح، وحسناً أنه لم يعرف ذلك بعد، لئلا يقع في خلط لغوي مبكر، وتشوش فكري، عن الأصل الفكري، لقسمة الأشياء إلى مؤنث ومذكر.

منشورات الكوكب العاشر

ورغب حرز، كمزيد من النهم المعرفي، وفضول الصبية الذي يسبق المعرفة، في أن يسأل عمه، فيما لو كان مثله، ومثل ذلك الجسد الاصطناعي، يحمل عضواً مذكراً بين ساقيه، وفهم طُهر من خلال نظرات الصبي المتلصصة إلى ما بين ساقي عمه، وابتسم طُهر، تلك الابتسامة الصافية، التي لم يرها حرز في وجه عمه من قبل، ابتسامة لا تجيدها حتى سماء، تلك المرأة الغافرة، الطيبة، ابتسامة كادت تُبكي حرزاً لشدة شعوره بالراحة والأمن، ابتسامة تسامح ومغفرة ومحبة واحتواء، وللمرة الأولى شعر حرز **بأنه مقبول**، أنه ليس ثقيلاً أو غبياً، كما كان يعامله الآخرون، حتى سماء، التي كانت تعامله من قبيل الشفقة والإحسان والتعاطف، وكان يؤذيه الجميع، بقسوتهم، أو شفقتهم المذِلّة. أما طُهر، فكان رجلاً مختلفاً، وكان يعامله باحترام، نعم، تلك هي الكلمة التي كان حرز يبحث عنها، هزّ طُهر رأسه باحترام: نعم يا حرز، أنا أيضاً، مثلك، ذكر. وبوغت الصبي من جرأة عمه، واحمرّ خجلاً، فداعبه عمه قارصاً حرز من

خده: حسناً يا ولد، لقد صرت شاباً، ويجب أن تفهم، أنك أيضاً مثلي، ذكر!

وضحكا معاً ضحكة تفاهم واتفاق، وضربا كفاً بكف، على أنهما فريق متشابه، وقدّم طُهر ذلك المجلد الملوّن لحرز كهدية لبلوغه سن الفهم.

أخذ حرز المجلد الملون، وضمه إلى صدره، كشيء مقدس، ولم يكن قد عامل شيئاً من قبل بتلك القدسية، وأحسّ وهو يغادر عمه، أنه سيطير، وعاودته الحالة النسرية، ذلك الشعور بأنه فوق، مرتفع، وأن قدميه لا تحطّان على الأرض، وأنه يرى الأشياء من بُعد. انطلق حرز في تلك المشية النسرية، للمرة الثانية في حياته، فاتحاً ذراعيه كجناحين ـ وقد حشر المجلد تحت حزام سرواله بإحكام، وذلك مخبأ معروف لدى البعض ـ مضطرب القلب، مشوّش الأفكار، مملوءاً بعالمين من الكلمات، كلمات عمه طُهر، الهادئة، الرزينة، ذات الإيقاع الواحد، تشرح المذكّر والمؤنث، والإلقاح والتناسل، وكلمات ذلك الكائن اللامذكّر واللامؤنث، وهو، أو هي، تشرح له فكرة العقود والحماية، وخطر في باله بغتة، أنه ربما كان طُهر إحدى وسائل الدفاع عنه، أرسلتها تلك القوى الحامية، التي لاقته في حظيرة جده أولاً، ثم، في المقبرة!

منتديات الكوكب العاشر

طار حرز نحو البعيد، حلّق، علّى، ارتفع، قفز على الصخور، وتسلق الجبل، ووقف في أعلى القمة، حيث كان يتذكّر تلك اللحظات السوداء في حياته، حين: هبّ نسيم بارد، داعب خصلات شعره، فأحسّ بالارتياح، وبكى بصدق، فتحدث إلى نجمة عن مأساته، ومنذ ذلك اليوم، ضاعت صداقتهما، حرز ونجمة.

استلقى حرز على صخرة كبيرة، تشبه شكل اللسان الممدود في وجه أخضر، لسان صخر نبت بين الأعشاب الخضراء، وتسلّقت بعض عيدان النرجس الأصفر فوق الصخرة، وامتلأت الصخرة بالطحالب الخضراء، وديدان الربيع البنية اللون، التي حين يمسك بها، يحس بأن لها زغباً كالطيور، يمشّيها على كفيه، ويعبث بها بشفتيه، كأنه يكاد يلتهمها، وراح يقلّب المجلد بين يديه، وهو مستلق على بطنه، فوق تلك الصخرة، تمر أمام ناظريه الصور العارية، وتداعب أنفه رائحة أزهار النرجس، وتتتالى على مخيلته صور النساء العاريات في الحمامات، ويستحضر شروحات عمه: الخصيتان، المبيض، الـ

تداخلت الأشياء والكلمات والمشاعر، واختلطت، كما يخلط كيميائي عدة معادن وعناصر في إناء، فيحدث تفاعل، وتخرج أبخرة. صار داخل حرز إناء يغلي بمحتويات غامضة: نرجس أصفر ـ طحلب أخضر ـ سماء عالية ـ حالة نسرية ـ عقود إذعان ـ وعود بالحماية ـ مذكّر ومؤنث ـ نجمة ـ إغماء ـ تحذيرات تلك الصيغة ـ نسيم بارد ـ صور ملونة ـ ذكريات أجساد. اختلطت المحتويات بشدة، تراطمت، تزاحمت، تفاعلت، فيما كان هو يحس إحساساً جديداً عليه، غريباً، لذيذاً ومؤلماً معاً، رغبة باستمرار الألم اللذيذ، وتصاعدت لذة الألم، علت، ارتفعت، حتى!

استلقى على ظهره، مبتسماً للسماء التي شاهدته، ولأزهار النرجس التي حضرت لذته الأولى، وفهم في تلك اللحظة، ما ظنها آلام الأستاذ ظهور.

وحين رفع رأسه لينهض من فوق الصخرة، رأى وردة بيضاء صغيرة {زهرة اللبن} تتسلق بين أخاديد الصخرة، فكأنها نبتت من موقع

منتديات الكوكب العاشر

خروج خليط العناصر المتفاعلة في إنائه الداخلي، فخرج ذلك المسحوق الأبيض السائل، وانسكب على الصخرة، فقام مقامه تلك الزهرة البيضاء، زهرة بلوغه، وصباه، وجسده.

قطف حرز زهرته، وضمّها بين طيات المجلد، مدوناً تحتها: الوردة الأولى، اليوم الأخير من عامي السادس عشر، وكان آنذاك قد أتمّ السادسة عشرة من عمره.

نزل من الجبل، متملّكاً للمرة الثالثة، الحالة النسرية، أنه فوق، مرتفع، قدماه لا تحطّان على الأرض، يرى الأشياء من بُعد، ويكاد يطير.

**تجري أحداث هذه الرواية، بأزمنتها المتعددة، على خلفية مشهد احتراقه، أجل، يظل مشهد الاحتراق ثابتاً، بينما تتحوّل أزمنة القصّ، وتتعدد مستويات القصّ، وتتبختر راويات العمل، على خلفية آلامه.**

كان قد مرّ خصام طويل بينهما، فاقتحم عليها حجرة الطعام، ورمى المجلد أمامها بانتصار، فنظرت إليه باستعلاء، ففتح لها المجلد على صفحة تشريح الأعضاء التناسلية، وأشار بإصبعه إلى الصورة المقصودة، وحين رأت نجمة الصورة الملوّنة، احمرت خجلة، وأطرقت رأسها ولم تتمكن من رفعه، أو النظر إلى حرز الواقف فوق رأسها كهالة، كانت ترى خياله منعكساً على صفحة المجلد، الملمّعة، وتنظر من زاوية عينها، وهو يتلذذ بانتصاره وانكسارها، وحين أحس بأنه كسر رأسها وأذلّها بما يكفيها، انصرف رافعاً رأسه كالنسر، وكأنه سيطير من لذة النصر، عابراً حجرة الطعام إلى الردهة الكبيرة، مصحوباً بأداة انتصاره، ودليل تفوقه، المجلد الملوّن!

منشورات الكوكب العاشر

طار النسر الصغير، من الردهة، إلى الحديقة، قاطعاً الطريق من تلك القلعة، إلى قلعة أبيه، وهو لا يزال نسراً {متلبّساً حالة النسر}، يفرّق الأشياء أثناء عبوره، ويفسح الكل الطريق له، وحين دخل غرفته، منتشياً باكتشافه الجديد، أقصد، باكتشافيه الجديدين: التذكير والتأنيث، الألم الممتع. خلع حرز ملابسه، كما حين يكون في الحمام، إنها المرة الأولى في حياته، التي يتعرّى فيها خارج الحمام، وخارج أوقات الاستحمام {يبدو أن نقطة ما، أو اكتشافاً ما، يحدث تحولات كثيرة في الإنسان}، كان حرز يخاف من جسده من قبل، يتعامل معه كتهمة يحب إخفاؤها دوماً، إذ إن أمه كانت تعامل جسده، أيضاً كتهمة، وتأخذ بلعنته، وشتمه كلّما رأت عريه!

ها هو حرز يتأمل جسده في المرآة، يمرر أصابعه على بطنه، ردفه، خاصرته، يتلذذ، يبتسم، يحس بالانتصار، لم يكن يجرؤ على ذلك من قبل. وأخذ يقارن بين ما يحمل من عناصر مكوّنة لجسده، وبين العناصر الموجودة في المجلّد، ويمسك بعناصره بطريقة علمية، كأنه يدرسها، ويتعرّف إليها علمياً، مسمياً كل جزءٍ منها، بما ورد من تسمية في المجلد: الحشفة، الخصية، العانة.

توسطت الغرفة تلك المرآة الكبيرة، التي لم يقف عليها أحد، بتلك الوقاحة {العلنية}، وعلى الجدران كان ثمة صور شخصية لأمه وأبيه، وجدّه حرث ممسكاً بسلاح قديم بيد، وبحيوان بري اصطاده، باليد الأخرى، وعلى الجهة المقابلة للمرآة، صورة مرسومة، لا يُعرف راسمها، تمثّل تخيّلاً لأرض، يحيط بها شعر كثيف، كأنه غابة، ويشع من وجهها الضوء، كالآلهة، وانتشرت هنا وهناك، على الجدران، تعاويذ، ولوحات ذات دلالات، خاصة بالعائلة، أحجار مقدسة لامعة، بذور نباتات وأغصان أشجار لها تاريخ قدسي،

منتديات الكوكب العاشر

وكان حرز يقف وسط تلك الأشياء عارياً، جالساً وبين ساقيه، لا يزال، ذلك المجلد الذي يشبه كثيراً، في الصفحة المفتوحة، ما بين عموديه المستقيمين المفتوحين/ ساقيه، وقد عادت العناصر للاختلاط، صور تشريحية لأعضاء مؤنثة ومذكّرة، مؤخرات بارزة، أثداء، رائحة نرجس، صورته في المرآة، غصن الزيزفون. وهبّ نسيم بارد من الباب المشرع، فشعر حرز بدوار لذيذ، وأحس تدريجياً بأنه يغيب، وتسقط جدران الغرفة، ولوحات الأهل، والتعاويذ، والصيغ، والتحذيرات، ودار كل شيء في دائرة متسارعة الدوران، كعَنَفَة ماء، أو أرجوحة كهربائية، وبغتة، صرخ حرز من لذة الدوار، ولمعت جذور زهرة لبن جديدة!

وحين فتح عينيه، فوجئ بالصور تحدّق فيه، أبوه، أمه، جده، أرض. وكان يشعر بالراحة، لذة وهناءة وطمأنينة، مشاعر لم يعهدها من قبل.

إلا أن تلك المشاعر التي لم يكد يتعرّف إليها بعد جيداً، توقفت، إذ حدث آنذاك «الزلزال الأعظم»[١٥].

حين كان يعيد خلط تلك الأشياء/ العناصر، التي تدعوه للتعرف إلى تلك الحالة الغريبة، الجديدة من اللذة، كان يفعل ذلك عشرات المرات في اليوم الواحد، حتى بدأ جسده بالنحول أكثر مما سبق، وازداد شحوباً، وعزلة، إلا أنه فقط، تحرر من الثأثأة، وتمكن عبر محاولات التحدث إلى نفسه في المرآة، وأمام الصور والتعاويذ والصيغ المعلقة على الجدران، أن يتخلّص من الثأثأة، أمام الآخرين حتى!

---

(١٥) اصطلاح لـ كيركيغارد.

وذات مرة، اختلطت العناصر بطريقة شبه سحرية، زوابع من الاختلاطات والتفاعلات، وكاد إناؤه الداخلي ينضح بكل عقله وفكره وخيالاته نحو الخارج، ليندلق على أرض الغرفة، كاد يرى شخصيته تتفكك إلى عناصر صغيرة في أرض الغرفة، وكان بالطبع عارياً: صور تشريحية لأعضاء مؤنثة ومذكّرة، مؤخرات بارزة، أثداء، رائحة نرجس، صورته في المرآة، غصن الزيزفون، وعلى الجدران تعاويذ ولوحات ذات دلالات خاصة بالعائلة، أحجار مقدسة لامعة، بذور نباتات وأغصان أشجار لها تاريخ قدسي. كلمات طُهر، دموع نجمة، تحذيرات أرض، سخرية رؤية، وعود حماية، عقود إذعان، جد يتصيّد الحيوانات، أب يطير نحو الجبال، أم شبه غائبة، وهبّ نسيم بارد من الباب نصف المشرع، وأخذ يغيب تدريجياً، وقبل أن يُتم رحيله نحو اللون الأحمر الذي يصبح فيه، كأنه يدخل هالة من نار، أو عالماً من وهج، دوماً، قبل أن يبلغ زهرة اللبن، أجل، قبل أن يُتم مسيرته التلذذية، إذ يشعر بأنه ينزل في الأرض كمسمار يندقّ في الصخر، يحفر الأرض ويغوص، وكأنه يهبط في بئر عميقة، وتظل الأشياء حمراء. إذن، هب نسيم بارد من الباب نصف المشرع وتحول الباب بغتة إلى باب مشرع، وكاد يصرخ من الألم اللذيذ، وكاد يبلغ جذور زهرة اللبن البيضاء، وإذ بقدم تركله، وحين فتح عينيه عائداً من رحلة طويلة، بعيدة، مع عناصر تختلط، وتتفاعل، فتلغي الزمن والواقع والجدان وصور الأهل وذكريات القهر. كان عارياً من كل شيء، ملابسه، خوفه، قهره، رهبة أجداده، تخويف أهله، أسر صوتها، عارياً من ذاكرته، من رأيهم به، عري مطلق، عري في المطلق، كأنه مسمار في الكون، لكنها، هي، فاتحة الباب، مشرعته، مدخلة النسيم من باب مشرع بتمامه، عادت إلى تلك الصورة البدئية، حين تغضب، انتفخت عيناها، تورّمت شفتاها، كبرت أسنانها، استطالت أذناها. وراحت

تهذي بكلام غير مفهوم، كأنه لغة من عالم آخر، وانهالت على حرز ضرباً، أمسكت بعصا وقعت بيدها، وراحت تطارده من ركن لآخر في الغرفة الواسعة، على مرأى من صور العائلة، والتعاويذ، واللوحات ذات الدلالات الخاصة بالعائلة، وأحجار مقدسة لامعة، بذور نباتات وأغصان أشجار لها تاريخ قدسي. كلمات طُهر، دموع نجمة، تحذيرات أرض، سخرية رؤية، وعود حماية، عقود إذعان. أمام كل تلك الاختلاطات، وإناء حرز الذي يغلي ويتفاعل وينضح ويضخ، وهو عارٍ، وهي تتحول إلى كائن شديد البشاعة، وراح دمه ينزف من كل أنحاء جسمه العاري، العاري من ملابسه، ذاكرته، خوفه، رهبته، سلطتها، عار من أهله، صوت أمه. كان لم يكن، نعم، كان حرز في تلك اللحظات يغلي مع عناصر متداخلة من وعود، عقود، حماية وإذعان، شروط تعاقدية جديدة، صيغ جديدة تحل محل الصيغ القديمة وتلغي فعلها، لا حذرتك تبقى فعالة، ولا غناء إغماء، ولا حتى إغماءاتها، ولا ثورتها الخالية، ولما رأت إغماء، رغم ثورتها، أنه لا يخاف ويصرخ ويبكي ويرتعد، قفزت بسرعة خيالية إلى المطبخ وأحضرت سكيناً / كانت تتمتع بأنه يخاف من تهديدها ببتر ذاكه، وحين حرمها من متعتها، أخذت تحاول استجرار إذلاله أمامها بكاءً وصراخاً واستنجاداً، ولا سيما حين يدخل / أو تدخل / أحد عليها، ويتوسّط إليها أن تكف، تشعر بلذة الإذلال، أن الآخرين يتضرّعون لها. نعم، عندما لاحظت أنه لم يعد يخاف، ولم يجلب أحداً للتضرع إليها، أحضرت سكيناً: سأقطعه لك أيها السافل، أتتمتع به؟!

وانحنت صوبه، أمسكته بكفيها، وضغطت عليه بأسنانها، حتى نفرت منه الدماء: سأقطعه، وأرميه للكلاب، كانت تصرخ.

منتديات الكوكب العامر

وتفاعلت العناصر بجنون لم يعهده حرز، جلست أرض محل حرث في الصورة الجدارية، وأمسك حرث بشعر أرض يحاول تقطيعه، وسقط شارب عناد، وغمز لحرز، ومدّ رؤية لسانه من السقف، وسقطت إغماء في شبه إغماءة، وسقط حرز فوقها، وعناد، والصور، والصيغ، والتحذيرات، سقط كل شيء على ذلك الفراش، سمع صوتاً يحذّره: ابتعد، لكنه التصق، وكرر الصوت: ابتعد، وعدتني بالطاعة، لن أحميك. ولكن تلك المرأة الساقطة على الفراش لا تشبه أمه، إنها واحدة تحتل أمه، تخيفه، ترعبه، تهدده، وكل تلك العناصر، تفاعلات، أبخرة، عناصر تتبخّر وتزول، وعناصر تظل، وزهر لبن، يا للمزيج!

امتزجت الأشياء، الصور، الصيغ، الأشخاص، الأجساد، وضاعت هوية كل شيء في زوبعة وغبار وشجار وأنين، وإغماءة وغياب.

حين نهض متأملاً زهرة اللبن، لم يجدها، كانت زهرته قد انزرعت في مكان ما، كان رأسه ثقيلاً، حاول أن ينام، وينسى ما حصل. كانت الغرفة مرتبة، المرآة مكانها وسط الغرفة، الصور محلها، والصيغ، والتعاويذ، كل شيء في مكانه لم يُمسّ، وكان عارياً، والمجلد الملون مفتوح على الصفحة ذاتها.

حاول أن ينام، كان رأسه يؤلمه، شيء من صداع مختلط بدوار، مع شعور بالغثيان. لم يكن يعرف حقيقة ما حصل، اختلطت عليه الأحداث، فهو كائن خليط، خليط من وهم وحقيقة وافتراض وبرهنة، تحذيرات جدة، تنبيهات أم، توعّد عم، إهمال أب، منطق عم، أحلام فن. خليط من رائحة نرجس وصور مؤخرات وروائح نساء ولعنات وآثام، أصوات واعدة بالحماية، خوف، استنجاد، ثأثأة، زهر لبن، هجران صديقة، رغبات، قلق، ثم حطّ النسر في قلب النوم.

منتديات الكوفية العالمية

**[حذرتك ألا ترتل هذا النشيد، فيسكن في ذاكرتك، يأسرك ويلعنك، يفتنك فيستحوذ عليك، ولا يكون لك منه فرار، فيعدمك، وحيداً تموت وتشم رائحة رحيلك الأرض، ولن ينقذك من عذابك إلا عيد يأتي في ربيع يتلو رمادك].**

كم تلقّى حرز بعد تلك المرحلة رسائل عشق، ومناديل مطرّزة، وأزاهير، وكم تأوّهت نجمة كلّما مرّ أمامها مرفوع الرأس، مفتوح الجناحين، يراها ولا يراها!

قالت نسوة إنهن نمن معه، ونسي هو حقيقة ما حدث، حين كان يحاول التذكّر، كان يفشل، قادته تلك النشوات المؤلمة إلى البلبلة الذهنية، فلم يعد يعرف إن كان قد استجاب لنجمة أو لا، وإن استجاب لإحدى زوجات عمه أو لا.

ولشدة ما انغمس في عالم المتعة المتبادلة، والمأخوذة، بأن يجعل إحداهن سعيدة، فيشعر بالتعاسة، أو يشعر بالتعاسة فيجعل إحداهن تعشق التعاسة، مقابل أن تكون سعيدة معه لمرة واحدة، أو يجعلها سعيدة فيحس بالسعادة، كانت لديه القدرة الفورية على الفوز بأي واحدة، بسبب عبقريته الشهوية، ذلك الخليط العبقري من: ألحان قديمة ـ ألحان متصورة ـ أوركسترا تعزف في الوادي ـ موسيقى من جولة إلى أخرى ـ من هبوط إلى بئر، إلى انغراز كمسمار في الأرض ـ رائحة نرجس ـ صور أرداف ومؤخرات ـ.

خليط يجعله يبدو فتاناً وغاوياً بين ذراعي أية امرأة، فتحلم بالسعادة الأبدية، لقاء مرة واحدة تقضيها بين ذراعي ذلك العاشق المؤقت، إذ كان يحب على الفور، ويهجر على الفور، ورغم مطاردة ذلك الصوت الرزين له: لا تفعل، كان حرز لا يطيع، مبدداً أولى فرص التفاهم مع الحلف الجديد، ذلك الذي كان من المحتمل أن يبدّل

منتديات الكوكب العاشر

الصيغة الأبدية لعلاقتنا مع الآباء، عفواً، لعلاقة الأبناء مع الآباء من: {أحميك على أن أعصبك} إلى: {أحميك بلا شروط} إذ لا تعتبر الطاعة شروطاً، بل جزءاً من الحماية ذاتها، حماية من خطر المحمي ذاته.

من ير حرز بعد تلك الفترة لا يصدق ما يراه، لقد تحول ذلك الميلان أولاً، كما سبق ووصف، أنه صار ذا قامة مستقيمة {وغادر حرز الحظيرة مملوءاً بنشاط لم يعرفه من قبل، ولاحظ أن ظله على الأرض، لم يكن فيه انحناء أو ميلان، بل كان قوامه مستقيماً، ومنذ تلك اللحظة تغير لقبه، من الكائن المائل، إلى الكائن المستقيم← } مقطع سابق، وتحول نحوله فبدا متورد الخدين، ممتلئ القوام بجمال لا بامتلاء عشوائي، وصار ذلك الفتى المتلعثم المثير للضحك والتهكم عليه، فتى ترغب به النساء، وينفضّ عنهن كأنه انقلب إلى كائن آخر، إذ صار فتى شجاعاً، وكف عن الهرب إلى السُقف والحظائر والأماكن المهجورة، وكان يجالس رؤية لساعات يتناقش معه بقوة وجرأة، ويصرخ بأمه أحياناً إن ارتكبت حماقة ما، وكانت تستجيب له كأنه أبوها أو مجدّد تربيتها، وفوجئ كل من عرفه، ومن لم يعرفه بل سمع بقصته، بكل ذلك التغيير الذي تم بشكل جذري، وكان رؤية أشد المندهشين، إذ قال: أنا مندهش دوماً، كلما رأيته أو فكرت به اندهشت، أنا لا أكف عن اندهاشي، لا أصدق أن ذلك الصبي الخواف، الذي كنت أقول له: يا رعديد، ممَّ تخف؟! قد صار هذا الشاب الوسيم، الجريء، القافز على الجدران، يقرأ، يناقش، يضحك، يدخّن، يضاجع النساء. يبدو أن هذه العائلة غريبة فعلاً، وأنها «العائلة اللغز»[١٦]: إغماء التي تصبح امرأة أخرى

(١٦) تعبير لـ كيركيغارد، يصف به عائلته.

حين تغضب، كأنها مسكونة بامرأة أخرى تحت جلدها، وما إن تغضب حتى يسقط وجهها، ويظهر وجه المرأة التي تقطنها في طبقتها الأخرى، امرأة بطبقتين، أو طابقين، امرأة تحتها امرأة، يا للجنون، وعناد المهاجر إلى الجبال، يقطع طريق القوافل والمسافرين، يأخذ أموالهم، ويسبي نساءهم، ويقتل رجالهم، ويصادر حيواناتهم. وصبي رعديد، ينتقل من قزامة وميلان ونحول وضآلة وخوف، إلى وسامة وقوة ومواجهة وجرأة، وثقافة، يا للـ

**تجري أحداث هذه الروايـة**، لا يزال ذلك الجسد مرتمياً فوق النار، منتظراً نهاية القصّ، لينتهي بذلك عذابه، وحين تضع الرواية والراويات كلمة «نهاية» أو «ستار» فهي تنزل الستار على آلامه، ويلفظ آنئذ آخر نفس له، ولكن هيهات، لا تزال الرواية في أولها، ولا أزال عند ـ الفصـل الأول ـ التعريف بالأشخاص، ولم أبدأ حتى الآن بروايتي، وأعود الآن لتتمة تعريفي، وفصلي الأول لأقول:

يعود بالذاكرة نحو السنوات البعيدة، فيتابع ما روته إحدى نساء عمه، ربما كانت ثراء أو براء، لا يذكر، إذ قالت:

وصار عناد/ أبوك، يرقب أمك رقابة مَرضية، واستيقظ ذات ليلة على أصوات همهمة وحمحمة، وحين فتح عينيه، رأى رجلاً فوق زوجته إغماء، على السرير، جواره، بملاصقته، وحين رفع رأسه عن المخدة، غاب الرجل، ولم يعرف أبوك ما يفعل، فهوى عليها دون تفكير، يشبعها ضرباً، ويريد خنقها، ولكنها تملّصت منه، وجلست صامتة كتمثال.

ودخل حرز في تلك الأثناء، مرحلة النهم المعرفي، وترافق نهمه

المعرفي، مع ثورته الجنسية، فصار سكن طهر ملاذاً لإشباع نهميه معاً، فكان يحضر الجلسات الفكرية والنقاشات والسجالات، ويصطحب فتياته إلى هناك، موجّهاً أقسى الضربات لـ، / سيأتي ذكر اسمها لاحقاً.

أجل، لم يهمل حرز متعته الذهنية بسبب انخراطه الجنسي، بل راح يقرأ بكثرة، ساعات، أياماً، دون انقطاع أو خروج من غرفته الصغيرة. وأذهل الجميع بقدراته الذهنية التحليلية، وقدرته على أسر أية امرأة يصوّب إليها نظرة كيوبيد الموقعة في العشق / إلا واحدة، سيأتي ذكر اسمها لاحقاً.

وحين سمع حرز آراء رؤية فيه/ مسألة العائلة اللغز، ودهشته المستمرة، جلسا معاً، حرز ورؤية، وتحدثا طويلاً حول مسائل التغيير {لو أنهما تحدثا عن ضرورة التغيير}، وحدثه حرز عن اكتشافه لمناطق مجهولة بداخلة، وأنه يرى في مناماته، دوماً، أنه سوق مليء بالأقمشة، والباعة، والزبائن، وبضائع مجهولة، فهو حين يرى ذلك المنام، يعرف بعض الأقمشة، الملونة، والمطرزة، ولكنه يدرك أن ثمة بضائع كثيرة لا يعرفها، كتب، صناديق مغلقة، مرايا. وقال إنه يحس في كل يوم بأن لديه مشاعر جديدة، وأفكاراً جديدة، أنه يحلم أحياناً بالسفر مثل جده، وأحياناً يتساءل عن حقيقة منشئه، ونسبه، ويقلقه ذلك طويلاً، أهو مزيج أنسي وجني يا ترى، وتوقفه تلك الصيغة طويلاً، ويحاول تحليل كلماتها {**حذرتك، تعدمك، رمادك**} وكان يرغب في أن يحدث رؤية عن ذلك الضوء الذي ظهر له في السقيفة، ذلك الصوت الذي استوقفه في حظيرة جده وفي المقبرة، إلا أنه خشي أمرين: أن لا يصدّقه رؤية أولاً، وأن يغضب منه الحليف ثانياً، فكتم رغبته،

منتديات الكوكب العاشق

كان يحس بأنه مشدود بحبال قوية إلى قوى متصارعة: جدته، الحلف، أبيه، الموسيقى وحلم الأوركسترا، المنامات، القراءة، اللذائذ الحسية وزهر اللبن.

وكان يحسّ إنه خليط: واقع وحلم، منام وصحو، أحداث وقعت وأحداث يظن أنها وقعت، وهي إما لم تقع، وإما وقعت ونسيها، كأن يكون قد زرع أبناء في أرحام ما، أو أنه يتصور ذلك، خليط من أبوين مختلفي التكوين، من امرأة نصف حاضرة، وأكثر من نصف غائبة، وأب مسافر ومبتعد وفي شبه غياب تام، امرأة يُشك بأصلها ومنشئها، وجدة سحرية وشبه أسطورية.

وكان يحسّ بأنه إناء يغلي ويمور ويفور من عدة تفاعلات من عناصر متداخلة،

إنه إناء يغلي، وسوق مليئة بالغرائب والغوامض، وخليط. فما هو ليس هو بعد إذن، يالـ

لقد ابتعد حرز عن أجواء القلعة طويلاً، بسبب غرامياته المتزايدة، المتجددة، وكان يشعر بالملل من كل علاقة مع امرأة، ولم يحدث له أن كرر ذلك مع المرأة ذاتها، لأكثر من مرة!

وحين حدّث رؤية عن الملل، أُعجب رؤية بتلك الحالة، وعدّها من التكوين الفني لحرز، وكان يؤكد باستمرار أن حرزاً يحمل بذور فنان.

وقال لرؤية إنه بوجهين، وجه يضحك ويضاجع النساء، ويحلق لحيته، ويطلق النكات، ووجه حزين، يقرأ، يفكّر، يقلق. إني أشبه

منديل الكوكب العاشر

الإله جانوس[١٧] «لقد نشأت نشأة حمقاء، وكانت تربيتي جنونية، لم تكن لي طفولة عادية»، «لقد ولدت رجلاً عجوزاً بالفعل»[١٨].

ثرثرا طويلاً، قال إنه يشعر بأنه امتداد لكيركيغارد، وإنه يكاد يكرر كلماته وأفكاره، وهو في الوقت ذاته، امتداد لدون جوان الشهواني، فكيف يوفّق بين ذلك الشخص الحزين الصامت في وحدته «الكير كيغاردي»، والصاخب مع الآخرين «الدونجواني»، وقال رؤية، ما قاله كيركيغارد ذاته «يقوم الفساد الأساسي على إلغاء الشخصية، فلا أحد يجرؤ على أن تكون له شخصية بسبب الخوف الجبان من الناس»[١٩].

واستمرت تلك الأحاديث، كمصدر جديد من مصادر البلبلة لدى حرز، الذي كان يخاف من مستقبله بشدة، لأنه يعتقد أحياناً أن أرضاً {جدته} قد حددت له مصيره مسبقاً، كان يحس بذلك الرعب الذي يهزّ كيانه حين يتصور أنه لن يحيد عما رسمته له أرض في دفترها القدري/ أو ألواحها، من أحداث ستتم رغماً عنه.

{لا يمكنني أن أصف حرزاً بالكائن القدري، إذ إن إطلاق صفة كهذه عليه، هي أشبه ما تكون بصفة واضحة، أو ثابتة، وباعتبار أنه {خليط، إناء، سوق} لا يمكن إطلاق صفة مؤكدة عليه، أو نفيها عنه، بل يمكنني تأكيد أنه كائن احتمالي على الأغلب، أو على أكثر الاحتمالات، ولا أريد أن أجرّ وراء نرجسيتي، إلا أني أجد أن

---

(١٧) جانوس: Janus إله البوابات، قائم على فتح البوابات الرئيسية بين عالم السماء وعالم الأرض، من هنا جاء شهر يناير January لأنه يفتح سنة جديدة ويفصلها عن القديمة. من **يوميات كيركيغارد**.

(١٨) كيركيغارد: وجهة نظر.

(١٩) كيركيغارد The Journals

ثمة تقاطعات تكوينية بيننا، بطلي وأنا، إذ إني مثله كائن من الصعب أن أطلق صفة علي، وكذلك من الصعب نفيها، بل دوماً أعبّر عني أنني: بلا موقف، إذ سرعان ما أنقلب من موقع لآخر، وسوف أتحدّث عن ذلك في موضع آخر من كتبي، لأن هذه الرواية تخص أبطالاً غيري}.

ومن شدة قلقه وجبنه وجرأته، ذهب إليها، وقف تحت نافذتها، تاركاً، لعدة أيام، مغامراته الحسية، وكان الملل قد تسرّب إليه ليكاد يجمّده كتمثال من صمت، وكآبة، وأخذ يصرخ تحت نافذتها «أرض، سأموت من الضجر، ألا تشعرين بي».

ومدّت رأسها من النافذة، وارتجف حين رآها، كانت تشعّ بالضوء، ولم يتمكن من رؤية ملامحها جيداً، لأن تلك الهالة من الضوء كانت تحيط بوجهها بشدة لا تُمكّنه من النظر إليها جيداً، قالت له:

ـ انصرف الآن يا حرز، وسوف أدعوك لاحقاً لنتحدّث.

تجرّأ وقال:

ـ أرغب في معرفة حقيقة نشأتي!

ـ سنتحدّث عن ذلك لاحقاً، لكن عليك فقط الاهتمام بنفسك، والانهمام[٢٠] بذاتك، أتفهم!

---

(٢٠) **الانهمام بالذات** la cura sui كتاب لميشيل فوكو يستعرض فيه فكرة الانهمام بالذات بدءاً من الأفلاطونيين، ثم الأبيقوريين، ومن هنا انتشرت أخلاق اللذات، وفي حوار هام بين سقراط والشاب الطموح الذي قال له من أجل الحكم «ينبغي عليه أولاً أن يهتم بنفسه وعلى الفور» **الانهمام بالذات**، ميشيل فوكو، مركز الإنماء القومي.

وانصرفت.

فصاح بها:

ـ جدتي، وما حكاية «تلك الصيغة؟»!

عاد الضوء ليشعّ أكثر من السابق، فقالت:

ـ يروق لي أحياناً أن أكشف المستقبل لأحدهم، لا لتجنّب المصيبة، بل، «لاحتمال العذاب بمزيد من السهولة»[٢١].

ـ فهل تلك الصيغة موجهة لي؟!

ـ تذكّر الصيغة الأخرى، إنها بالتأكيد جزء منك، تخصك دوماً.

وغاب الضوء، حاول حرز التفكير بما عنته أرض بـ الصيغة الأخرى، لم تكن تقصد سوى {أحميك بلا شروط} ولكن على أن تطيعني، لا كشرط، بل لحمايتك منك.

و تذكّر أنه في كل مرة، لا يطيع!

**[حذرتك ألا ترتل هذا النشيد، فيسكن في ذاكرتك، يأسرك ويلعنك، يفتنك فيستحوذ عليك، ولا يكون لك منه فرار، فيعدمك، وحيداً تموت وتشم رائحة رحيلك الأرض، ولن ينقذك من عذابك إلا عيد يأتي في ربيع يتلو رمادك]. ← «تلك الصيغة»**

---

(٢١) أرتيميدو «مفتاح الأحلام» غالباً ما يروق الإله أن يكشف المستقبل للبشر، لأن ما يحدث فجأة ودون أن يكون متوقعاً يقلق النفس بعنف الصدمة ويرهقها، في حين أن الشيء الذي كان متوقّعاً قبل التعرض له يخفف الحزن، بالتعوّد التدريجي عليه.

منشورات الكوكب العاشر

ومن مقطع سابق «ما جرى بينهما في المقبرة»:

ـ سوف تتخلّص من كل هذه المشاكل، مقابل شروط.

ـ نعم.

ـ إنه شرط واحد.

ـ نعم.

ـ الطاعة الكلّية.

ـ موافق.

ـ طاعة دون نقاش، تفعل كل ما أطلبه منك، هذا هو اتّفاقنا، إنه عقد مختلف، ميثاق جديد، تحالف ضد حلف الآباء، في حلفك معي، لن تكون مطالباً بشيء من تبعية أو إذعان، إن كل حامٍ يفرض شروطه، إن أرضاً مثلاً تطلب الإيمان بها، وإغماء تطلب التغيّر، وعناد يطلب الشجاعة، ورؤية يطلب الإبداع، وطُهر يطلب المنطق. إن لكلٍّ شروطه، أنا لا أطالبك إلّا بالطاعة، وأنا أمنحك ما تريد، وما تحتاج، وكل ما يلزمك [ الإيمان ـ التغيّر ـ الإبداع ـ المنطق ] فكّر يا حرز، الحياة صعبة، ومليئة بالمخاوف، ولا يستطيع الإنسان أن يعيش دون حماية خارجية، والإنسان الذكي يختار حاميه، أكثرهم عطاء، مقابل أقلّهم أخذاً، وهذا يتحقق في ميثاقنا الجديد، لن تمنحني سوى الطاعة، وأنا أمنحك كل ما تريد، فكّر، وسألتقي بك بعد سنوات، للاتّفاق.

ـ موافق.

**تجري أحداث هذه الرواية، بأزمنتها المتعددة، على خلفية مشهد احتراقه، أجل، يظل مشهد الاحتراق ثابتاً، بينما**

منتديات الكوكب العالمي

**تتحوّل أزمنة القصّ، وتتعدد مستويات القصّ، وتتبختر راويات العمل، على خلفية آلامه.**

وتابعت مساء، الشق الثاني لتوأم سماء، تابعت قصّ ما لم تروه الراوية السابقة، ثراء أو براء، فقالت:

كانت أمك يا حرز، تتألم مع أبيك كلما ذهبا إلى الفراش، وكانت تبكي من الألم، وقال أبوك، سمعته بأذنيّ هاتين، إنه وفي كل مرة كانت تسيل منها الدماء، وكأنها المرة الأولى، مما دعا عناد للانضمام إلى حشد الزائرين لجدتك أرض، لقد رأيته بعيني يجلس بين المنتظرين للدخول، وقادني الفضول، فقررت التلصص، صعدت إلى السطح، وتسللت فوق غرفة أرض، وكانت أعلى غرفة في القلعة، ولصقت أذني بالأرض، فسمعت من ثقب صغير في السقف، ثقب لا يُري ولا يُسمع، إلا من يلصق وجهه وأذنه به، فيأتيه بعض الصوت، آه، وكم دفعت ثمن تلك الخطيئة، التلصص، ما علينا، ليس هذا شأننا، بل المهم ما سأرويه لك، وما جرى بين أرض وابنها، أبيك!

نظر الصبي الوسيم إلى زوجة عمه الحسناء بوقاحة، لتتابع الحديث،

سمعته يقول لها: هذه صورة كلب، ما هذا الجواب؟!

فقالت له أرض:

هذا خصمك يا ولدي!

ولكن عناد صمت قليلاً، ثم سمعت صوت انتحابه،

ـ أرجوك يا أمي، أبوس قدميك، لم أفهم شيئاً، فسّري لي، ما هذه

الدماء التي تسيل منها، ومن هم أولئك الذين ما إن أراهم حتى يختفوا.

كان صوته حزيناً، واجفاً، راجفاً، متوسلاً، تشق له الصخور رأفة، لقد تمزّقت ألماً يا حرز، لصوته المعجون بالحسرة والخوف والرجاء.

سمعت صوتاً يا حرز، ليس هو بصوت أرض، ولكنه صوت قريب إلى صوتها، كان الصوت ينطق وكأنه خارج من جوقة موسيقية، تبدأ بالنطق على التوالي، فتسمع الكلمات متداخلة، فكأنها {أي أرض} منسوخة إلى عدة نسخ / عدة نساء. / عدة أراض، رحن يتكلمن لا معاً، ولا بالوقت ذاته، بل بالتتالي، ذات العبارات والألفاظ:

{نحن اللواتي أوتين المعرفة الغامضة، نحن العالمات، الطيبات، المدركات، ألم نكن قد أنزلنا على قلوبكم وأبصاركم من قبل، فما اتّعظتم، إنهن، حين يغيب رجالهن، يعدن إلى أصولهن، اللواتي، حين يطأهن ذلك الصنف اللامسمى من الكائنات، يُعدن إليهن أغشيتهن أسفل بطونهن، وقد قلنا لهن، عُدن إلينا، نحرركن، فعادت بعضهن، إلا بعضهن، فقلنا لها:

اذهبي إلى صاحبك، بالألم تُوطئين، وتملأ الحسرة زوجك، ولا تعرفين اللذة}

ـ ولكن يا أمي، من ذلك الصنف اللامسمى الذي يطأ زوجتي؟!

وتابعت جوقة النساء شبه مترنمة، كأنها تغني:

{ها ها ها هناك، لا لا لا، ترلا لالا، تريلالالا، إن أمك لقادرة

على قول الحقيقة، ولو شاءت لأنقذت جميع بؤساء الأرض، ولكننا لا نقول إلا ما يُشاء لنا أن يقال، ومن المشيئة أن تنصرف، فأن تنحرف، فتتمحق، وأن تعترف، فتتجرف، ولو شئتُ لملأت سريرك بالراحة، ولكن لا بد لك أن تُمتحن، فتتمحق، أو تنجرف}

بنى أبي قلعة تشبه قلعة أبويه، بعيدة عنها قليلاً، لأنه كان يحب أمي ويغار عليها، ولا أعرف لماذا لم تكن هي تحبه.

وقد اشتغل أبي بأعمال سيئة، كي يستطيع، وبزمن قليل تأثيث القلعة الجديدة، وكان بسبب طبيعة عمله، يغيب عن القلعة كثيراً، وسمعت عنه أن أعماله لم تكن ذات صيت حسن، بل قيل إنه أكل أموال اليتامى والفقراء، تاركاً إغماء معزولة عن بقية الرجال والنساء.

منتديات الكوكب العاشر

كانت أمي في تلك الأثناء، لا تزال حاملاً بي، وكان أبي لا يعرف، وكذلك أنا، لا أعرف، حقيقة حمل أمي، كيف وقد أكّدت أرض أن لا ذرية لابنها عناد.

وأنا، لم أكن أحسّ بأي ارتباط مع أبي، ربما بسبب غيابه الدائم، إذ إني لا أذكر أني جلست معه في طفولتي، جلسة أب وابنه، وكأني ابن لها فقط، أما هو، فكانت أبوّته غائبة، مسافرة، ولم يشعر بي، إلّا في تلك المرة الوحيدة، حين جلسنا معاً قبل رحيلي للالتحاق بعمي طُهر والإقامة معه، آنذاك، ذهبت إليه في الجبل، عناد، وفوجئ بي، وكأنه يراني للمرة الأولى، نظر إليّ، تأمّلني، أواه يا حرز، لقد صرت رجلاً، أنا لا أصدّق، ها قد خطّ شاربان طريقهما في وجهك، أنا لا أصدق أنك ذلك الصبي الرعديد، كم كنت أكرهك، الآن، أنا نادم على ذلك، أنت الآن رجل حقيقي،

عضلات، قوة، حيوية، شباب، فاعلية، ذكاء. أنت مؤهّل لتكون قائداً عسكرياً، لا قائد فرقة موسيقية، تعال وانضم إليّ، سأعيّنك قائداً مساعداً لي، اجلس هنا لتأمر وتنهى، عندي هنا مئات العساكر، لقد شكّلت جيشاً تعجز الحكومات الرسمية عن إبادته، جيش تسمع عنه كل يوم في وسائل الإعلام، جيش ليس له قضية، أو شعار، جيش مرتزق، ولكن لا أحد يجرؤ على مواجهته، جيش يضع دمه على كفّه حين يقاتل، لذلك، يحاول الرسميون تجاهله، ونكران وجوده. أوه يا حرز، انظر إليهم، هؤلاء الرجال، ألا تحلم بأن تكون قائداً لهم، دعك من قيادة أولئك المخصيين، أبناء الموسيقى، هؤلاء رجال حقيقيون، قتال، عراك، سفك، إبادة، رجولة فعلية، معارك يثبت فيها الرجل رجولته، ما لك أنت والموسيقى، إنها أفكار أمك المجنونة، وهل يثق أحد بتلك المرأة التي تقضي أكثر من نصف حياتها في الإغماء، إنها نصف موجودة ونصف غائبة عن الوعي، عد إليّ يا حرز، إن العشرات من الشباب يطمحون بالانضمام إليّ، إن قضيتي عادلة، ليست قضية بالمعنى المطروح سياسياً وفكرياً، بل قضية خبز، نحن نقتل لنأكل، إنها مهنتنا، أنت لا تعرف أن ثمة قبائل وشعوباً كانت تعيش على ذلك، القتل، إن العشرات من الشباب المتدفقين على الحياة، الحالمين بأيام غنى ومجد وثراء، الطامحين إلى الاطّلاع على الكون، يرسلون لي مئات الرسائل مع أقاربهم من عناصر جيشي لينضمّوا إليّ، وأنا لا أرفض، إلا أن هذا الجبل امتلأ لآخره، ربما أنشئ فرقة عسكرية أخرى، تتبع لهذه، في جبل قريب من هنا، زرته ورأيته وعاينته، سأجعلك قائداً أعلى للفرقة الجديدة، أنت لم تجرّب أن تكون قائداً لرجال حقيقيين، رجال يقسمون باسمك، ويقاتلون تحت إمرتك، إن الكثير من الأمم والشعوب والقضايا والقبائل و.. تقوم في جوهرها على هذه اللحظة، القيادة، ويتم تغليفها بأطر أخرى {جهاد، مقاومة، نضال،

منديل الكوكب العاشر

كفاح مسلح، قضية عادلة، جيش تحرير، حرب وطنية}، جرّب يا حرز، أنت رجل، وعليك أن تجرّب، من قال لك إن الموسيقى هي مكانك الفعلي، جرّب، إنها فرصة يحلم بها أفضل عناصري، يقدمون لي الولاء والطاعة، ليحصلوا على قيادة الفرقة المنبثقة من جيشي الحالي، جرّب، إنها فرصتك الكبيرة، ولن تندم، إذا لم تربح، فلن تخسر، وإذا لم يعجبك الوضع، مع ثقتي الهائلة بأنك ستعشق ذلك {من منا لا يحب أن يكون قائداً، آمراً وناهياً، أليس في موقع الآلهة شيء من ذلك} نعم، حينها اذهب إلى موسيقاك، وخصيانك، وأمك!

سوف أمنحك بدلتي هذه، إني أرتديها منذ عشرات السنين، ولم يقربها ماء أو صابون، إنها تحمي، نعم، تحمي لابسها، لا يتمرد عليك أحد، ويطيعك الجميع، إن فيها سحراً خاصاً، سحر لم تصنعه أرض، أو أحد السحرة الجالسين في قماقمهم، سحر صنعه الدم، العرق، الكد. سأقدمها لك وسام قبولك بين صفوفي، لا كعنصر من عناصري {وهذا ما يحلم به الكثيرون كما أخبرتك، بل كقائد}، إن ترتد هذه البزّة، يخضع لك الجميع، ولا يخونك أحد، لا يتمرد عليك رجالك، ولا يخونك القدر، وتخضع لك النساء، ويطيعك الرجال.

كان حديثه مثيراً، وقد لعبت قيادة الجيش بمشاعري قليلاً، لكني تذكّرت السبب الذي دفعني لزيارته، فقلت له أن نؤجّل ذلك الآن، وسأفكّر به، ولكن دافعي للزيارة هو معرفة حقيقة منشئي، أهو أبي، ومن هو أبي، وما هي حقيقة أمي؟

كان عناد، أبي، يحاذر أن يلفظ كلمة ابني أثناء تحدّثه إلي، بل وطلب مني مخاطبته بـ أيها القائد، أو سيدي، أو عناد، لأنه لا

منتديات الكوكب العاشر

يؤمن بالعلاقات الدموية، وأنا أظن أنه لا يريد الاعتراف بي ابناً له، كما أنه لا يمكنه لعني، إذ إنه لا يعرف إن كنت ابنه أو لا.

لقد طالت جلستنا، كان وقتاً مميزاً ذلك الذي قضيته مع القائد عناد، وسوف أتحدث لاحقاً عما جرى بيننا من حديث، إذ إنه الشهادة الوحيدة برأيي، لأن كل ما قيل من زوجات أعمامي، يمكن اعتباره مبالغات أو أحقاد.

قالت نداء، وهي في الثامنة والعشرين، آخر زوجة عم له، والفارق بينهما، بين نداء وحرز، هو خمسة عشر عاماً فقط، وكانت تشعر بانجذاب نحو الصبي، وتحاول رشوته بحكايات تهمّه عن حقيقة أمه، لاستدراجه لإقامة علاقة معه، وكان حرز يشعر تجاهها بشيء لا يستطيع فهمه، فهو يميل إليها، ويكره ميله، وحين يبتعد عنها، يحن إليها، وما إن يلتقي بها، حتى ينفر منها، فكأنه كان يشم رائحة أنوثة جذابة، ويخشى في الوقت ذاته من تصوره لما قد يحدث، قالت نداء:

حين عاد أبوك إلى القلعة ذات نهار، وقد طال غيابه، وكانت أمك قد ولدتك في أثناء ذلك الغياب، ولا واحدة منا، نحن الثلاث والعشرين سلفة لها، تعرف كيف وضعتك إغماء، ولم تشهد إحدانا ولادتها لك، ولا حتى، حماتها، جدتك، أرض.

سمعنا من سماء التي ذهبت للاطمئنان عليها، إذ تعرف أن إغماء في أيام الوضع، أنها، أمك، قد وضعت صبياً، وأنها في صحة جيدة، ولم تعرف سماء رغم إلحاحها، كيف ولدت إغماء، رغم احتمال إصابتها بنوبات الإغماء أثناء الوضع، ولم تخبرها أمك، سوى أنها كانت في حالة إغماء أثناء المخاض، وحين أفاقت،

وجدت الجنين مغسولاً، ملفوفاً بأقمطة، ولم تجد أي آثار لدماء، أو حبل سري، أو مشيمة!

{لم تكن نداء توفّر، أثناء حديثها، حركات تمثيلية من دهشة، ومؤثرات صوتية، من تأوهات وزفرات وشهقات، بحسب الجمل الناطقة بها، لتُضفي على الحديث إثارة، محاولة التغلغل إلى عزلة الصبي، إذ إنه المناسب لها، من حيث تكتّمه، وحداثة سنه. ذلك يهيئ لها متعة على طريقتها، متعة تعلّمه كيف يؤديها لها}.

حسناً يا حرزي المدلل، كان أبوك مسافراً، وحين عاد، كنت لا تزال في أيامك الأولى، وسمعته يروي الحكاية لثلاثة من إخوته، وبينهم زوجي جواب، عمك، واسأل عمك إن لم تصدّقني، إذ كان والدك يقول:

تعثّرت قدمي بكلب جاثٍ أمام داري، التي لم أكن قد بنيتها بعد على شكل قلعة أبويّ، بل كانت فناءً واسعاً، وهي الآن الطابق الأرضي للقلعة، وكنت دوماً أتعثّر بذلك الكلب الذي كان لونه بلون التراب، وكان يتكوّم في استلقائه العشوائي، بحيث أتعثّر به، فأركله دوماً، ويهرول متألماً، وكنت لا أكتفي بذلك، بل أمسك حجراً وأضربه به، لإبعاده، وكنت أشعر باللذة حين أضربه، ولم أكن أحس بالشفقة تجاهه، ولا فكرت مرة أن أتركه لحماية زوجتي في غيابي، إذ إني، ولن تصدقوني، ولكن أرجو أن تحاولوا تصديقي يا إخوتي، رأيت نظرة غريبة في عينيه ذات مرة، لقد نظر إليّ، وقعت عينه في عيني، نظرته داخل نظرتي، فارتعشتُ، وسأكون صريحاً فأقول، شعرت بالخوف، نظر إلي وكأنه رجل، وليس مجرد حيوان، وكأنه يتحدّاني، ذلك استفزّني وجعلني أرميه بالحجارة كلّما رأيته، في ذلك اليوم، ضربته بحجر كبير، فأصبت قدمه

منتديات الكوكب العامر

اليسرى، ورأيته يعرج وهو يركض، دخلت منادياً إغماء، وهي عادتي حين أعود من إحدى جولاتي، أصرخ قبل ولوجي الدار، بلهجتي العسكرية الآمرة، وكأنها «أي زوجتي» أحد أفراد عساكري: قيام، جاء القائد! وضحك الإخوة يا حرز، وعلّق زوجي جواب قائلاً: أنت تقلّد أبانا، أتذكر يا عناد، كان يدخل صائحاً: قيام! ولم يكن يقوم له أحد، بل كانت أمنا، لا تتنازل حتى بالنظر إليه.

وتابع أبوك:

ولكن لا أحد ردّ عليّ، كأني أكلّم نفسي، لأنه أساساً كما تعرفون، ما في الدار سوى امرأتي، وتلك لم تكن تتكلم مع أحد، ولم أكن أسمع صوتها، إلا، معظم الأوقات، حين تغني. وحين دخلتُ، فوجئت أي مفاجأة بما رأيت، آه يا إخوتي كيف أصف لكم المشهد: كانت إغماء قد زرعت مسامير على جدران الغرفة الثلاثة، لا أدري كم استغرق منها ذلك من وقت، وهي تدق كل تلك المسامير، ولا أعرف من أين جاءت بتلك المسامير، مسامير متسلسلة في خطوط عمودية وأفقية، مشكّلة مربعات لا يتجاوز حجم أحدها باطن الكف، وكيف صبرت لتدق كل تلك المسامير بأناة وصبر، ودقة وترتيب، وهي المعروفة بنزقها وقلة صبرها وسرعة غضبها، لقد كانت المسامير مزروعة بترتيب مدهش، كأن يداً هندسية قاست المسافة بين المسمار وتاليه من فوق وتحت، أو بالعكس، ومن اليمين إلى اليسار، أو بالعكس ـ تلك المرأة التي لا تعرف دقة في حديثها، ولا ترتيباً في أفكارها ـ ثم أحضرت إغماء كل ما في المنزل من أغراض، وعلّقتها على تلك المسامير، وكأنها في سوق مجنون، سوق فيه كل شيء، صحون، سكاكين،

منتديات الكوكب العاشر

مناشف، جوارب، أحذية، أدوات زينة، ملابس، مرايا، أمشاط، فاكهة، خضار، علب سجائر، أزهار، مناديل ملونة، مَحافظ، أكياس، زجاجات فارغة، زجاجات أدوية، أغصان أشجار، أعشاب يابسة، صور، جلود حيوانات، نقود ورقية، ساعات، أغطية سرائر ومخدات، عقود، أقراط، أساور، أوان زجاجية، أواني مطبخ. أشياء لا أذكرها كلّها، كأني في ميدان غريب، كأني في حلم، أشياء متناقضة، متضادة، معلّقة جوار بعضها، كـ زجاجة عطر إلى جانبها مقص وجانبهما حذاء، يتلوهم طاسة حمام، أو صابونة أو ربطة ثوم. أشياء مدهشة من غرابة اجتماعها، والشيء الأكثر إدهاشاً من كل ما رأيت من ذلك المشهد الصاعق، مشهد مرعب، مخيف، مذهل، غريب، كيف فعلت إغماء ذلك، شيء لا أفهمه على الإطلاق، إذ وأنا في غمرة الدهشة، تتالت على رأسي صفعات المفاجأة، وأنا أفكر كيف سأعيد تلك الأشياء إلى أمكنتها، وكيف سأنزع كل تلك المسامير، وكيف أرمم الجدران الثلاثة، يا للرعب، حين أغلقت باب الغرفة، أو ما يمكن اعتباره الجدار الرابع، يا لرعب ما فعلتْ، كان ثمة دلو مليء بالغراء موجود على الأرض، قرب الباب، وعلى الباب، لوحة فظيعة، اقتربت، لم تكن لوحة، كان كائناً حقيقياً، لقد لصقت إغماء وليداً عارياً، وبدا كأنه لوحة، اقتربت، لمست الوجه، يا للهول، لحم بشري، طفل من دم ولحم، نظرت إلى بطنها، وتفهّمت الأمر، إنه طفلها الذي وضعته، وقد لصقته بالغراء.

كان الطفل ساكتاً، ساكناً، مغمض العينين وكأنه ميت، هرعت إلى الباب أقتلعه، وإلى الطفل أحاول إخراجه، كان ملتصقاً بالباب بقوة، أحضرت ماءً دافئاً وصببت محاولاً تخليص الوليد من الغراء، فسمعت صوت بكائه، وكأنه كان قد فقد وعيه من البرد والألم،

واستمررت طوال النهار وأنا أزيل الغراء بالماء الدافئ، ثم غسلت الصبي وألبسته ثياباً تُدفئه، وقدّمته لها لترضعه، ففعلتْ.

أدركت آنئذ، بل تأكدت، أن زوجتي ليست امرأة طبيعية، وأن ثمة سراً غامضاً في حياتها.

إن خيبة عناد العاطفية، وتبدّد حلمه العاطفي، قادا إلى القسوة، والعنف، فها بطلة قصة حبه، تلك التي مرض من أجلها، وعشقها حتى العبادة، تتصرّف كبلهاء، أصرّ عناد على أمر واحد مهما حصل، أن ينمّي ثروته، ويبني قلعة كقلعة أبويه، كان حرث قد بنى القلعة من تجارته الشريفة، أما عناد، فقد نهب الناس، وسرق، وقطع الطريق على القوافل والتجار المارّين، وبسرعة غير متوقّعة، كانت قلعته، تماثل قلعة أبويه حجماً وطريقة بناء، وتفوقها أثاثاً وفرشاً وفخامة، متجاهلاً، وكأنها لم تكن، «تلك الصيغة»، التي قد تطبّق عليه، أو على أحد أبنائه القادمين!

ومرة أوقفه أحد إخوته، منبّهاً إياه إلى وجود «تلك الصيغة» مشدداً على جملة «ألا ترتكب فعلاً آثماً»، فضحك عناد قائلاً: قالت لي لن تُعرف لك ذرية، فكيف تقول تلك الصيغة: لن تعرف ذريتك السعادة، ما دام ليس لي ذرية، فممَّ أخاف؟ إن تلك الصيغة لا تخصّني، وطوى عناد تلك الصيغة، وانطوت حكايتها عنده إلى نهاية أحداثه.

**تفاصيل عن الحلف:**

{اليوم، وبعد مرور الزمن المحدّد لك، نتّفق، أنت موافق على صيغتي لك، وهذه الصيغة الجديدة، تخفف أثر الصيغة القديمة، تلك الصيغة

التي أخافتك على الدوام، تلك الصيغ التي كانت قبل أن تكون، أما هذه الصيغة، فقد وجدت بعد أن كنت،

لن أُطلعك على الأسباب الدقيقة للصيغة الجديدة، إن كانت تخفيفاً من أرض، أو تدخلاً من إغماء، أو استجابة لتطلعاتك، ربما كل ذلك معاً، ربما إحدى تلك الحالات، ربما أسباب أخرى لا يجوز ذكرها!

بداية، انوجدت أنا، هذه الصيغة، رداً على غياب أبويك، وقد شرحت لك هذا من قبل، أني بديل لأب لا بد من وجوده، كي تحس بالاطمئنان، وبديل لأم كي تلجأ إليها كلما تضعف،

ولأن أباك غائب، وغائب عنك الاطمئنان، وأمك غائبة، وغائب عنك من تلجأ إليه، انوجدت أنا، صيغة تلجأ إليها كلما شعرتَ بحاجة إلى حماية وأمان، كلما شعرتَ بضيق ووعورة..

منتديات الكوكب العاشر

إن هذه الصيغة ذات شقين:

١ ـ ما أطلبه منك.

٢ ـ ما تطلبه مني.

**ما أطلبه منك**، هو استمرار دائم لنفي أثر الصيغة القديمة، «تلك الصيغة»، فأقول لك كلما انزلقت نحو تحقّق «تلك الصيغة»: **لا تفعل!**

**أما ما تطلبه مني**، فهو: أيتها الصيغة + تنهيدة طويلة! فيكن لك ما تريد.

حين أسمعك تنادي: أيتها الصيغة، مرفقاً نداءك بتنهيدة طويلة صادقة، تجدني حينها بطريقتي، أتدخل لحمايتك، ولكن عليك أن تطيعني، ولا تعتبر هذا شرطاً، كما قد يخطر لك أو لغيرك، إنني حين أنهاك يجب أن تنتهي، لأني أنهاك عما يؤذيك، وحين آمرك يجب أن تأتمر، لأني آمرك بما يصلحك، إني لن أطلب منك شيئاً، ولن آمرك، بل فقط سوف أنهاك، وكل ما لا أنهاك عنه، مباح لك فعله، فهل وُجدت ذات يوم صيغة أسهل من هذه، إن هذه الصيغة قائمة على: لا تفعل، ولا تتضمن: افعل، ولا وصايا، ولا طلبات، إنها صيغة نهي، وحسب!}.

ذلك الحديث هو ما سمعه حرز، في غرفته العلوية، بعد أن بلغ التاسعة عشرة من عمره، بعد أن قام عناد ببناء عدة طوابق، وحمل حرز أغراضه إلى الطابق العلوي، واستقل في غرفة علوية، امتلأت بالكتب والأوراق البيضاء، ليكتب بعد أن اكتشف تناقضاته، فوجد الطريقة الوحيدة لحل تلك المتناقضات، والتشابكات والتداخلات، صبّها كلها، تلك المحتويات {إناء، عناصر، سوق}، على الورق.

**تجري أحداث هذه الرواية، بأزمنتها المتعددة، على خلفية مشهد احتراقه، أجل، يظل مشهد الاحتراق ثابتاً، بينما تتحوّل أزمنة القصّ، وتتعدد مستويات القصّ، وتتبختر راويات العمل، على خلفية آلامه.**

تزداد الرائحة انتشاراً، وتلك المرأة، أعقل امرأة في ما يحيط بالقلعة، وحدها عرفت مصدر الاحتراق، وامتزجت مشاعرها بين سعادة وحزن، لذة وقهر، وسالت دمعة على خدها، لم تعرف سببها، العطف، الشفقة، الندم، الحسرة، ولكنها أحسّت بحاجة إلى البكاء، هل هي تحبه إذن؟ هل حزنها على غياب فعل بها هذا التشويش،

منتديات الكوكب العالمي

ودون أن تصل إلى معرفة أسباب اختلاط مشاعرها، وضبابيتها، راحت تبكي، مستسلمة لرغبتها وحاجتها لذلك البكاء، وكأن فكرة التشويش والاختلاط ذاتها، جعلتها تبكي أكثر، ربما حزناً على عدم مقدرتها من تحديد مشاعرها.

وخرج شمس من غرفته، إلى الشرفة، ولم يكن قد غادر إلى الحمام حتى، منذ رحيل غياب، ولكن الرائحة، القوية، النفّاذة، النافذة، المثيرة للاضطراب، قذفته خارج الغرفة، كما فعلت بجميع سكان القلاع والبيوت، وكانت ذهول إذ ذاك تكفكف دموعها، كي لا يضبطها شمس، واقفة على الشرفة، كما بقية آل القلعة، مستفسرة بنظرات قلقة، وملامح خائفة، عن مصدر الرائحة.

وحدها كانت تعرف الأجوبة، وتحتفظ بها لحين تكشف الرواية عن مصدر الاحتراق.

كلتا المرأتين تطلان من الشرفة، كل منهما من موقعها، إحداهما على شرفة بيت يطل على القلعة الأساسية، الأولى، والأخرى، ذهول، على شرفة القلعة الثالثة، التي بناها حرز وهجرها في ما بعد، تاركاً فيها ابنه شمس والمربية ذهول.

تحاول إحدى راويات العمل، الإسراع بالقصّ، بينما تحاول أخرى التدخل لأسباب فنية، إحداهما مفتونة بالحكاية، راغبة في نشرها وتثبيت أحداثها، والثانية مفتونة بالشكل، تحاول وضع قواعد شكلية، ولوازم فنية، تفتنها قبل القارئ، وثالثة قلقة، حائرة، تخاف من كل ما يحدث، تخاف من فكرة كونها روائية، وتخشى انفلات دفة القصّ من بين يديها، فتقوم جدار بإحداث فوضى في العمل، فيدوخ القارئ من تدخلات جدار، تلك التي لا يقف

منشورات الكوكب العاشر

بوجهها جدار، وكأنها الجدار الرابع، أو الصانعة الرابعة لهذا العمل، {إذ يمكن اعتبار فعلها بمثابة فعل اثنتين، لأنه كان من المفترض أن تتوقف مهمتها عند الصياغة الأولى، ولكنها لم تكتف بذلك، بل تابعت التدخل في المراحل التالية للكتابة، والمعطاة لغيرها} وكأن قيام هذه الرواية على أكتاف ثلاث راويات لا يكفيها من أزمة، إذ {إذا تعدد طهاة الطبخة، احترقت}، مما يجعل جدار تتدخل، تلك إذن التي لا يقف بوجهها جدار، ولا يغلق باب، تلك التي يُسمح لها بما لا يُسمح لغيرها، فتدخل بين هوامش الرواية، وبين سطور الكتابة لتمدّ لسانها للكاتبة النزقة، المعروفة بنزقها وسرعة غضبها، بسبب كثرة هجوم الآخرين عليها، والثانية المعروفة بقلقها، لانغماسها في شكليات الرواية، وابتداع أشكال وتقنيات جديدة، آه جدار، التي تنطح الجدران فيشف خلف الجدار جدار، لا يراه غيرها، تلك التي تفتح طاقات ضوء ونور في الجدران، تلك هي كل شيء، هي الانسداد، والانغلاق، والمحدودية، إذ يحسّ المحدود أمامها بالمحدودية، ويحسّ أمامها المنفتح بانكسار المحدودية، جدار ابنة الجدار، جدار الحاجز، الذي يمنع، والذي إذ يُعبر، تتغير معالم الأشياء لدى العابر.

لـ جدار سيرة تأتي في مكان آخر، لأن السيرة الآن هي سيرة ذلك المحترق، ذلك الذي ملأت رائحته القلاع الثلاث، بعد أن غادر، ولسنوات طويلة، تاركاً خلفه زوجة غير شرعية تحقد عليه لأنه لم يتزوجها، وثانية، تركها مدفونة بعد موتها أثناء النفاس، وابناً في حوزة مربية، لأن إغماء، وبنوبات إغمائها المتتالية، وبقصة منشئها الغامضة، لن تُقدم لشمس مصيراً أفضل مما قدمته لأبيه، ابنها، حرز.

# الفصل الثاني

## التعريف بالأحداث

منتديات الكوكب العاشر

**ما دار بين عناد وحرز ــ الحوار الذي جرى بينهما!**

الدهشة هي ذلك الفزع اللذيذ الذي يصيبك وأنت تتلقى أمراً لا تتوقّعه، فتفتح فمك، وترخي خصيتيك، كما تقول نساء الأعمام.

لكن الدهشة لا تصيب المرء مرتين في موقع واحد، الدهشة، هي الشعور الذي تملّكه حين رأى والده، ثانية.

أولم عناد لـ حرز وليمة، لم يسمع بها أحد من قبل: عجول، غزلان، خراف، دجاج، بط، أسماك،

رائحة الشواء ملأت الجبل، والوديان، والقلعتين.

أكل العسكر لحوماً مشوية، أكلوا حتى الهذيان، وشربوا خموراً حتى الذهول، والتهم عناد عجلاً مشوياً بكامله، وبطتين مشويتين،

وخمسة طيور، وفخذ غزال، وشرب أكثر من برميل خمر.

وظلت نار الشواء متّقدة تحت أجساد الحيوانات المسلوخة، المعلّقة من أطرافها الأربعة، على أوتاد معدنية متينة فوق النار.

مشهد لم يسبق لحرز أن تخيّله، أو أتاه في منام.

نساء، عري، تدخين، موسيقى، رقص.

كانت حرارته ترتفع، وهو يحتفي مع أبيه ـ الذي تمنى أن يكون أباه ـ في آخر لقاء لهما، إذ وبعد العشاء، نام الجميع، وتوقف كل شيء في الجبل، وكاد القمر يختفي من التعب، ولم يبق سوى الحراس الليليين، المناوبين، وصوت عناد الذي راح يحكي الحكاية ـ التي لم يحكها لأحد ـ لابنه، الذي كان يدرك، ويتجاهل، ويقلقه، أنه، ليس ابنه!

لقد رأيتهم يا حرز، الملوك السبعة: الأحمر، والأخضر، والأبيض، والأسود، والأبلق، وكانت أمك معهم، وقد خلع الكلب ـ أظنه كان أباك ـ ثوب الكلب، وتحول إلى شاب جميل، لكنه لم يكن أجمل مني، كان أسود بشدة، لكن عينيه زرقاوان {نظر إلى عيني حرز} مثل عينيك تماماً، إلا أنك أبيض، مثل أمي، أرض، غريب، كأنك خليط من أمي، ومنه، شيء لا أفهمه، لا تندهش لأني تركت أمك مع أني أحبها، وأنا أحبها إلى الآن، وهذا الحب أفسد حياتي، وأفسد سعادتي وهنائي، لقد تلوّثت أخلاقي، سرقت، قتلت، شكّلت عصابة، لأثري، ولأكمل لأمك قلعتها، وقد، وأقول لك هذا سراً، سعيت لأصنع منها سيدة أكثر أهمية من أرض، أمي!

منتديات الكوكب العاشر

كان لا بد لي من معرفة سر زوجتي، كما تسعى أنت الآن، لمعرفة حقيقة أمك، قبعت لها ذات ليلة شتائية قارسة البرودة، أمام باب القلعة، قلعتنا، وقد هطل الثلج بغزارة، وقاومت إحساسي بالبرد، مقنعاً نفسي بأن البرد شعور فكري وليس شيئاً مادياً.

كان صوته يترافق مع صمت الليل، وصرير صرصار الليل،

ورأيته، الكلب ذاته، الذي كنت أتعثّر به دوماً أمام القلعة، وأركله، كان يقترب ببطء من مدخل القلعة، ويقفز من فوق السور، ثم يصعد السلالم، لم أعبأ به في بداية الأمر، بل تابعت قبوعي أمام باب القلعة، لعدة ليالٍ متتابعة، دون أن تشعر بي أمك.

وتوالت كمائني دون جدوى، إلى أن غيّرت موقع رقابتي، فجلست بين أعشاب الحديقة، وكان ما لفت اهتمامي فجأة، هو مجيء ذلك الكلب، في الوقت ذاته من كل ليلة، وما نبهّني إلى غرابة أمره، هو عدم نباحه حين كنت في الحديقة، فقد مرّ من قربي، وكانت تفصله عني بعض الأعشاب، وكاد يلاصقني، إلا أنه لم يرني، ولكن، كان من الطبيعي أن يحسّ بي، فالكلاب تحس من مسافات طويلة، إنه لم ينبح، ولم يهرب مبتعداً، بل ظل يتبختر في مشيته، وصعد السلالم. في تلك اللحظة يا حرز، تذكّرت الصورة، الصورة التي قدّمتها لي جدتك، هل لديك فكرة عن ذلك {هزّ حرز برأسه، ليتابع عناد كلامه}، فزحفت ببطء نحو جدار غرفة أمك، وتسلقت شجرة الجوز الكبيرة، تعرفها، ووصلت إلى أعلى أغصانها، بحيث بدت غرفة أمك تحت ناظري، واضحة!

تذكر حرز أنه قام بفعل مشابه، حين كان يقف على شرفة الأستاذ ظهور.

منشورات الكوكب العاشر

كانت أمك قد فتحت النافذة، كأنها تستغيث بمن يراها تتعارك بشدة مع رجل، يرميها على الأرض. وضبطت انفعالي لأستوضح الأمر، إذ كيف وصل الرجل إليها، وأنا أرقب المدخل والأبواب، ولم أرَ من يمر، وانتبهت إلى قدميه، كانتا كأقدام البط، دون أصابع، بل أغشية!

وفي اليوم التالي، قبعت كعادتي، وحين رأيت الكلب يأتي في الموعد ذاته، انتابني إحساس بأن ثمة علاقة بينه وبين ما يحدث.

كان حرز يتساءل، لماذا قطع عناد المشهد منذ: أقدام الرجل، حتى: في اليوم التالي، ولماذا لم يصف له الوقت المستمر بعد: بل أغشية، وحتى: وفي اليوم التالي، لماذا لم يحكِ له عناد عما رأى بين إغماء وذلك الرجل، ولم تكن لديه جرأة لسؤال عناد المنهمك في الحكاية، حكايته الحقيقية والأكثر مساساً به، بـ عناد، وترك حرز العنان لذلك الرجل الآخر، عناد، ليحدد ما يُقال وما لا يُقال، فتابع عناد قائلاً:

ولم أستطع اللحاق به، خشية أن يشعر بي، فيهرب مني، وتهرب حقيقة ما يجري خلفي، بل فعلت العكس، انتظرته حتى الصباح، وحين رأيته يغادر، لحقت به.

وتساءل حرز مجدداً، لماذا قطع عناد الحكاية، منذ دخول الكلب في المساء، ولغاية خروجه في الصباح، لماذا توقّفت عدسة عناد عن نقل تلك المشاهد ـ التي رآها دون شك ـ لحرز، أهو الخجل مما رأى، أم حفاظه على ماء وجهه والمتبقّي من رجولته أمام الشاب، أم حرصاً على مشاعر الفتى، أم أنها عاداتنا، نلمّح ولا نصرّح بكل ما يتعلق بحقيقتنا السرية، خلف الجدران، وستائر غرف النوم، وعلى

منتديات الكوكب العاشر

الأسرّة، والشراشف والمخدات، أم أنها «فيروس» الرقابة، الذي يتنقّل بيننا، فنمنع عنّا وعن غيرنا، كل ما له علاقة بعالم الجسد والرغبات. ولكن: أهي الضرورة الفنية أحياناً ـ يا للتوفيقية![1] ـ، أم أن عناداً يعتبر أن الزمن: منذ دخول الكلب للقلعة، وحتى صبيحة اليوم التالي، كان ميتاً. ألم يتسلّق عناد الشجرة، ألم يرَ رجلاً يضاجع امرأته، ماذا حدث في ما بعد، لماذا يحكي ما يريد، ويلغي ما يريد؟

لحقت به، تتبعته، حتى دخل باباً سرياً، إذ انتزع حجراً من الأرض، حجراً مربعاً، وتسلل تحته، ثم رأيت يده، تعيد الحجر إلى مكانه، من تحت، وغابت يده، وغاب.

وبعد ساعات، وأنا أنتظر، مللت، فاقتربت من موضع الحجر، ونزعته، وحين كنت أحاول أن أبصر، ومددت رأسي قليلاً لأرى، وفجأة، انزلقت.

وجدتني أهبط، لا يحصل لي أي شيء، سوى أنني أهبط، وكأن إيقاع الحياة، صار بدلاً من أن يمشي المرء، يهبط، نعم، هبوط متواصل، ساعات من الهبوط، سنوات، لا أدري، كان هبوطاً طويلاً، والطريق معتم، ولا شيء أمسك به، أستند إليه، أوقف هبوطي، لا شيء أراه، أتكئ عليه، لا شيء، هبوط، هبوط، هبوط.

وتوقف هبوطي فجأة، ووجدتني واقفاً على حافة إسمنتية صغيرة، ناتئة مما يشبه ممر الهبوط، وكأنها حافة النهاية، أو منتهى الهبوط، أو

---

(١) تعليق من إحداهن على إحداهن.

حدّه، حافة ترتفع على قاعة كبيرة، أشاهد منها {من الحافة، وأنا فوقها} أشخاصاً وأثاثاً و... عالم كأنه عالم الأرض، موسيقى، أصوات، أحاديث، ضحك، جدال، دون أن يراني أحد {هل فعلاً لم يكونوا يرونه؟}، كانوا جميعهم أشخاصاً مثلنا، كائنات آدمية، ولكن الفارق الوحيد كان في أقدامهم، كانوا بأقدام دون أصابع، بل أغشية!

وحاولت الصعود، العودة، ولكن كيف، فأنا لم أختر الهبوط، ولم أفعله بعلم مني، فكيف سأعود قبل أن ينتبهوا إليّ، لا بد لي من الاختباء، حتى أجد طريقة للصعود، لو عثروا علي، لآذوني، فقد اطّلعت على أسرارهم، أسمائهم، علاقاتهم،

وبحثت عن أي طريق، لا منفذ!

وفجأة رأيت ضوءاً من علو، رفعت قدمي عن الحافة الإسمنتية {منتهى السقوط}، وحاولت أن أقذف بجسدي صوب مصدر الضوء، فدخلت في فجوة ضوئية أفقية، داخل سرداب الهبوط العمودي، الذي انزلقت منه.

زحفت في الضوء الأفقي، وتلوّثت بالغبار، وتقطّعت ملابسي، وتشققت يدي وقدمي، ونزفت دماً من وجهي، وشيء لا يمكن تصديقه يا حرز، شيء مذهل لم أجرؤ على ذكره طوال تلك السنوات، لو تعرف إلى أين وصلت {نظر إليه حرز بقلب يدق بعنف، متسائلاً بعينين نهمتين لمعرفة الجواب} لن تصدق يا حرز إلى أين أوصلتني تلك الفجوة الضوئية الأفقية، تصور، بعد زحفي، وجدتني أصل إلى غرفة أمي، أرض!

منتديات الكوكب العاشر

ـ أتراها قد أضاءت لك الطريق!

ـ ربما، أعتقد أنها تعاطفت معي، وأنقذتني، ألستُ ابنها؟

ـ وأنا ابن من؟ هل أنا ابنه إذن؟

ـ اسأل أمك!

ـ إنها لا تجيبك.

ـ إنها تحبك، اسألها، وسوف تجيبك!

ـ برأيك، هل يمكن أن أكون ابنه؟

ـ ربما.

ـ وقتها، لن تكون أرض جدتي، ولن تخصّني تلك الصيغة.

ـ اسأل أرض.

ـ يا لهنّ، أرض وأمي، تعرفان كل شيء.

ـ هذا ما أعتقد أنا أيضاً.

ـ وحرث، جدي، ماذا حلّ به؟

ـ لقد بنى قبراً في غرفته، غرفة مستطيلة داخل غرفته، دخل فيه، وأغلق فتحته الإسمنتية، ويعتقد الجميع، وأنا منهم، أنه مات، لأنه لم يظهر بعد ذلك، ولم يره أحد، ولا يجرؤ أحد على الاقتراب من صندوقه الإسمنتي، الذي لا يدخله هواء ولا ضوء، ولم يعد يصله طعام أو ماء، وكل من حاول الاقتراب من تلك الغرفة، غرفته الأولى، وجد ثمة قوة ما تدفعه إلى الخلف، وكأن أيادي غير مرئية تطرد كل من يحاول الدخول، وحين طلبنا من أرض، أن تفسر لنا، هزت رأسها صامته نافية قيامها بذلك، لا أعتقد أنه لا يزال حياً بعد

منتديات الكوكب العاشر

هذه السنوات، ولكني كلما غفوت، وفي كل ليلة، أشعر به يبكي في صندوقه الإسمنتي، يأتيني صوت نواحه، ثم أغفو، ناسياً ذلك، أو متناسياً، نعم، يحدث ذلك، أن أسمع ذلك النحيب البعيد آتياً من القلعة، حين أكون داخلاً في العتبة الأولى للنوم، وبعد أن أغفو، وتبدأ مناماتي بالعرض، يتوقف ذلك النحيب، أو أكف عن سماعه، أمر غريب، أليس كذلك؟

ـ وأمي، هل تركتها له، ذلك الرجل الذي كان يتعارك معها؟

ـ لا يمكنني التدخل يا حرز، إنهم كائنات من طينة مختلفة، ثمة أمور لا يمكننا التدخل فيها، كأمر أمك، وأبي، وأمي، هؤلاء لهم عوالمهم الغامضة. اسمع يا حرز، في ليلة، استيقظت ولم أجد أمك جواري، بحثت عنها في قلعتنا دون أن أعثر عليها، هل تعرف ماذا فعلت، أنت تتوقع ذلك دون شك؟

ـ ذهبتَ إلى موضع ذلك الحجر، عند مقر السقوط!

ـ صحيح، هذا ما قمت به، نزعت الحجر، وسمحت لجسدي بالانزلاق، حتى منتهى السقوط.

ـ الحافة؟

ـ الحافة!، رأيتها تدخل للتو.

ـ أمي؟

ـ أجل، وكدت أجن من المفاجأة، كنت مذهولاً، إذ رأيت، وأبصرت، وتابعت، مراحل تحول الكلب إلى رجل، قطعة قطعة، أو بقعة بقعة، يبدأ التحوّل من رأسه، ثم صدره، فبطنه، ثم مؤخرته،

منتديات الكوكب العاشر

فساقيه، حتى يصبح بكليته، رجلاً فعلياً، لا كلباً متلبساً ثوباً ليس ثوبه.

كانا يتضاجعان في تلك القاعة {يستحق عناد تصفيقاً وتحية على جرأته}، على مرأى من الجميع، وكانت أمك الوحيدة من بينهم، التي تملك أصابع لقدميها، لا أغشية.

بحثت عن الضوء، لأدخل السرداب الأفقي، للخلاص، ولكني لم أره، فقذفت بجسدي نحو الفجوة التي دخلتها من قبل، وزحفت في الممر ذاته.

ـ وانتهيت إلى غرفة أرض؟

ـ نعم، ماذا تريد مني أن أفعل، كيف تحاسبني على أني تركتها، إنها هي التي تذهب إليه، إن لم يأتِ، فماذا أستطيع أن أفعل؟

ـ ألم تحاول منعها؟

ـ لا يمكن ذلك، حين أمسك به، يذوي من بين يدي، إنه ينام في سريرها دون أن أراه، وهي كانت، ودوماً، ورغم كل شيء، غائبة، لا تتحدث بشيء، ولا تجيب عن سؤال، لقد أحببتها يا حرز، ولا أزال أحبها، إنها المرأة الوحيدة التي أحببتها، وتمنيتها زوجة لي، وأماً لأبنائي، ولكن، كلما كنت أقاربها، كانت تأخذ بالصراخ والبكاء، حرمتني من الشعور بأني رجل، وكل النساء التاليات، اللواتي كنت أبحث فيهن عن اعتراف برجولتي، لم يمنحنني ذلك الإحساس، لأني دوماً، تأملت ورغبت أن أحياه مع إغماء.

ملأ الذباب المكان، وكأنه يتبع الموت، كما يتبع النمل القفر، استقرت ذبابة فوق جبينه، لم يطردها، وسارت بعوضة على خده،

منتديات الكوكب الهاشمي

ولدغته، فلم يحكّ خده، أو يتحرك، وكأنه صار جثة،

صرخت أرض، فدوّى الجبل.

مدت أرض رأسها من النافذة، ونظرته، ممدداً على الجبل، والذباب يحوم على وجهه ولحيته، ورأت العسكر، بلباسهم العسكري، يحملونه على الأكتاف، مئة رجل حملوا الجثة، واهتزّ الجبل، حين به هبط المئة رجل، يحملون الرجل ذا الحجم المساوي لعشرات الرجال، وخلف الجثة، نزل بقية الجيش، وهرعت نسوة القلعة، وإعماء،

وتوقّفت أرض في النافذة،

وكان حرز قد غادر في الليلة السابقة.

قيل، وجد، وسكيناً في صدره.

قيل انتحر.

قيل قُتل.

قالت أرض، بصوت ليس هو بكاء، ولكن فيه بكاء: **حذرتك ألا ترتل هذا النشيد.**

وقيل إنه، في مكان موته، فوق، في الجبل، حيث استلقى جسده، وسالت دماء صدره، نبعت عين ماء، ماء حلو، كل من يشربه يشفى من مرضه.

وقيل، دُفن تحت نافذة أمه، أرض.

منديات الكوكب العاشر

وقيل، فوق القبر، بنت طيور أعشاشها، وأحست حيوانات مذعورة بالسلام.

وقيل، أعلن نائبه، تحول الجيش إلى حزب سياسي، وسلّم أسلحته ومؤونته للمحتاجين والفقراء، وجوار مدفنه، اعترف جميع رجاله بكل ما قاموا به أمام أرض، وطلبوا التوبة، وأعلنوا الندم، وأنهم، بكوا هناك، جوار المدفن، وأن مدفنه تحوّل إلى مكان اعتراف بالذنب / أو الذنوب، وقيل إنه سُمع صوته يقول من القبر: قتلت سبعمائة وخمسة وسبعين رجلاً، وخمسمائة وست عشرة امرأة، والتهمتُ جثة رجل طازجة، وشربت دماً بشرياً، وأحببت إغماء كثيراً، ولن أقول، كيف متّ!

وقيل، لماذا في تلك الليلة بالذات، بعد حديثه مع حرز، ذلك الحديث الذي لم يعرف به أحد، ولم يعرف منه أحد، ولم يعرف عنه أحد؟؟؟

وقيل، إن رائحة فاسدة كانت تصدر عن قبره، إلا أنه، ومن الغرابة أنها كانت رائحة ممتعة، رائحة تشبه خصوبة المرأة، شهوتها، جاذبيتها، رائحة نتانة، ولذة، وأن أرضاً كثيراً ما سمعت تأوهات ألم من تحت القبر، وكانت تطل برأسها من النافذة، لتهدئة الميت، ذلك الذي لم يهنأ في موته، وكانت أرض تنتظر نهاية الحكاية / الرواية، لتساعد عناد على أن يموت موتاً هانئاً.

**أجزاء من سيرة حرز العاطفية:**

حين بلغ حرز الخامسة والعشرين، وصار شاباً وسيماً متورد الخدين، أزرق العينين، وشعر بلون القمح، لا ذهبي، ولا أشقر، ولا بني، ولا

منشورات الكوكب العاشر

أسود، لون يدعى: حنطياً، يقع بين الذهبي والبني، وأحسّ بميل نحو الموسيقى، وربما اكتسب ذلك الميل من أمه.

إذ طالما اصطحبته في نزهات، يتوغلان فيها ابتعاداً عن البيوت، والقلاع، إذ ينحرفان في تلك الغابة، حيث كانت تغني، حين اكتشفها عناد، واستطاع حرز أن يتقن العزف على آلة وترية، ألحاناً مفرحة، وتخفف من الصوت المبكي للإغماء، التي قبلت وللمرة الأولى أن تغني مصحوبة بعزف، كان عزف ابنها.

وكانت علاقته مع الموسيقى، تخلق له شيئاً من توازن، إذ اكتشف الموسيقى هكذا:

كانت قد هاجمته تلك الموجة من الكآبة، وكان قلقاً، حزيناً، يرغب في استحضار الصيغة الجديدة، دون أن يعرف ما يريده منها، وناداها: أيتها الصيغة؟! + تنهيدة طويلـــة!، فسمع صوتها يرد عليه:

ـ أنا معك.

ـ أشعر بحزن يكاد يقتلني، ماذا أفعل؟

ـ تسلّ بما لديك.

ونظر حرز حوله، فرأى آلة وترية، كانت تعبث بها إغماء حين تغضب، فتعزف بعض الألحان دون غناء، فأحضرها حرز على الفور، وراح يعبث بالأوتار، وشعر بتحولات تدريجية في مزاجه، ودهمه الوقت / أو يفضّل القول أن حرزاً قد دهم الوقت، وظل لساعات وهو يعزف، ويكتشف تميّز كل وتر عن الآخر، إلى أن حفظ دون أن ينظر، الصوت الذي يحدثه كل وتر، وحلّ المساء،

منتديات الكوكب العاشر

وجاء الصباح، وحرز يحتضن تلك الآلة بين يديه، حتى تمكّن أخيراً من صناعة لحن صغير.

ووجد نفسه أيضاً، مصحوباً بحالة من السعادة، وعدم الضجر، واكتشف طريقة جديدة، تجعل الحياة أكثر معقولية، وأبعد عن الضجر.

لقد تمكّن حرز بتلك الطريقة، من أن يكف عن الحزن والخوف من الحياة، وصار كلما شعر بالضيق، يعبث بالأوتار، إلى أن صار التعامل مع تلك الأوتار، عادة، يشعر بالضيق إن لم يقم بها!

واكتشفت إغماء قدرة حرز على العزف، فراحت تقضي معه أوقاتاً مطولة، تغني له، ويعزف لها، حتى تمرّنت أصابعه وتعايشت مع الأوتار، إلا أنه كان حين ينام، يحرّك أصابعه في نومه، وكأنه يعزف حتى في نومه!

واعتقد حرز أن أحد طرق «الصيغة الجديدة» للتخليص، هي الموسيقى، فلازمها، وأحسّ بأنه حين يعزف، يصبح شخصاً آخر.

كانت جدار تقلّب الدفتر الشخصي لحرز، الذي دوّن فيه انطباعاته، وخواطره، دون أن يتطرق إلى ذكر أحداث أو أسماء أو تواريخ.. فأصيبت جدار بالتخمة القرائية، لكثرة ما قرأت عن علاقته بالموسيقى.

«غرفة ضعيفة الإضاءة، أريكة تشبه جثة رجل مستلق مضى عليه زمن طويل دون أن يحرك جسده، أو يستحم، وربما بال في ملابسه، عفونة، ضجر، قميص معلّق في جوار سروال، كأنهما

كائنان مهمَلان، ثمة كآبة قاتلة، كأن المقيم في الغرفة ـ أنا ـ ينتظر تنفيذ لحظة الموت، ضجيج من الخارج، مارّون يثرثرون، كتب مرمية على السجادة بعبثية تدعو إلى البكاء، بكاء. لا شيء يحصل، لا باب يُطرق، ولا إضاءة، ولا هدوء.

جالس على حافة النافذة، مؤخرتي ملتصقة بحافة إسمنتية تحزّ سروالي، وعيناي تجولان في الغرفة، وحين تسقطان بفعلهما الذي وجدتا من أجله: البصر، على تلك الآلة المحشورة بين جثة الرجل الذي لم يستحم منذ أيام، ومدفأة صغيرة، أشعر بانفراج هادئ، أتسلل نحو الآلة، أمسك بالأوتار.. تُضاء الغرفة بشدة، أسبح في عرق لذيذ، أجلس فوق تلك الجثة، التي لم تتغيّر منذ زمن طويل، تتغيّر هيأتها، أفتح النافذة، لا عفونة، لا ضجر، يسقط القميص المعلّق جوار السروال في يدي، أرتديهما دون كآبة، أغلق الباب خلفي بقوة، تلك هي أجزاء من الموسيقى».

وحين سألته جدار، ذات يوم، عما تعنيه له الموسيقى، ضحك قائلاً: إنها محاولة للشفاء!

لم يكن حرز ساخراً آنذاك، فهو ذلك الكائن الخليط، من واقعي وسحري، من صيغة قديمة، وصيغة جديدة، من أب مقتول أو منتحر، وأم مأخوذة أو مغيّبة أو مستعارة، وجدّة صانعة حكايات وأساطير، وبطل رواية سبق فعل كتابتها، فعل دخوله في الحياة، تناقضات، تداخلات، تفاعلات، داخله يمور بعوالم متعددة، قاعات من ضجيج ونور وكآبة وعزلة وقهر ونفور وهذيان وتهور وإقدام وندم. بطل لا يعرف له بداية أو نهاية، لا يعرف إن كان بطل رواية، أو كائناً حقيقياً، كما قال ذلك الطفل الصيني «هل أنا طفل حلم أنه فراشة، أم فراشة تحلم أنها طفل؟»، فهل هو حرز الذي

منتديات الكوكب العاشر

يسمع أنه بطل رواية مكتوبة فعلاً، أم خيال روائي أم، قدرة عجيبة ورثتها جدار مدللة أرض، فصاغت ما لم يأتِ، وما تعرف أن سوف يأتي، ويصير!

الموسيقى هي ذلك الموجود الذي يلغي الفراغ، فينفي عن الكون فكرة العدم،

الموسيقى هي إلغاء العدم. الموسيقى وجود. وجود قوي ومكثّف، كتلة، يشعر حرز أثناءها بأنه موجود، والأهم أنه: مشروع الوجود! {أي تمنحه الموسيقى شرعية وجوده، أو تبريره، أو}.

{جسد يبث في رائيه الرغبة في الحياة، فكأن اتفاقاً ذا صيغة ما، رأى أن يجمع بين ذلك الجسد، والموسيقى، ليدفع حرز للخروج من «تلك الصيغة» ← } مقطع لاحق!

حين اصطحب آلته، دون أمه، وحيداً، يتدرب على بعض الألحان الجديدة، وأوغل في الغابة، توغّل إلى بقعة لم يكن قد وصلها من قبل، وكان شارداً، ساهياً، يسير دون هدف،

ما هو الهدف؟!

يطلق ميلان كونديرا روايته، عن طريق الأسئلة، تلك التي ترجمت بـ الكائن الذي لا تحتمل خفته، ولو كان كونديرا كاتب هذا العمل، لكتب كما ورد قبل سطرين: ما هو الهدف؟!

ولقام كونديرا بتقديم عدة تعاريف، جديدة، مبتكرة، عن الهدف.

وبمقاربة كونديرا، نقول: الهدف هو شيء، تتوقف عن السير فجأة،

مقتنيات الكوكب العاشر

حين تحسّ بأنك لست في الطريق إليه، فهل الهدف هو الطريق، الخطة، التكتيك بلغة الجيش، والاستراتيجية بلغة العسكر.

**الهدف إذن هو اتجاه، سهم دلالة نحو ←**

أما أن يصبح الوصول إلى الهدف، عبر اللاهدف، فتلك عبثية لا يقترب منها كونديرا، ولكنها من المصادفات التي يؤمن بها شخص مثل ساباتو، كائن يؤمن بالأرواح، والعالم الماورائي الذي يطوفه الإنسان، ونحن لسنا من أنصار ساباتو، ولا من بنات العبثية، ولا نحاول تقليد كونديرا، لكن هذا ما حصل مع حرز، ففي لحظة اللاهدف، وجد الهدف بغتة، في الطريق إلى اللااتجاه، تحدّد اتجاهه في الحياة، وهنا يوافقنا الفكر الشعبي الذي لا نتفق معه، أنها قسمة الحياة، وجاء المقطع اللاحق، مصادفة، متفقاً مع ذلك الفكر، لنقول «نحن كاتبات هذا العمل»:

على بعد عدة أمتار، بوغت حرز، بمشهد لم يسبق له أن رآه بهذه الدقة، فكأنها لوحة تصوّر:

فتاة عارية، عري مطلق، عري جسدي، عري لغوي، عري فكري، عارية بشدة، وسط كساء الغابة ولبوسها.

جلس الشاب بين الأعشاب والحشائش، يرقب الفتاة العارية، التي كانت تستحم في عين ماء، تغازل جسدها بألفاظ نمتنع عن ذكرها، لأنها من ذلك النوع، الذي يتلفّظ به أحدهم، أو إحداهن، في الوحدة، ولا يمكنه ذكرها أمام الغير، ويخجل بشدة لو عرف أن ثمة من سجل أقواله / أقوالها.

منتديات الكوكب العاشر

كان غزلها، يأخذ طابعاً موسيقياً، لكن صوتها كان عارياً من الجمال، صوت نشاز فيه بحّة، وفيه تقطّع، ولكن فيه عري اللفظة.

لا نعتقد، ولا حرز كذلك، أن ثمة ارتباطاً بين العار والعري، لأنها آنذاك كانت تحس بالثقة، القوة، الأنفة، وهي بذلك العري المذهل، لجمال جسد لم يره حرز طوال مغامرتيه: التلصص، المباح.

جسد يبث في رائيه الرغبة في الحياة، فكأن اتفاقاً ذا صيغة ما، رأى أن يجمع بين ذلك الجسد، والموسيقى، ليدفع حرز للخروج من «تلك الصيغة».

منتديات الكوكب العاشر

ومن قبيل الحالة الجمالية، سوف ندرج ما اتفقنا عليه، نحن كاتبات هذا العمل، بعض المقاطع، بعد شطب المواقف المأزقية. إذ كانت تقول مستحمة، مخاطبة أعضاء جسدها:

«يا بطني الجميل، يا خافي رحمي، يا رحمي، يا دافئة أجنتي، فيكِ بُذروا، وفيكِ لُقحوا، وفيكِ سكنوا، وفيكِ تغذّوا. يا ردفيّ، يا بلاطتين من لحم دافئ، يا مخدتين من بلّور شفاف، لا يظهر الحرقة والنار، تمتّعا بالماء البارد، وأطفئا شهواتكما. يا مؤخرتي المستديرة كوجه القمر، يا مدوّرة، يا مكوّرة، يا سر الخليقة، يا سمينة، يا بدينة، يا زهرة الجسد، يا متّصلة به، يا مؤدية إليه، يا ملتصقة به، يا ساكنة خلفه، يا جارته، يا أنيسته، يا مقر جلوسي، واستنادي، وسندي، يا من تحملين ثقلي في قعودي، ويا فتنتي حين تهتزين في نهوضي، اغتسلي، وتعطّري، والمعي بقطرات الماء على وجهك المنقسم نصفين، بخط فاتن، يجعلك أجمل تكوين دائري، فتزيد فتنتك فتنة، يا مؤخرتي، يا مدبرتي، يا مخلّصتي».

وتمسح بيدها على ذلك الخط، المتّصل، المؤدي، الملتصق وتمتدحه.

صاعدة إلى نهديها:

«يا أعز الأصدقاء، من منكما أحب أكثر، سؤال أعجز عن الإجابة عنه، وأنتما أيضاً، مدوّران، مكوّران، مربوطان بعقدة تنغلق على كنوزكما.

استحما، تنظّفا، وأيتها العقدة الصغيرة، يا عنق الكيس الكنزي، احفظي كنوزك، ليلتهمها أبنائي القادمون إلى الحياة. يا نهد، يا سعد، يا سهد لمن يراك، يا من تهدّ من لا يطالك، يا وعد لمن يرعاك.

يا جيدي، يا جدار الزينة، يا من عليك أعلّق قلائدي وزهوري، يا من تقدّم وجهي الجميل إلى الناس، يا حامل وجهي ورأسي، يا جيدي، يا عيدي، يا فرحتي ونشيدي.

وتصب الماء على كل قطعة من جسدها، مغازلة إياه: شعرها، جبينها، شفتيها، ذراعيها، كفيها، ساعديها، قدميها».

«العش المش يا عيني عليه،

شافوه الناس وجنوا عليه،

ظنوه مرج أخضر وهجموا عليه،

مدوا بساط وجلسوا عليه،

يا سيدي، يا مسيودي، يا عبدي، يا معبودي».

تقفز في الماء، وكأنها إلهة ماء {عفواً من أرض}، كأنها زهرة لا

منتديات الكوكب العاشر

ينعشها إلا الماء، تحتفي بالماء، كاحتفاء عشيق متيّم بحبيبته، ترشق الماء حولها، يتطاير الرذاذ، تضربه بقدميها، فيصل حتى وجه حرز المختبئ، يستلذ برذاذ الماء المتطاير على جفاف وجهه، يرغب بالاستحمام، يقاوم، كي لا يفزع المحتفية بالماء.

كان ذلك المشهد أول تمثيل للفرح يراه حرز، فهو لم يسبق له أن رأى كائناً سعيداً، وكلما سُئل عن السعادة، أو سمع عنها، تذكر ذلك المشهد،

امرأة فرحة، تغني، تتحدث مع الطيور، الأعشاب، الماء، الملابس.

كانت تغازل قطع ملابسها، وهي ترتديها: «يا ساترة، يا باترة، يا فاترة، للسترة، وللسروال، يا قاسي، يا عاتي، يا حامي، يا راعي، وللجورب، يا رفيق، يا رقيق، يا صديق، يا شفيق».

وأخذت تجدل شعرها السنبلي الطويل، مغازلة الطيور المتجمعة لحضور مهرجان الفرح.

كانت تثرثر مدندنة، بنشاز، بكل ما لديها من كلمات:

من قال إني حداد، أنا فرح دائم، أنا أعشق الفرح، أنا ابنة، وربة الفرح!

أنا صانعة الفرح، أنا صدره، موطنه، منبعه.

الفرح أنا، وأنا الفرح، ولا يمكن لمن يلاقيني، ألا يحس بالفرح.

أنا والحزن ضدان لا نجتمع، حيث أحل أنا، يفل هو، وحيث يكون هو، أفرّ أنا.

منتديات الكوكب العاشر

ولماذا لا أكون الفرح، وما الذي ينقصني فيحزنني، أنا شابة، جسدي جميل، سأقدّم الكثير من الأطفال للحياة، وسوف يحبني رجل ما حتى العبادة، وقد يقع في غرامي عشرات الرجال، فلماذا لا أكون الفرح؟!

الفرح هو المرأة، والمرأة هي الفرح، يجب أن يدعوه هكذا: أيتها الفرح، يجب أن يكون الفرح امرأة، لأن المرأة تهب الفرح، حضورها، غناءها، رقصها، جسدها، حكمتها، أليست أرض ربة الماء امرأة، أليست هي من تشفي الأمراض والآلام.

المرأة هي الفرح، والفرح في نهايته: امرأة، والحزن في آخره، هو فقدان امرأة، المرأة هي: حب ـ حكاية ـ أسطورة ـ متعة ـ عطاء، أي: فرح!

الفرح هو أنا، وأنا الفرح، نحن تكوين واحد، الفرح وأنا، تقول أمي {متحدثة إلى جسدها الذي أنهت غسله، وارتدت ملابسها، وراحت تصنع زينتها، وتضع أقراطها وقلادتها. وهي تتحدث إليها، إلى أهم ما يهبها الفرح، جسدها الذي تحب، لا من حيث هو منح لذة، بل من حيث هو تكوين وجود، إنه الدليل الكبير على تواجدها وحضورها في الكون، أنها ليست فراغاً أو عدماً، أنها موجودة، وجسدها الموجود، الذي تغني له، وتغسله، وتثرثر له، وتناقشه، هو الدليل الأكبر على موجوديتها، أو وجودها} تقول أمي: أعتقد أنك مخلوقة من طين وفرح، أنك معجونة بالفرح، لقد ولدتك وأنت تضحكين، ولم أسمع صوت بكائك يوماً، ومنذ عرفتك، عرفت الفرح، وكل من جاءت لتبارك لي مولدك، أحست بأنك طفلة تدعو إلى الفرح، وسامحيني يا ابنتي لأني دعوتك بـ حداد، تلك قصة أخرى {لا تريد حداد، أو أنها تتجاهل على الدوام، ذكر القصص والمواضيع الداعية إلى الحزن}.

منتديات الكوكب العاشر

أحس حرز بالفرح، لكثرة ما سمع منها عن الفرح، وراح يبتسم وحده كأبله، وحمل آلته الوترية وراح إلى مكان يبعد عنها أكثر من المكان الذي كان يختبئ فيه، وراح يعزف وكأنه لم يسبق له أن كان موجوداً هناك من قبل، أو كأنه قد وصل لتوه، ولم يرها، أو يسمعها، أو،

وحين سمعت ربة الفرح، وابنته، صوت موسيقاه، انجذبت، كما انجذاب عناد لإغماء.

{هما رجلان، كالورد يجتذبان نحلاتهما، وكأن ثمة مشاهد في الحياة، تتكرر، مع بعض التعديلات}.

على صخرة قبالته، جلست مبتسمة، والمياه تنقّط من شعرها، والسعادة تنقّط من عينيها، إلى أن أنهى عزفه، فصفقت له، ونهضت منصرفة.

إلا أنه، حين غادرت، لم يغادره الفرح، وكأنه تجرّع منها شراب الفرح، فظل فرحاً لأيام، وأضاف شعوراً جديداً / عنصراً جديداً إلى تكويناته: السعادة بعمق!

ولكن ابنة الفرح، ربة الفرح، آلهة الفرح، لم تكن تعلم أنها ستجبر على تمثّل اسمها الذي وهبته لها أمها، لقصة تتجاهل حداد ذكرها، كي لا تصاب بالغم والحزن، ولكنها، ذات يوم، ستتوازن، إذ لا يمكن للحياة أن تقف على ساق واحدة، ساق الفرح، بل لا بد من الساقين معاً، إذ إنه، العبد الذي كان يشهد طقوس الفرح، يعرّف بأنه: {خليط، إناء، سوق} لذلك فهو صيغة تجمع:

منتديات الكوكب العاشر

١ ــ {جسد يبث في رائيه الرغبة في الحياة، فكأن اتفاقاً ذا صيغة ما، رأى أن يجمع بين ذلك الجسد، والموسيقى، ليدفع حرز للخروج من «تلك الصيغة» ← } مقطع سابق!

**٢ ــ حذرتك ألا ترتل هذا النشيد، فيسكن في ذاكرتك، يأسرك ويلعنك، يفتنك فيستحوذ عليك، ولا يكون لك منه فرار فيعدمك، وحيداً تموت وتشم رائحة رحيلك الأرض، ولن ينقذك من عذابك إلا عيد يأتي في ربيع يتلو رمادك. ←**

٣ ــ [**ما أطلبه منك**، هو استمرار دائم لنفي أثر الصيغة القديمة، «تلك الصيغة»، فأقول لك كلما انزلقت نحو تحقّق «تلك الصيغة»: **لا تفعـــل!**

أما **ما تطلبه مني**، فهو: أيتها الصيغة + تنهيدة طويلة! فيكون لك ما تريد] ←.

من مياه البحيرة، انتفخ بطن حداد، وانتظرت حدَثاً سعيداً،

ذلك الحدث الذي كانت تعد به رحمها، أثداءها، ذراعيها،

وحين أعلمته بذلك، أضاعته إلى الأبد، ولم تعرف، أو تتوقع، أن يضحّي بالفرح الذي تعلّمه منها، وانهمامه بجسدها، ذلك الذي، رغم ما عرف من نساء، لم يلتقِ بامرأة تعامل جسده، كما فعلت هي، إذ قبّلت حداد كل عضو من جسده، وأنشدت له نشيداً خاصاً به، أحلى وأمتع وأبدع من نشيدها لجسدها، فكأنها، حين لاقت جسده، أحبته، وألفته، كـ جسد جديد مُنح لها، أو أُضيف إليها، فصارت تملك جسدين: جسدها، وجسده!

منشورات الكوكب العاشر

كانت حداد تحك له ظهره حين يشعر برغبة، وقبل أن يطلب منها ذلك، وكانت تمسح العرق عن جبينه، وتفرك أصابع قدميه، وتدلك ساقيه، وتضرب على مؤخرته، وتداعب عنقه. كانت تدلل جسده أكثر مما دلّلت جسدها، وكأنه يخصها، أكثر مما خصّها جسدها.

كانت تتورد بالفرح حين تلمسه، ويمكن القول أنها لامسته أكثر مما لامسها، وأنها طبعت على جلده، ذلك الغطاء الرقيق، المزروع بالشعر، بصمات من أصابعها، وشفتيها، ورائحتها، وأنه، غفل، وسها، وتجاهل سيرها جيئة وذهاباً، طولانياً وعرضانياً، على جسده، بشفتيها، وأصابعها، وحنانها.

وهو، تلك الكتلة الخليطة، ذلك الإناء الذي أضرمت حداد تحته ناراً هادئة، فنضج كرجل، وكفّ عن شهوة الصبي، الذي يرغب في كل النساء، وصار يستلذّ في الاستسلام لتلك الكتلة العجائبية، ابنة، وآلهة الفرح.

إذن، هو: الخليط، الإناء، السوق، لم يعجبه مشهد بطنها المتورّم، فحمل أغراضه، واتجه ثانية، إلى عمه طُهر، وإذ قال له ذلك الصوت: لا تفعل، لا تذهب. فلم يطع!

في تلك الليلة لم:

يملأ الذباب المكان، وكأنه يتبع المجهضة، كما يتبع حرز طُهر كلما تأزّم، وما استقرت ذبابة فوق جبينها، فلم تطردها، ولم تسر بعوضة على خدها، فتلدغه، ولا تحكّ خدها حتى، وكأنها صارت جثة.

بل:

ملأت الفراشات الغرفة، كأن أرواح أرض وإغماء وعناد تتبع الجنين،

منتديات الكوكب العاشر

كما تتبع والدة حداد حكاية ابنتها، واستقرت فراشة فوق بطنها، فلم تطردها، وتفاءلت خيراً، واقتربت ذبابة من خدها، فهشّتها الأم، وكأن حداداً صارت آلهة.

كانت حداد تفكّر هكذا:

هو ابن الحكاية، وطفلي ابن الأسطورة، حفيد أرض، المرأة التي طغت سمعتها على كل ذي سمعة، من ملوك وآلهة وسحرة وقادة، وحفيد إغماء، المرأة التي نُسبت إليها حكايات غامضة، وابن ذلك الرجل الذي أحبته، والذي عشقت جسده، كما لم تعشق جسدها، وهو ذلك النصف بشري، والنصف الآخر، لا يزال مجهولاً، ربما يكون ابناً لتلك الكائنات الأخرى، اللاإنسية.

هي إلهة إذن، أم لابن حرز، ابن إغماء وعناد، ابن أرض وحرث، تلك الأسماء المتسلسلة التي أثارت أسئلة وخيالات، وسلّت وحدة الناس، وتناقلت الألسنة حكاياتهم وحقائق مولدهم ونشأتهم وقدراتهم وعلاقاتهم..

سألتها أمها عن الحكاية، الفراشات البيضاء التي ملأت الغرفة، واستقرّت على الجدران تحمي بطن الصبية، وروت الصبية «حداد» الحكاية:

حين كانت تستحم في البحيرة، في المكان الذي كانت إغماء تغسل فيه الثياب، وعلى أمها أن تعرف من هي إغماء {ثمة آراء متضاربة بين الأصل المبارك لإغماء، وبين الأصل الخسيس لها}، ودون أن تعرف حداد، تسرّبت إليها تلك الكائنات اللامرئية، التي تتبع إغماء، وتنساها إغماء خلفها أحياناً، فتتسلل إلى أرحام الصبايا، وتنتفخ بطونهن.

آمنت أم حداد، بأن مياه البحيرة مليئة بكائنات تلقّح البنات {ثمة مقولة لا تزال شائعة، أن البحر معبّأ بقماقم من الجان} وكيف لا تؤمن، وهي ترى تلك الفراشات البيضاء، التي تحط على الجدران، ولا تتحرك؟ حبست أم حداد ابنتها، حتى آن وضعها. {أحسدها، ياه كم أحسدها! منذ طفولتي وأنا مولعة بالفراشات، تلك التي تُدعى «البشّارة» أي حاملة البشرى، وحتى اليوم، حين أصادف الفراشات ــ البشّارات، أحسّ بأني أنتظر خبراً ساراً، ولم أتوقع أن تؤثر في جملة أمي المتكررة، وهي تبصّر في فنجاني، منقّبة عن مستقبلي بين خطوط البن الجاف «جاييك عصفور وجايبلك خبر بيفرحك» إلى حد أنها رسّخت في عقلي فكرة أن العصافير هي المسؤولة عن نقل البشارة، وكم كنت أحلم أن تطوّر أمي لغتها، لتقول «جاييتك فراشة ــ أو بشارة، وجايبتلك خبر بيفرحك» ومن شدة ولعي بالفراشات، استطاعت تلك الفتاة أن تأسرني، حين أهدت إليّ ميدالية ذهبية، على شكل فراشة!}.

وحين شعر حرز، كعادته، بالملل، وغادر غرفته الصغيرة عند عمه طُهر، ولم يفلح، ذهابه الثاني، في اكتشافه لـ تلك الأنا، التي كان يبحث عنها، منقّباً بين عناصره، مفتّشاً في ذلك الإناء، متجوّلاً داخل ذلك السوق، محاولاً فرز العناصر، وتفريقها عن بعضها، عبر الموسيقى أحياناً، والكتابة أحياناً أخرى، والهروب إلى أماكن بعيدة، لتلقّي مغامرة ما، بعد أن اكتشف في تجربته مع حداد، كيف يكون الهدف؟ {ففي لحظة اللاهدف، وجد الهدف بغتة، في الطريق إلى اللااتجاه، تحدّد اتجاهه في الحياة.← } مقطع سابق!

وحين قرر العودة، قال له ذلك الصوت: **لا تفعل**، لا ترحل، ولكنه أيضاً، لم يطع، بل رحل!

منتديات الكوكب الحائر

إلى تلك الأمكنة الممتلئة بخوابي السحر، وآنية الحكايات، وصيغة كان يمكن الخلاص منها، رحل، إلى قلعة أبيه، حيث حطّ مجدداً عند إغماء.

ومن جديد، عادت تتّقد النيران تحت تكويناته، فتبعثرت خلائطه، وحمل آلته، وسار ليالي طويلة، شارداً بلا هدف.

وكأنه، حين يقرر أن يكون بلا هدف، يقع في الهدف.

ودون مقاربة لـ كونديرا، ولا نقد للفكر الشعبي، ولا تعبير عن إعجاب بـ ساباتو، سوف أقصّ ما حدث بطريقة غير فنية:

قالت له سيمياء: أنتظرك منذ سبعة أعوام، ثمة طير يأتي إلي في كل يوم، ومنذ سبع سنين، وقال لي: سبع سنوات تنتظرين، ثم يأتيك فارس من بني البشر، فتغادرين.

كان عمري أربعة عشر عاماً، وكنت في أول حيضة لي، حين جاء ذلك الطير لأول مرة، وكنت أعدّ الأيام على أصابعي، وأسأل الطير: كم بقي يا طير؟ فيجيبني، بحسب الوقت الباقي: ست سنوات وأحد عشر شهراً، ست سنوات وعشرة شهور وتسعة عشر يوماً، ست سنوات و،

كانت تكلّمه من نافذة غرفة عليا، لا يطالها سلم، وليس لها أبواب، ولا أسطحة، وكان جالساً وقد أتاه طريقه، لشدة ما سار دون هدف، فجلس عند جدار مسكنها، يعزف لها، وتحكي له عن أمها، ذات المنشأ اللاأنسي.

ثلاثة أيام، قضاها محاذياً ذلك الجدار، كانت تقذف له بالماء

منتديات الكوكب العاشر

والطعام، وفي الليلة الأخيرة، قالت له: غداً يا حرز، غداً تكتمل السنوات السبع، غداً حين يصبح القمر هلالاً، أكون قد أمضيت سنواتي السبع بانتظارك، فيحين وقت الرحيل، غداً نغادر معاً، وأتحرر من أمي، وأصبح لك.

لم يكن له أي اختيار، فالمسألة تقررت قبل سبع سنوات، وحينها لم يكن يعرف إغماء، والكثير من النساء، وحين غابت عنه سيمياء قليلاً، لتخلد للنوم، استدعى صيغته، وشاورها في الأمر، فقالت له: افعل إن رغبت، ليس لدي اعتراض!

وفي الصباح، حين كانت والدة سيمياء لا تزال في جولتها الطويلة، إذ تصعد المسكن، حتى غرفة سيمياء بخطوة واحدة، وتأكل البشر، وتشرب الدماء، أفلتت سيمياء ضفيرتها السوداء، ليتسلقها حرز، ويساعدها على تجهيز ما ستأخذ معها من أغراض: ملابس، أدوات زينة، وملأت كيساً بقشور البصل والثوم، وحين سألها مستغرباً عن أهمية ذلك، طلبت منه عدم السؤال الآن، ثم دهنت كل أغراض المنزل، بالثوم المدقوق، حتى الهاون / هاون دق الثوم، ومدت له ضفيرتها، لينزل، ثم هبطت بقفزة واحدة، ولاذا بالهرب، متجهين صوب القلعة، الثانية، قلعة عناد.

حين استدعاها، وفق الاتفاق، أيتها الصيغة + تنهيدة طويلـــة!، حضرت، فسألها: هل أساير هذه الصبية في خطفها من أمها، التي تأكل لحوم البشر، وتضطهد ابنتها بعزلها عن الكائنات، الآدمية، واللاآدمية.

فقالت له:

آمرك، فلا تأتمر.

منتديات الكوكب العاشر

أيها العبد إلى متى تحنث بوعدك.

تستسمحني وأغفر لك. ثم تحنث أيضاً.

آمرك، فلا تطيع.

ألا تدرك أنك تسير صوب رمادك!

: تأمرينني. فأقرر الطاعة، ولكنك لستِ أماً لتسامح، ولا أباً ليغفر، أنت فوق هؤلاء، فكيف لا تشملني سماحتك؟

: لتعرف أني لا أتخلى عنك. على ألا تتخلى عن نفسك.

: أكون كما تشائين. ألست أنت «الصيغة الجديدة» في التكوين، والحلف المختار في الصبا، والعمر الجديد!

: تقول ما لا تكون. اذهب معها الآن. وسأحميك.

: واهن أنا، ضعيف أنا، مشوّش أنا،

وأنت أيتها الصيغة الجديدة، والعقد الجديد، وحلف الأحلاف، أيتها القادرة على منحي، فهل تبخلين؟!

: أيها العبد الذي يذرف دموعاً،

أيها العبد الذي يذرف،

أيها العبد الذي،

أيها العبد،

أيها،

أنا قريبة، والطريق إليّ مسكونة بالأمان،

مدّ يدك وتناولني، وتطهّر من العصيان،

ملتديات الكوكب العاشر

أغفر لك ذنوبك، ونبدأ صفحة جديدة،

: أيتها الصيغة التي، مطابقة كنتِ ـ أظنك ـ للصيغة الأولى، تلك، فانفصلتما

وصرتما صيغتين، لكل منهما وظيفة، ورسالة، مناقضة للصيغة الأخرى،

أنت الآن ما اخترت، ولم يكن الاختيار ممنوحاً لي في بدء التكوين،

أنت علمتني، وأضفت الاختيار إلى هذا التكوين،

أنت الآن ما اخترت، فكوني لي،

هي اختارتني، فأبعديها عني، وكوني بجانبي.

: يا حرز، يا الكائن المشتت بين رفض وقبول، طاعة ومعصية،

اعتمد علي أخلصك، وتلك التي تظن مطابقة لي، لم تكن يوماً، معي متطابقة،

اذهب مع هذه المرأة يا حرز، انكحها، وأبارك لكما نسلاً ترى منه خيراً، وذرية تعرف السعادة، أيها الـ حرز الذي يجهل، وكأنه لا يرغب أن يعرف، أما عرفتني بعد، أقول لك:

أنا أقرب إليك من رأسك ومن ذراعك وساقك وأفكارك، أنا صيغتك الجديدة، صيغتك المختارة، أنا أنت، وأنا أنا، أنا وأنت شيء واحد، أنا وأنت نتطابق، فلا ننفصل، ونتقارب، فلا ننقطع، فاعرف الآن، من أنا، ومن أنت!

قالت له سيمياء: أنتظرك منذ سبعة أعوام، ثمة طير يأتي إليّ في كل يوم، ومنذ سبع سنين، وقال لي: سبع سنوات تنتظرين، ثم يأتيك

منتديات الكوكب العاشر

فارس من بني البشر، فتغادرين. {مكرر}.

وأخذها معه، وحين عاد برفقتها إلى قلعة أبيه، كانت حداد تضع، وكان أن فاجأها المخاض، في المكان الذي حملت فيه بذرة حرز في أحشائها، وكان أن قالت لأمها: سألد حيثما حملت، واستلقت جوار عين الماء، وقد رافقتها الفراشات البيضاء، تلك التي، لازمتها أشهرها الستة، منذ انتفخ بطنها، وبان أمرها، وانكشف حملها، ثم تبعتها / الفراشات، ترقب وضعها.

كانت السماء ترسل أسراباً من فراشات فضية، بلون ماء البحيرة، وظن الناس أن السماء تهطل فراشاً أبيض، حين يقترب من الأرض، ويسقط عليها، يصبح فضياً، بلون الماء، وما إن اشتد المخاض على حداد، وراحت تتعرّق من الألم، حتى أخذت الفراشات البيض تحطّ على وجهها، وترتشف العرق، وكانت الورود البيضاء، كالفراش، وورود الأقحوان الأبيض، تتطاول سيقانها، فتميل فوق وجه حداد، وتبلله بالندى، وتخفف عنها الحرارة، والألم.

كان الصباح في بدئه، ورائي المشهد عن بعد، أو قرب، يذهله المشهد، لكثرة البياض، بقعة اكتست بالبياض، حيث استلقت حداد جوار البحيرة، واستلقت حولها، وفوقها، مئات زهور الأقحوان البيضاء، وحامت هناك، فوقها، وعلى الأشجار، وعلى ضفاف البحيرة، أعداد لا تحصى من فراش أبيض، ولا تزال السماء ترسل تلك الأسراب المتدفقة من الفراشات، كأن نبع فراش انفتح من السماء، وتهاطل الفَراش كثلج.

صرخت حداد تلك الصرخة المدوية، صرخة القدوم، صرخة الإتيان، وإذ ذاك، ولا يعرف أحد كيف تركّبت الصورة على ذلك

منتديات الكوكب العاشر

النحو، دخلت إغماء المشهد، وقذفت يدها في الجوف السفلي للماخض، وأطارت الفراشات الهلعة، التي حطت على أغصان الأشجار والضفاف، ترقب المشهد، وابتعدت الورود، مفسحة الطريق لإغماء، وكلهم، ذلك الجمع الغفير من الفراشات والورود، ذلك المهرجان من البياض، أو مهرجان البياض، كله، كان هلعاً، منتظراً يد إغماء التي ستخرج بشيء ما!

وإذ سحبت إغماء الرأس، مدت أرض رأسها من نافذتها، ورأت المشهد: يد إغماء ممسكة برأس جنين، ومهرجان بياض يحيط بثلاثتهم / حداد، إغماء، الرأس الصغير. وزفرت مرتاحة، وقبل أن تعود برأسها إلى الداخل، انتبهت إلى أنينه، مستلقياً تحت نافذتها «اهدأ يا ولدي، اليوم تبدأ ذريتك حكاية التعاسة، أما حذّرت ألا يُرتكب فعل آثم. آه، لن تعرف هذه الذرية السعادة».

حملت إغماء الطفلة، وتبعتها حداد، لغسلها من ماء البحيرة، إلا أن سطح البحيرة / وجه الماء، كان مغطّى بطبقة بيضاء، ومدت المرأتان أيديهما، لإخراج جثث الفراشات المنتحرة، قالت حداد: الفراش يلحق الضوء، لا الماء، لماذا يموت الفراش هنا؟!

وقالت إغماء غاضبة: إنها العجوز القذرة أرض!

كانت إغماء المنفعلة، قد تركت الطفلة قرب حافة البحيرة، وأخذت تعبئ كفيها بالفراشات البيضاء، وترميها نحو الخارج، وكانت حداد تساعدها في تنظيف الماء، لغسل الصغيرة، وحين فرغن من عملهن، استدرن، ليجدن الطفلة مغطاة بطبقة من بياض، إذ كن يرمين الفراشات الميتة، فوق كتلة اللحم الطازجة، وكانت تلك الكتلة ساكتة، ساكنة، وكأنها ملاك يرتدي ثوباً أبيض، مزركشاً بالفراشات. وكانت تحملق بتلك الخرزتين الزرقاوين في وجهها،

منشورات الكوكب العاشر

مذهولة بالمشهد البدئي الذي تراه.

في العام ذاته، ولدت المرأتان، إذ بعد أن أنجبت حداد طفلتها على ضفاف البحيرة في بداية ذلك العام، أنجبت سيمياء صبياً في نهاية العام ذاته.

وفي منتصف ذلك العام، بين ولادة الطفلين، جاءت جدار!

{جسده يبث في رائيه الرغبة في الحياة، فكأن اتفاقاً ذا صيغة ما، رأى أن يجمع بين ذلك الجسد، والموسيقى، ليدفع حرز للخروج من «تلك الصيغة»}

{: أيها العبد الذي يذرف دموعاً

أيها العبد الذي يذرف،

أيها العبد الذي،

أيها العبد،

أيها،

أنا قريبة، والطريق إليّ مسكونة بالأمان،

مدّ يدك وتناولني، وتطهّر من العصيان،

أغفر لك ذنوبك، ونبدأ صفحة جديدة}

{أنتظرك منذ سبعة أعوام، ثمة طير يأتي إليّ في كل يوم، ومنذ سبع سنين، وقال لي: سبع سنوات تنتظرين، ثم يأتيك فارس من بني البشر، فتغادرين.} ← مقاطع متكررة، سابقة، ولاحقة!

علمت حداد بعد وضعها، أن حرزاً قد عاد إلى القلعة يصحب

منتديات الكوكب العاشر

عروساً من الجان، وحوّلت اسمها من سيما إلى سيمياء، وعلمت أيضاً، أن العروس تعدّ في أحشائها كائناً جديداً يحمل ملامح أبيه، حرز.

واختلطت العلوم برأس حداد، تلك التي لم تعشق يوماً سوى جسدها، فعشقت أكثر منه، جسده، جسد حرز، وأصيبت بنكسة عشق مدمرة، ورأت الطفلة ذات الخرزتين الزرقاوين في وجهها، تحملق فيها بذهول، ساكتة، ساكنة، لا تبكي، ولا تطلب إرضاعاً، وكأنها تريد فقط، ذراع ذلك الجسد الذي احتضن أمها، وزرعها في أحشائها.

وكان الفراش الأبيض يحوم على الطفلة، فيشوّش ذاكرة الأم، والذاكرة القادمة، لابنتها غياب!

وكان أن نسيت حداد أمر الفتاة، وظنت أن ما حصل معها حكاية من مجموع ما تسمع من عشرات الحكايات كل يوم، ترويها إغماء، وأرض، وأخريات، وتنتشر في البقاع والأصقاع، وكاد الفراش الأبيض، والصغيرة، يموتون جوعاً، حين أفاقت حداد ذات صباح، فلم تجد الفراش الأبيض، ولا اللفّة الصغيرة، وآمنت بأنّ ما حدث كان كابوساً مرعباً، وأنها لم تنزف نقطة دم واحدة، ولا تملك سوى حقيقة واحدة: عشقها لحرز!

ولـمّا دخلت أم حداد غرفة ابنتها، ولم ترَ الحفيدة الجديدة، آمنت بأّن تلك إرادة إغماء، وكائناتها اللامرئية، التي اتّخذت حداد أداة لأغراض لا يفهمها البشر، إذ يحبّلون امرأة ما، ثم يولّدونها، ويأخذون الوليد المُختار، ربما، هي وسيلة لاستمرار نسلهم، وهنا كفّت تلك المرأة عن الدخول في الحكاية، وعادت حداد تغازل

منتديات الكوكب العاشر

جسدها، وتستحم في تلك البحيرة.

«العش المش يا عيني عليه،

شافوه الناس وجنوا عليه،

ظنوه مرج أخضر وهجموا عليه،

مدوا بساط وجلسوا عليه،

يا سيدي، يا مسيودي، يا عبدي، يا معبودي».

أما هو، حرز، فقد بنى قلعة مقابل القلعتين، وفاقت قلعة أبيه، وقلعة جده، وعرف أهمية كيس قشور البصل والثوم، الذي، حين أفرغت سيمياء محتوياته على الأرض، تحوّل إلى قطع ذهب وفضة، اشترى بها حرز أثاثاً، وبنى قلعته، فكانت القلعة الثالثة!

: أيها العبد الذي يذرف دموعاً،

أيها العبد الذي يذرف،

أيها العبد الذي،

أيها العبد،

أيها،

منتديات الكوكب العاشر

## لمحـة عن كاتبات العمل ج ج م:

في بداية الفصل الثاني، كان ثمة سبع أو ثماني صفحات تدور حول شخصية جوزفين، وحين كنت أعدّ المسودة الأخيرة، أو

المبيّضة، وكانت نافذة الغرفة مشرعة، فوجئت بتيار من هواء، يدخل، وينتقي الصفحات التي أقف عندها، ويحملها دفعة واحدة، فتطير من النافذة، كفراشات بيضاء!

ولأن شخصية جدار باتت معروفة في الرواية، ولأن سيرتي ليست مهمة فنياً هنا، فإني أجد من الضروري التلميح عن جوزفين قليلاً، رغم صعوبة الأمر، لأن ثمة أشخاصاً، يصنعون أعمالاً هامة ـ بعيداً عن التقييم، سلباً أو إيجاباً ـ دون أن يعرفهم أحد، ولأن ثمة شخصيات، يكون التحدث عنها أمراً بعيداً عن إمكانية الإحاطة بها، فأنا لا أعتقد أن جميع أعمال كافكا، قد أبرزت كافكا، أو أن أعمال دستويفسكي، أو نيتشه، قد فعلت ذلك، ولا أعني أبداً أن جوزفين من أولئك الأشخاص، بل أعني أنّ من الصعوبة تكثيف شخصية ما، في سطور قليلة، تحت عنوان: لمحة عن كاتبات العمل ج ج م، لذلك، فإني سأتطرق فقط إلى اللقاء الذي جرى بيننا، أو شبه اللقاء، إذ كان شيئاً فوضوياً، لا عقلانياً، غير مفهوم، مشتتاً، مشوّشاً، مشوِّشاً. إذ ما إن مدت جوزفين يدها لتقدّم لي المسودة الأولى من الرواية، وما إن نظرت عميقاً في عيني، حتى انتابني إحساس بأنّ هذه المرأة تُدعى «أرضاً»، ولم أكن أعرف شيئاً بعد عن أرض، أو الرواية، وحين قدّمتني إلى ابنتها الشابة، التي، وهي تصافحني، مررت إلى باطن كفّي ورقة، خلسة عن والدتها، نعم، حين جلست الشابة وسطنا، عابثة بشعرها الطويل، الشديد اللمعان، والذي كانت تخرج منه فراشات ملونة كلما مررت أصابعها بين خصلاته، وكانت تنفض شعرها وتُرجعه إلى الوراء بغنج أنثوي، مفسحة الطريق لعشرات الفراشات للمرور، أكانت تلك الفتاة جدار، أم حداد؟ أم ابنتها غابرييلا كما قدمتها لي؟!، المهم أن تلك المرأة الخمسينية، جوزفين، التي لا تُدعى كذلك، بل اختارت ذلك

منتديات الكوكب العالمي

الاسم لسببين: الأول أن فتاها الأول كان يُدعى جوزيف، والثاني، أنها فُتنت طويلاً بجوزيف ك، بطل فرانز ك.

لا أعتقد أن جوزفين تشتغل بالسحر، كما قال لي البواب، ولكن ما حصل في نهاية اللقاء، وبعد اتفاقنا على قيامي بإنهاء الرواية، وطباعتها، أنها بدت أمامي فراشة كبيرة، أخذت تصغر شيئاً فشيئاً، إلى أن أخذت حجم فراشة فعلية، وطارت تلك الرو.. عفواً، الفراشة، ملتصقة بالثريا المعلقة وسط الغرفة، وحين رفعت بصري نحو الثريا، كانت محاطة بفراشات ملتصقة بالضوء، تلمع كأنها ضوء آخر!

أما تلك الورقة، فما إن وصلت إلى منزلي، حتى فقدت مادتها الورقية، والتمعت بين كفّي، ميدالية ذهبية، نُقشت عليها العبارة التالية، وفعلاً، فقدت الميدالية في مكان ما، كانت العبارة:

**[حذرتك ألا ترتل هذا النشيد، فيسكن في ذاكرتك، يأسرك ويلعنك، يفتنك فيستحوذ عليك، ولا يكون لك منه فرار، فيعدمك، وحيداً تموت وتشم رائحة رحيلك الأرض، ولن ينقذك من عذابك إلا عيد يأتي في ربيع يتلو رمادك]**

استطاعت نجمة إقامة علاقات ناجحة مع كل نساء أعمامها، فكانت تقضي أوقاتها متنقّلة من واحدة إلى أخرى، فتعلّمت من بيداء فنون التطريز، والطهي والمآكل من أعباء، والموسيقى والغناء من إغماء، والزراعة والاهتمام بالورود والنباتات من سقاء، والاهتمام بزينتها وأناقتها وحليّها من احتواء، والأنوثة من أمها سماء، والدقة من خالتها وزوجة عمها، مساء، والطيبة من أسماء، والذكاء والحيلة من أشياء.

منتديات الكوكب العاشر

لقد جمعت نجمة فنون نساء أعمامها اللواتي لا يمكن تعدادهن، لأن بعض الأعمام، طلّق، وتزوج، وبعضهم، تزوج لأكثر من مرة {انظر الدليل}، وكما جمعت نجمة فنون النساء، فقد استطاعت أن تحتوي، وتتعلم، فنون الرجال.

إذ تفنّنت نجمة، بتجميع عدد من الرجال حولها، دون أن يعرف أحدهم بوجود آخر، وظن كل منهم، أنه الوحيد في حياة تلك المرأة، الـ {جميلة ـ ذكية ـ طاهية ـ مدبرة ـ مغنية ـ راقصة ـ مطرزة ـ حكيمة ـ قاسية ـ رزينة ـ مولدة}، كيف لا وهي الحفيدة المباشرة لأرض، وابنة أخ رؤية، ذلك الذي رأى فيها ما رأى، فسارع في تنمية ما رأى، ورأى فيها تعويضاً عن فشل رؤياه في حرز، فكان حرز «الرائي الملعون» وكانت نجمة «الرائية المقبولة»، نجمة تلك، هي التي، وفي منتصف العام، وبين ولادة الطفلين، قبل سيمياء، وبعد حداد، جاءت بجدار!

تولى تربية نجمة شخصان، اختارتهما هي، حين لاصقت إغماء كما تُلاصِق الأم، وحين تبعت رؤية كما يُتبع الأب، فكانت نجمة تسطع في سماء رؤية القادمة، وتأفل من سماء إغماء، القاحلة.

أما ما كان من أمر غياب، أنه بعد أن أهملتها أمها وجدتها، باعتبارها جزءاً من حكاية تمّت، أو لم تكن، فقد أرسلت أرض، مجموعة قطط بيضاء، بعيون زرقاء، كعيني غياب وحرز، فسحبت القطط تلك اللفّة الصغيرة، ووضعتها أمام بوابة زوابع.

لم تكن أرض تريد التدخل، لكن مصير الطفلة كان في خطر، ولم

منشورات الكوكب العاشر

تستطع أرض مقاومة تلك النظرة الصادرة عن خرزتين بلوريتين زرقاوين، كعيون الدمى، وهما تحدقان في الأشياء، بذهول الكبار.

زوابع، وبعد أن مات شقيقها الأستاذ ظهور، ظلت وحيدة، وكانت تتضرّع إلى أرض ليل نهار، أن ترزقها بالذرية،

حين وجدت الطفلة أمام بوابتها، أخذتها، واختبأت بعيداً عن العيون، إلى أن أصبحت تلك الطفلة، التي تحمل بوجهها خرزتين زرقاوين، محرك هذه الرواية.

من هنا، من غياب، تبدأ الرواية.

يستطيع القارئ الآن، الاسترخاء، من ضجيج الأسماء والأحداث، قبل أن يدخل إلى الفصل الثالث، لأنه بعد أن كان الفصل الأول، هو التعريف بالأسماء / أو الأشخاص، وجاء الفصل الثاني للتعريف بالأحداث، سنبدأ في الفصل الثالث بالرواية، وكل ما سبق كان تمهيداً للرواية، التي تبدأ الآن، شدّوا الأحزمة، سنقلع في الصفحة التالية.

منتديات الكوكب الواثر

# الفصل الثالث

## بداية الرواية

منتديات الكوكب العاشر

□ حذرتك، يعدمك، تموت،

□غياب تبكي متوسلة: لكنك!

آمرك، فلا تطيع، إلى متى تحنث بوعدك؟

□مستبدة، ظالمة، أفلا تندمين على الشر الذي بي توقعين؟

□أيتها «أقيم عهدي بيني وبينك، وأكثرك كثيراً جداً»[١] وأعطيك ذاتي «ملكاً أبدياً»[٢] «بذاتي أقسمت»[٣] أن أكون لك، كما تكون لي، كما تكون أكون، ميثاقي لا أخون، وعهدي أصون، كلما

---

(١) **تكوين**: ١٧–٢.

(٢) **تكوين**: ١٧: ٧–٨.

(٣) **تكوين**: ٢٢.

كنتَ لي، كنتُ لك، لا أنا أخلّصك من ظلم الصيغة الأولى، ولا هي، تلك الصيغة، توقع بك الشر، وكل ذلك آيل إليك، فكن أنت كما أنت، كما صرتُ أنا أنت، ألا تعرف، اعرف إذن، أني أنت، وأنك أنا

□ لماذا عن أخطائي تحاسبينني، وبعذابي تفسدين الأرض، أيتها الأرض، ألا تكفّين؟!

□ أقبلت عليك، حذرتك، وبميثاق جديد آزرتك، قدمت صيغتي إلى جميع أبنائي، فمنهم من قبلها، فعمل بها، ومنهم مع رفضها، فعصاها، لقد تلوت صيغتي على الجميع، فلماذا أنت بالذات لا، حقّت عليك اللعنة!

□ هل فعلتِ معي، ما فعلتِه مع جدار، هل جلستِ إليّ تشرحين؟

□ أما وثّقتك بميثاق جديد، أكنت تريد أن أوثّقك بقيود من حديد، تركتُ لك بعضاً من اختيار، فلماذا ترمي باللوم كله علي، أما مُنحتَ عقلاً لتفكر، وبه تتدبّر، فلماذا لم تلتزم؟!

□ أعفيتِ غيري مما لم تعفيني منه، أكان غيري أكثر تفكّراً وتدبّراً!

□ أعطيتك ميثاقاً لم أمنحه لأحد، أكان لغيرك ما كان لك.

□ لم أكن أريد الميثاق، لقاء أن تعفيني من تلك الصيغة.

□ تلك الصيغة لم تكن من صنعي، لقد صاغتها «ذاكرة»، تلك المرأة، ليلة زفافي، فلماذا تذنّبني، لقد تلوتها على الجميع، فلماذا تتطوّع أنت فتؤمن؟

مستنبات الكوكب الطائش

ثرثرا، تعاتبا، رفضت، رفض، لم يقرّ أحدهما بذنبه، وكانت تتدخل «الصيغة الجديدة» المقحمة في عتابهما، والتي لا تعدّ ذاتها تابعة لأحد، أكثر مما تبعت حرز «كما تكون أكون، وكما تريدني أن أكون، أكون»، وكان لا بد من اختلاط الصور، بكاء غياب، توسل شمس، نظرات إغماء، سخرية جدار، ملاحظات طُهر، تلميحات رؤية. كان لا بد من تلك الصور أن تتداخل، بعد أن بدأ القائد المستلقي على سرير القش، المتّقد، بدأ بالاستسلام الفكري، وتسليم تفكيره للألم، ونوبات إغماء جديد عليه، واللاقدرة على شيء، لا الانسحاب ولا الاستمرار.

لا يمكن الجزم بدقة، فيما لو أنه رغب أن يوقف كل شيء، ولكنه أمل للحظات، أن يدخل عليه أحد، ليطفئ النار، فيبدأ بداية جديدة، بعد أن فهم ـ عبر هذا الاستلقاء، طوال زمن القصّ ـ تداخل الصيغ، ولكن، كما كل الأشياء التي لا تأتي في أوانها، أو لا تأتي أبداً، علماً بأنه ما من أحد ظن أن شيئاً أتاه في موعده، وعلماً أن ما من شيء يأتي في موعده، كما أنه ما من أحد يقرّ بأنه حصل على شيء في أوانه، كما أنه، في حقيقة كل واحد، لا يرغب أحد، أن تأتي الأشياء في أوانها، كما ذلك التفاوت بين الحدوث، وزمن الحدوث، كان فهمه لتلك الصيغة، في غير أوانه.

وكان الوقت الآن، يجبر حرزاً، الذي جمّدته إرادة الراوية الأخيرة، لاحتمال الاحتراق، وإيقاف موته، أو خلاصه، إلى نهاية الرواية.

كان عليه أن ينصاع لصيغة الرواية، كصيغة ثالثة، جاءت لا تفيده، وتضرّه قليلاً، لاضطراره للانتظار، وكأن الانتظار، عقاب فرضته الراوية، يقبله حرز، لا مجبراً، بل، كرغبة ضمنية، في أن تكون الصيغة الثالثة، الرواية بصيغتها النهائية، أكثر قدرة على منحه

منتديات الكوكب العالمي

خلاصاً لم تقدمه الصيغتان، لا الأولى السابقة له، لوجوده في الحياة، ولا التالية، المصوغة له، المصنوعة لتخليصه!

وضمن هذا الميثاق الجديد، بيني وبين حرز، الذي لا يكف عن تصديق المواثيق، لأن جانبه غير الواقعي، يدفعه للتصديق، أجد أنّ عليّ الإسراع في الكتابة، فقد نتّفق، أنا، وجدار وجوزفين، على صيغة نهاية، تقدم غفراناً لحرز، أليست الكتابة شكلاً من أشكال الخلاص، والفن أحد أشكال التخليص؟! إذن:

كانت الشمس تفتح بواباتها على الغرفة، فيندفق النور والضياء لملء الغرفة، وكانت سيمياء، تذوي كضوء يخفت، من الألم، وبغتة، أحست بأنّ الضوء قد انطفأ، فكأنها غابت، أو انخطفت.

فقدت سيمياء الرؤية، حين سقطت الشمس في عينيها، فكأنها خرجت من خلف بواباتها، لتقبع فوق عيني سيمياء، وأحست سيمياء بارتياح وانزياح عن المكان، وعن الألم، إذ حدث أمران معاً: وقعت الشمس في عينيها، وانزلق الجنين من أسفلها.

فكأن الشمس، حين سقطت في عينيها، دفعت الجنين، وأوقفت الألم، وحين اندلق الجنين إلى الخارج، خارج الرحم، قررت تسميته بـ شمس، وإهداءه للشمس، وكانت المرأة، وحيدة تلد، إذ كان حرز خارج القلعة، وحماتها تائهة في جولات تقضيها بين عالمين، علوي وسفلي.

كانت وحيدة تماماً، مع الشمس، التي أوقعت أشعتها في عيني الماخض، فأوقفت الألم، فوضعت تلك، جنينها دون ألم.

منتديات الكوكب العاشر

حملت سيمياء الجنين المصبوغ بالدم، ولا تزال آثار الولادة على الأرض، ولا يزال الجنين معلّقاً بذلك الحبل المشدود إلى أحشائها، حملته، واتجهت صوب الشمس قائلة: إليك، أيتها الصديقة المباركة، أهدي طفلي، وباسمك أسميه، شمس، فاعتني به يا شمس، اعتناء الأم بولدها! وهمست بأذنه «لتكن شمساً»، ثم فتحت ساقيها، ليدخل بعض الهواء البارد إلى حيث كانت تتّقد رحمها كجمرة نار.

وإذ دخل عليها حرز، مع ذهول، وجداها تسبح في دماء الوضع، وما سمع منها سوى أن قالت: سمّيته شمساً!

وذهلت ذهول بالمشهد الذي رأته، إذ كان رأس الصبي ملتهباً كالشمس، وحين وضعت ذهول يدها على رأسه، احترقت، وسقط عنها جلدها على الفور، وكانت رحم سيمياء ملتهبة، محمرّة، وكأنها فرن احترق من أشعة رأس الجنين، المشعة، المحرقة لكل ما تمس، كطاقة حقيقية، تحتشد بالضوء، والإحراق!

وتأكد لذهول اسمها من خلال الذهول الذي ركبها، صاحت به: ما هذا الذي أرى، أفران، احتراق، أضواء.

وكان حرز قد جاء بذهول لتوليد سيمياء، وحين صار الصبي بلا أم، أبقاها حرز معهما، لتربي الصغير بعد أن فقد أمه.

في صبيحة اليوم التالي رحل حرز رحيلاً دام سنوات طويلة، خال بعدها أنه لن يعود، إذ،

حين ملأ الذباب المكان، إلى أن: كأنه صار جثة، صرخت أرض، فدوّى الجبل.

منتديات الكوكب العاشر

رحل حرز حاملاً رائحة أبيه معه، تلك الرائحة التي لم تكن من عناق الوداع، ولا من قسوة الفراق،

تلك الرائحة، التي جعلته لا يُعرف للماء سبيل إلى جسده، بعدها،

رائحة تشبه رائحة الدم المتخثّرة على السكين،

تلك السكين التي انوجدت في صدره،

صدره الذي حين ملأ الذباب المكان،

في قلب ذلك المكان. حين اجتمعا قبل الوداع.

ما استحمّ حرز بعد ذلك الوداع، الذي كان دون عناق، ولا يحمل قسوة الفراق، بل كان شيئاً من خرق جديد للميثاق.

حذرتك ألا تفعل، بميثاق جديد آزرتك. فلماذا بوعدك تخنث؟!

لكنه عاد، بعد أن سكنته تلك الرائحة، عاد، حين تزوج من سيمياء، ولكن، حين، ومن جديد، وثانية:

ملأ الذباب المكان، وكأنه يتبع القتل، كما يتبع الفراش الأبيض جنين حداد، استقرّت أشعة الشمس فوق وجه سيمياء، فلم تحرك وجهها، وحطّت سنونوة صفراء على جبينها، فلم تحرك يدها لتهشّها، وكأنها آلت إلى رماد.

بكى الصغير، فطارت السنونوة الصفراء، ومالت الشمس نحو الغياب،

وحملت ذهول، بذهول يفوق اسمها الذي حملته لأكثر من أربعين

منتديات الكوكب العاشر

عاماً، حملت الجنين، قمّطته، بعد أن غسلته، ومن ثديها أطعمته.
بينما هو، وفي صبيحة اليوم التالي:

بعد أن ملأ الذباب المكان، للمرة الثانية في حياته.

رحل هذه المرة، وخال أنه أبداً لن يعود!

«أقيم عهدي بيني وبينك، وأكثرك كثيراً جداً» وأعطيك ذاتي «ملكاً أبدياً» «بذاتي أقسمت» أن أكون لك، كما تكون لي، كما تكون أكون، ميثاقي لا أخون، وعهدي أصون، كلما كنتَ لي، كنتُ لك، لا أنا أخلّصيك من ظلم الصيغة الأولى، ولا هي، تلك الصيغة، توقع بك الشر، وكل ذلك آيل إليك، فكن أنت كما أنت، كما صرتُ أنا أنت، ألا تعرف، اعرف إذن، أني أنت، وأنك أنا.

عثرت المتسولة زوابع على الطفلة أمام بوابتها، تلك الطفلة التي تحمل في وجهها خرزتين زرقاوين، أخذتها، وأخفتها عن العيون.

كان قد أصابها الخرف منذ سنوات بعيدة، فهي، ورغم غناها وثراها، كانت تتسوّل الطعام والمال، مصابة باضطرابات عقلية، تظن من خلالها، أنها فقيرة ومحتاجة، لا تملك طعاماً ولا نقوداً ولا مأوى، وكأن موت الأستاذ ظهور، شقيقها، وعدم استقرارها مع زوج، وعدم إنجابها، قد أثّروا جميعاً على معرفتها، فأصيبت بخلل كبير، وكانت تظن أن ذلك المنزل الكبير، الواسع، كقصر، والمليء بكل ما يخطر للبال من أشجار مثمرة وخضار وبعض الماشية {بقرتين وثلاث نعاج وديك وسبع دجاجات.}، وكانت تتعثر بالبيض والصيصان والتفاح والبرتقال والجوز، كانت تظن أن ذلك كله، ملك لأشخاص غابوا عنه، وأنها تسكن فيه خفية عن سكانه، وكانت حين تهمّ بدخول المنزل، تتلفّت نحو جميع الجهات، لتتأكد

من أن ما من أحد يراها، وحين تلمح أحداً ما، كانت تنتظر عبوره، ثم تدخل.

ولدخولها المنزل طريقة طريفة، فهي لا تدخل من البوابة، بل قامت بحفر حفرة تحت السور، تتسع لعبورها، كانت تغلقها بأكياس وأوراق أشجار وجذوع نباتات حين تعبرها، دخولاً أو خروجاً.

كانت ترتدي ملابس مهترئة، وكانت تبدو حزينة وغاضبة على الدوام، وما كان يدهش سكان تلك البقعة، هو ذلك التناقض المضحك بين ملابسها، وحذائها، وعصاها.

تلك العصا التي كانت تتكئ عليها زوابع، حين تدور على البيوت، متسوّلة كسرة خبز، أو لقمة طعام، متكئة على عصاها بيد، وباليد الأخرى ممسكة بكيس من قماش، لا يعرف أحد من أين أتت به، ومن خاطه لها، كيس ذو ذراع متينة، تملأه بما تتسوله من خبز أو لحوم أو جبن أو فاكهة. كانت تملأ كيسها بالأطعمة، التي تزيد على حاجتها، إذ لم تكن تأكل إلا حين تكاد تسقط من الجوع، بل كانت الأشياء المتسوَّلة تتعفّن، وتتلف في كيسها ذي الرائحة المقرفة، وكثيراً ما تطوّعت النسوة، لتنظيف الكيس، رمي التالف، وملئه بالجديد والطازج، وكانت زوابع، رغم رائحتها النتنة، وثيابها الممزّقة، وحذائها المقطّع، وشعرها المشعث، تحوز محبة الأهالي وثقتهم، لأنها كانت صامتة على الدوام، مسالمة، تدق الأبواب بلطف، وحين يُفتح لها باب، تبتسم بوجه الفاتح، وتمدّ كيسها بصمت، وحين يطردها أحدهم، أو يغلق بابه بوجهها، كانت تستدير وتوليه ظهرها متابعة دأبها بصمت، دون تذمّر أو ردّ، وكان ذلك الطبع الصامت، يثير عطف الأغلبية ومحبتهم، وربما مالت إليها بعض النسوة معتقدات بسرّ ما يمكث خلف ذلك الصمت،

منتديات الكوكب العاشر

لامرأة يعرف الجميع ثراها وعدم حاجتها، وقالت بعضهن إن زوابع توفي نذراً لأرض، إذ كان من بعض النذور، التسوّل!

وقالت بعضهن، إن زوابع تعاقب نفسها على خطيئة ما قامت بها، وهي تتطهّر من خطئها بالتسوّل، وقالت أخريات، إنها، بتلك الطريقة، التسوّل، تتلصص على أخبار الناس، وتجمع القصص والأسرار، لتقدمها لطرف ما، خيّر أو شرير.

وكثرت الأقاويل، كما في كل مسألة، لا يلتقي رأيان، وصارت زوابع أمراً طبيعياً، بذلك التناقض بين ملابسها وعصاها.

كانت زوابع تتكئ على عصا من الذهب الخالص، ذات مقبض من الألماس الثمين، الذي يتلألأ تحت أشعة الشمس، وكأنه شموس متفرقة.

وكانت تلك العصا، أحد الأشياء المميزة التي يعجّ بها ذلك المنزل، منزل زوابع، من تحف وأثاث ومجوهرات.

وكان منزل زوابع، محاطاً بحماية غرائبية، لم يعرف أحد مصدرها تماماً، إذ، وفي كل مسألة، وفي جميع المسائل، تكثر الأقاويل، وتتعدد الآراء، وتكون أحياناً، جميع الآراء خاطئة، والرأي الصحيح لا يرد في جميع ما يرد.

ولكن الصحيح والثابت، أن بعض محاولات تمت من أجل تسلق السور، أو كسر البوابة، أو الاعتداء على زوابع بالضرب، لسرقة عصاها الذهبية ذات المقبض الماسي، أو سرقة مجوهرات العائلة، أو حتى من أجل سرقة نعجة أو دجاجة أو حتى بيضة.

صندوق الكوكب العاشر

إلا أن كل من حاول، تحلل، وتحول إلى حلول. كيف؟

الحكاية طويلة، والأمثلة كثيرة، ولا يتّسع المجال لذكرها هنا، وإلاّ، تمت طباعة كتاب عن «منزل زوابع» أو «الحماية الغرائبية لزوابع»، فحين دخل أحد المتشجّعين لسرقة عقد من الماس الخالص من خزانة زوابع، وُجد على الفور، بعد خروجه من المنزل، متسلقاً السور، وقد آل ـ على مرأى الناس ـ إلى كلب أسود بشع، يمسك العقد الماسي بأحد أطرافه الأمامية، ثم رأى الجميع، كيف طار العقد من تلقاء نفسه، كأن طيراً لامرئياً حمله وطار به، إلى منزل زوابع، ولكن لا أحد رأى أن العقد عاد إلى مكانه في خزانة زوابع.

وحين ضرب أحدهم العجوز زوابع، وأمسك بالعصا الذهبية ذات المقبض الماسي، تحول بغتة إلى جرذ بشع، هرب واختبأ بين ركام الحجارة والتراب، على مرأى الكثير من شهود العيان.

وحين تجرّأ ثالث، وتسلق شجرة الرمان، وفتح ثمرة رمان، وهمّ بالتهام حبّات الرمان اللامعة كأحجار زينة بهيجة المشهد، آل وحال بغتة، على مرأى رفاقه متابعي المشهد من فوق السور، آل وحال إلى قط أجرب يموء بذلّ، وقد سقطت ثمرة الرمان المفتوحة أسفل الشجرة، دون أن يبتلع منها حبة واحدة.

كأن ثمة كائنات لامرئية كانت تحرس المنزل، وتحميه، وثمة كائنات لامرئية تحلب البقرتين، وتملأ الحليب في زجاجات، تشربها زوابع كل مساء، أو ترميها خلف السور، وثمة كائنات لامرئية، تمنع تكسّر الزجاجات، فتصل سالمة إلى الأرض، وفي الطرف الخلفي للمنزل، إذ يعثر على زجاجات الحليب، الفقراء والمحتاجون، والأطفال، فقط.

منتديات الكوكب العاشر

حين عثرت زوابع في صباح ذلك اليوم على الطفلة أمام بوابتها، أخرجت مفتاحاً كانت تربطه تحت ثوبها، ولم تكن تستخدمه منذ وفاة شقيقها، وضياع عقلها، فتحت البوابة ذات القفل الصدئ، ودخلت رامية المفتاح في الهواء، لأنها لن تكون بحاجة إليه بعد ذلك اليوم.

ولم تكتفِ زوابع برمي المفتاح، بل ردمت الحفرة إلى الأبد، تلك الحفرة التي كانت تدخل منها، وكانت بوابتها الخاصة، تحت السور.

غسلت الطفلة، وأرضعتها من حليب بقرتيها، وتركت الطفلة تنام بوداعة، وكأنها لن تقلب الدنيا، وتقيم كل جالس عن جلسته، حتى تتسبب في منشأ هذه الرواية، إذ استلقى القائد على سرير القش.

منتديات الكوكب العاشر

استلقى القائد على سرير القش، المنهمك بالاحتراق، ثمة وقت قليل متبقٍّ لإنهاء هذه الرواية، مع انتهاء جسده، وتحوله كاملاً إلى: رماد.

«لا أعرف إن كان ثمة علاقة بين لفظتي ميثاق ووثاق، لقد حاولت الطاعة حسب الميثاق، للصيغة الجديدة، لكنني كنت أحس في كل ما تأمرني به، بأنها توثّقني، وأني مقيّد، وكنت ـ بقوة تفوق مقاومتي ـ أحنث بوعدي، وما إن أخرج من الأمر الذي أمرتني بمنعه، فلم أطع، حتى أندم على ما فوّتُّ، وأعتذر لها، واعداً إياها بطاعة عمياء» ← من الدفتر الشخصي لحرز!

«تكرر عهدك لي، أثق بك حسب ميثاقنا، فتخون الميثاق، وأثق بك مجدداً، وأمنحك الميثاق مجدداً، علّي بذلك منك أحميك، فتعرف

وذريتك السعادة، ولا يأتي عيد يتلو رمادك، بل عيد لإنهاء رمادك، ووقف احتراقك»

«كل ما أخشاه أن تتأخر في الفهم، فاعرف، ونادني باسمي أحمك أكثر، ولا أكن لك وثاقاً، ولا توثيقاً، بل، فقط، ميثاق»

«فما هو اسمك السري؟!»

«اعرفه يا حرز، وحينها تزداد ثقة بي، يجب أن تعرفني بنفسك، وتحرز اسمي، لتأتيني كما أتيتك، من تلقائك».

منتديات الكوكب الثائر

تزوجت زوابع سبع مرات، ولم تنجب من أي زوج من أزواجها السبعة، إذ حملت من سابعهم، وأسقطت في الشهر السابع، وحين عثرت على الطفلة، آمنت بأنّ أرضاً قد رأفت لحالها، وأرسلت لها بتلك الطفلة ، لتشبع زوابع رغبتها ـ المتأخرة ـ في الأمومة، ولتجد من يؤانس وحدتها، ويسلّي خلوتها.

وفي الليلة الأولى لعثور زوابع على الفتاة، وحين كانت الصغيرة مستسلمة لنوم لذيذ، بعد أن أرضعتها زوابع، وصنعت لها الملابس الصغيرة المناسبة لحجمها الصغير، وضمّت سرير ظهور إلى غرفتها، وغطّتها بشرشف أبيض موشّى بورود زرقاء، شاهدت زوابع المنام التالي:

الغرفة ذاتها، السريران كما هما في اليقظة، وكأن الغرفة على هذا النحو منذ سنين، لا منذ ساعات، فُتح باب الغرفة، ودلفت أرض نحو الداخل، وكان قد سبق لزوابع أن اجتمعت بأرض ذات مرة، من ضمن المرات الكثيرة التي ذهبت حاجّة لأرض، متضرعة إليها، لترزقها بالخَلف.

اتجهت أرض نحو سرير الصغيرة، أزاحت الغطاء الأبيض الموشّى بورود زرقاء، وانحنت فوق الطفلة، وقبّلتها من عينيها الزرقاوين بشدة، وكانت الطفلة تبتسم بوجه أرض، وكأنها أمها، ثم اتجهت صوب سرير زوابع، وجلست جوارها قائلة «إنها تُدعى غياب، من سلالتي، أعتني بها حتى تكبر، أترُكها أمانة عندك»، ثم فُتح الباب ثانية، ولم ترَ زوابع أرضاً وهي تغادر، وكأنها تسللت من جدار ما، أو طارت، أو كملح، ذابت.

وفي صبيحة اليوم الأول، حين اقتربت زوابع من سرير غياب، رأت الابتسامة ذاتها بوجه الصغيرة، ولم يسبق لها أن رأت تلك الابتسامة في اليوم السابق، ولاحظت لمعاناً غريباً في الخرزتين الزرقاوين، فكأن قبلة أرض فوق العينين، منحتها شيئاً غير عادي، شيئاً من بريق، وتفسير!

فأما البريق، فكان ذلك اللمعان غير العادي، اللمعان الذي يقع في عين الناظر، كشعاع نور،

وأما التفسير، فهو تلك الصورة التي تنطبق في عينيّ غياب حين يرغب المرء القلق، المضطرب، المتأزّم، الحائر، في تفسير. وسوف يتم التفسير في الصفحات القادمة.

ويمكن القول، وآمل أن يتم تصديق ذلك، أنه في صبيحة المنام، حين نظرت زوابع في عينيْ غياب، لم تصدّق المشهد الذي رأته، فانصرفت مضطربة إلى المرآة، تتأكد مما رأت، إلا أنها لم ترَ في المرآة سوى وجهها هي، زوابع، وأما الصورة التي ارتسمت فوق الخرزتين الزرقاوين، فقد غابت.

منتديات الكوكب العاشر

وحين كررت زوابع المشاهدة، ونظرت مجدداً إلى الخرزتين الزرقاوين، ابتسم لها مجدداً، الوجه المرسوم فوقهما، كان وجه أرض!

ومنذ صبيحة المنام، استعادت زوابع معارفها التي ضيّعتها قسوة الظروف، فها هي زوابع تحصل على طفلة تؤنس وحدتها، وتسلي خلوتها، طفلة من نسل أرض، تجتذب أرضاً إلى غرفتها في المنام، وتقبع في عيني الصغيرة الزرقاوين كخرزتين، في اليقظة، وكأن زوابع، إذ تنظر إلى الصغيرة بعين الرعاية والرحمة، تحمل وجه أرض، وتصبح إحدى المكرّمات، المؤلهات، ذوات القدرات الخارقة، مثلها، مثل أرض.

استعادت زوابع معارفها الضائعة، وعادت تلك المرأة الرصينة، إلا أن لا أحد رآها منذ ذلك اليوم، منذ أن رمت المفتاح، وردمت الحفرة، وقبعت إلى الأبد خلف البوابة، حيث لن تخرج منها بعد ذلك اليوم، ولكن كل ذلك، لم يغيّر من ملامح زوابع الحزينة، فهي، ورغم الطفلة، حلمها الأزلي، وزيارة أرض في المنام، ووجهها في اليقظة / التكريم الأبدي، إلا أنها كانت تشعر على الدوام بحزن تعرف مصدره، وتدرك أن من يقول إنه حزين دون أن يعرف السبب هو شخص كاذب، كانت زوابع تدرك أسباب حزنها إذن.

{كان عليه أن ينصاع لصيغة الرواية، كصيغة ثالثة، جاءت لا تفيده، وتضرّه قليلاً، لاضطراره للانتظار، وكأن الانتظار، عقاب فرضته الراوية، يقبله حرز، لا مجبراً، بل، كرغبة ضمنية، في أن تكون الصيغة الثالثة، رواية مها، أكثر قدرة على منحه خلاصاً لم تقدمه الصيغتان، لا الأولى السابقة له، لوجوده في الحياة، ولا التالية، المصوغة له، المصنوعة لتخليصه} ← مقطع سابق!

منتديات الكوكب العاشر

حين كبر شمس، وأخذت ملامحه تتّضح، خيّل لرائيه أنه كائن من شمس، فشعره الذهبي المائل إلى برتقالي، كأنه شمس في وقت الغروب، وعيناه الزرقاوان (كعيني حرز)، كلوزتين زرقاوين لا خضراوين، إذ أخذتا شكل اللوز، كعيني حرز، شكل ثمرة اللوز، كعيني حرز، زرقاوي اللون، لوزيتي الشكل.

وكان صبياً نشيطاً حيوياً، لاهياً، مشاغباً، يتسلّق الأشجار، وينزلق على الجدران، يعبث بالأزهار، ويطارد الديدان والحشرات والفراشات. كان صخبه يملأ القلعة، وكانت ذهول تطارده حتى تكاد أنفاسها تنقطع، إذ تهرول خلفه خشية أن تؤذيه، وتصرخ مستغيثة حين تعجز عن مطاردته، إذ يتسلق شجرة، ويجلس فوق أعلى أغصانها، ويهددها أن يرمي بنفسه من فوق، ساخراً، مستفزّاً لأعصابها.

ورائي شمس لا يصدق أنه هو ذاته، وقت المغيب، وكان يذهل ذهول ــ المذهولة أكبر مما حمل اسمها ــ ذلك الانقلاب العجيب، فكأنه شمسان، لا شمس واحد، مشرق، حيوي، نشيط في الصباح، وآخر، حزين، صامت، بليد، بعد المغيب.

وظل الصبي لسنوات على تلك الحال، «اثنان في واحد»، ولم تنفع كل توسلات ذهول لأبيه حرز، ليعود إلى القلعة، ليساعدها في الاعتناء بالصبي، ذلك المنقلب إلى ضده، بعد المغيب.

إلا أن حرزاً كان مشغولاً بموسيقاه، وقراءاته، مثيراً حوله عواصف من دهشة وذهول وحيرة، فرغم شعره الطويل الذي لم يقصّه، ولا لحيته، ولا أظافره، منذ وفاة سيمياء، ورغم أنه لم يستحم منذ ذلك اليوم أيضاً، إلا أنه ظل محافظاً على وسامته، وجمال جسده،

منشورات الكوكب العاشر

وجاذبية رائحته.

وكان أغرب ما في حياته، بالنسبة إلى سكان المدينة التي حلّ فيها، متقاسماً السكن مع عمه طُهر، طُهر الأنيق، حليق اللحية، جميل الشارب، منطقي السلوك، كان الغريب هو أمر تلك الفتاة التي كانت تطارد حرزاً أينما ذهب، وتقسم أن تكسر مواقفه العاطفية، وبروده الجنسي.

وحين قطعت ذهول أملها من عودة حرز، ذهبت إلى أرض، جاثمة قرب مدفن جد الصبي، باكية، متوسلة، «أليس هو ابن حفيدك، وحفيد ابنك، ساعديني لأخلصه من انقلاباته، إنّ قلبي يتقطّع لمغيب شمس» ولم تنسَ ذهول، لتزيد في التأثير على أرض، أن تأخذ شعرة ذهبية تميل إلى اللون البرتقالي، من رأس شمس، وأن تلفّها بمنديل معطّر برائحة الصبي، لتدفن المنديل جوار رأس جده، وظلت تبكي متوسلة، حتى سُمعت تنهّدات عناد، فاهتزّ المدفن، ومدت أرض رأسها من النافذة:

«كفى يا ذهول، اذهبي، أنت تؤلمين ابني، أما كفاه ما فعله حرز به، اذهبي، وعليّ اتّكلي» «سترين السلام يعمّ منزلك»[٤].

لم تفهم ذهول المذهولة أكثر مما حمل اسمها، ما عنته أرض، بما فعله حرز مع عناد، إلا أنها، أطاعت، وذهبت متّكلة على أرض.

أيها العبد الذي يذرف دموعاً،
أيها العبد الذي يذرف،

---

(٤) من كتاب **الزوهار**.

أيها العبد الذي،

أيها العبد،

أيها،

وضعت دهشة إصبعها على الجرس، ولم ترفعها حتى فُتح الباب، لم يصدق طُهر عينيه من الدهشة، كانت دهشة على النقيض من ذهول، إذ كانت ذهول تنذهل، بينما لم تكن دهشة لتندهش، بل كانت، تسبب الدهشة، وأحياناً «صدمة الدهشة»!

وهذا ما حلّ بـ طُهر، إذ صدمته الدهشة، كان يحلم بها ليل نهار، كان يحبها إلى حدّ يُفقده منطقه وتوازنه وتعقّله، فكأن الرجل مهما كان رصيناً وعاقلاً، تستطيع المرأة أن تجنّنه.

كانت سعادته برؤيتها على باب مسكنه، تعادل سعادة حداد المستحمّة بجسد حرز، كانت دهشة صبية صغيرة، كانت تصغر طُهر بسنوات، وتصغر حرز بسنوات أكثر قليلاً، وكانت تلك الدهشة {أن يراها على باب مسكنه}، فما هي صدمة الدهشة؟!

حين دخلت دهشة تلك الشقة التي يتقاسمها الاثنان، تلفّتت حولها متسائلة: أين حرز؟ وحين خرج حرز من غرفته بملابس النوم، هرعت دهشة، الطبيبة، الرزينة، وارتمت على صدر حرز باكية:

ـ أرجوك يا حرز، أنا لم أعد أحتمل، ارحمني.

وراحت تتضرّع إليه بكلمات ممتزجة بالذل والتضرّع، كأنه إله، يملك مصيرها بيديه، يستطيع أن يقلبه، سعادة مطلقة، أو شقاء

منتديات الكوكب العاشر

مطلقاً، وراحت بالفعل تعامله كإله، ترجوه، تبكي راكعة عند قدميه.

وما كان منه إلا أن حمل فوطة معلّقة، واتجه إلى الحمام، وكأنه لم يسمع أو يشاهد أحداً، أمسك طُهر بذراعها، وسحبها للجلوس على الأريكة، فأخذت تتوسّل إليه، إلى طُهر: أنا أحبه يا طُهر، أرجوك أن تكلّمه، سأموت من عدم اهتمامه بي. سحب طُهر نظارتيها المغسولتين بدموعها، وحاول تهدئتها، إلا أنها أخذت تجهش ببكاء غير عادي، وحين رأته يخرج من الحمام، ليعبر إلى غرفته، انطلقت كقذيفة خلفه، وانفجرت بعويل لا يمكن توقيفه، فما كان منه إلا أن صفع بابه بوجهها.

لم تكن دهشة توفّر أي مكان يذهب إليه حرز، كانت تطارده في حفلاته، سهراته، منزله، مقسمة أن تكسر بحبها الحار، ثلوجه الواقفة تلالاً في طريق حبهما!

قال له طُهر: أنا أثق اليوم أنك فنان، ربما لستَ موهوباً كفاية بالموسيقى، إلا أن لرؤية الحق في ما توسّمه فيك ذات يوم، انظر إليّ، عمك العقلاني، مسحور بتلك الشيطانة الفاتنة، التي ترتمي على قدميك، وأنت تركلها ككرة، بينما أتحرّق شوقاً لمسّ نظارتيها فقط.

نحن العقلانيين، نتعجّب منكم أيها الفنانون، كيف تحلّون ذلك اللغز الذي يحيّرنا، ذلك «الثقب» الذي يجعلنا مضطربين، خجلين، أطفالاً مضبوطين بارتكاب ما لا يجب، ما يعرّضهم للسخرية، وتهكّم الكبار. قال طُهر ذلك معبّراً عن إعجابه بقدرة حرز على استقطاب النساء، وخاصة المرأة التي أدهشته طويلاً، ذكية، جميلة، متحدّثة، رصينة، متعالية.. وكان يعبّر في الوقت ذاته عن خيبته

منتديات الكوكب العاشر

المرة، وهو يخسر، وإلى الأبد، احتمال لقاء بينه، وبين ذلك «الثقب الغريب»(٥)، بعد أن فشل تماماً في اكتشاف «المفتاح الملائم»، واستطاعت دهشة المُدهشة، أن تزيد من إدهاشها لكل من حولها، حين شوهدا معاً، هي وحرز، يسيران متعانقين بعد انتهاء حفلة أدى فيها حرز معزوفات مميزة، حارة.

وكانت صدمة الدهشة لطُهر، وهو يراهما معاً في تلك الشقة، حين دخلا معاً، طُهر وجدار، ليجداهما معاً: وحش ضخم، بشعر طويل، ولحية طويلة، وعانة طويلة، يعانق حورية صغيرة، رقيقة، بعانة نظيفة، كباطن الكفّ.

انفجرت جدار بالضحك، مداعبة شعر الوحش المستلقي على ظهره رافعاً ساقيه على الجدار، وغمزت لدهشة التي تمكّنت من استخدام اسمها للمرة الأولى بالنسبة لجدار، وهما تتقابلان للمرة الأولى، إذ شعرت بالمتعة والدهشة، واعتدلت دهشة في جلستها، مكوّمة ساقيها فوق عانتها النظيفة من الشعر، وكانت تحسّ بعمق، بالطمأنينة والسلام.

الإحساس بالطمأنينة والسلام، هو ما افتقده شمس على الدوام، وكان يفاجئه ذلك الإحساس عند المغيب، ففي الصباح، كان ينسى ذلك، وحينما تغيب الشمس، يعاوده من جديد، كان شمس يشعر بالخوف، ويندهش أنه لا يشعر به في الصباح، ويقرر أن يستعيد حالة اللاطمأنينة هذه في الصباح، ليعرف أسبابها، وفي الصباح، كان ينسى.

---

(٥) تعبير لفرويد، **باكان**، ص ١٦٦، مصدر سابق.

في الصباح، كان شمس ينسى مشاعره المسائية، وكأنها حلم يصعب تذكّره، كان يستيقظ نشيطاً فرحاً، وكان يُمضي مغيبه متأرّقاً حتى يغفو من شدة الإجهاد والإرهاق.

وحين وعدت أرض ذهول أن تجد حلاً لمسألة اضطرابات شمس، وانقلاباته، هدأت ذهول قليلاً، رغم أن حال الصبي لم تتغيّر، إذ كانت تصيبه تلك الحالات المفاجئة من البكاء والحزن والجلوس ساكناً كتمثال، لساعات طويلة، حتى يغفو.

كان شمس مصاباً بـ إغماءة المغيب، إذ ما إن تتحوّل الشمس إلى اللون البرتقالي، حتى يُصاب الصبي بتلك الكآبة الغامضة، وما إن تغيب الشمس، وتسودّ السماء، حتى يغفو مغمياً عليه من الكآبة، إلا أن ذلك الوضع لم يستمر طويلاً، إذ:

كان شمس جالساً تحت شجرة البلوط الكبيرة، قبل حلول المغيب بقليل، ولم تكن الشمس قد أخذت لونها البرتقالي بعد، حين سقط فوقه غصن يابس، وسمع صوتاً يقول:

«ها قد بلغت الثالثة عشرة، ومن هذه السن، تبدأ بالتعرف على الخير، خذ الغصن بيمينك، واحفر حيثما تسر، لا تخشَ شيئاً ولا تخف، احفر، احفر، وكلما حفرت، يتم خلاصك»[٦].

نهض الصبي ممسكاً بالعود اليابس، المتساقط من شجرة البلوط الكبيرة، لم يكن خائفاً أو مضطرباً، بل كان هادئاً، مرتاحاً، وحين عبث حوله بالغصن، حافراً على شكل دائرة، حول مكان وقوفه،

---

(٦) من **الزوهار**، بتصرف.

منتديات الكوكب العاشر

اصطدم العود / الغصن، بشيء لامع، انحنى شمس والتقط تلك القطعة اللامعة، ورأى وجهاً يبتسم له في تلك المرآة، وقالت المرأة في المرآة:

لا تخف مما لا يخيف، لا تبتئس مما لا يُبئس، لا تهرع خلف الحلول، تأمل ما حولك، أنا أرض، جدتك وجدة أبيك، وشمس أنت، ابن حفيدي، وحفيد ابني، شمس أنت، لم تكن أمك امرأة عادية، ولا كان أبوك رجلاً عادياً، من اندماج سيمياء السحرية وحرز المحصّن بصيغة تنفي صيغة، جئت أنت، كائناً ملوناً، لامعاً، تتسلل الكآبة من جيل إلى جيل، لتعبرك، فدعها تمر، ولا توقفها عندك، خذ عصاك ومرآتك، بالعصا تحفر دربك، وبالمرآة ترى مستقبلك، شمس أنت، فلا تدع لعنتي تنزل عليك، فتموت وحيداً، وتشم رائحة فسادك الأرض، فلا تعرف السعادة، أيها الذرية، ذرية عناد وحرز أنت، ذرية الحرز والعناد كنت، ذرية مهددة بالرماد صرت، لا أنا أرض أتخلى عنك، كما لم أتخلّ عن جدك وأبيك، إلا أنهم، بأيديهم يوقّعون مواثيق السقوط، كن معي، أكن معك، واقرأ دوماً تلك الصيغة، أتلوها عليك من جديد، بعد أن تلوتها على جدك وأبيك، وأعمامك، وأعمام أبيك، وحرث وطهر، ذلك المنشق العنيد، أتلوها عليك اليوم، في كل موسم وعيد، تذكّر الصيغة، وتمسك بغصنك ومرآتك، واحفظ ما سأقوله لك الآن:

**[حذرتك ألا ترتل هذا النشيد، فيسكن في ذاكرتك، يأسرك ويلعنك، يفتنك فيستحوذ عليك، ولا يكون لك منه فرار، فيعدمك، وحيداً تموت وتشم رائحة رحيلك الأرض، ولن ينقذك من عذابك إلا عيد يأتي في ربيع يتلو رمادك]**

كانت تلفظ الكلمة الأخيرة (رمادك) إلا أنه سمعها (دمارك)،

وغاب وجه أرض عن المرآة، ولم يسبق لشمس أن سمع عن أرض، فاتجه إلى ذهول، وكانت الشمس تقترب من التحول إلى لونها البرتقالي، وما إن عثر شمس على ذهول، التي كانت مشغولة في أقبية القلعة، وحين رآها شمس، وما إن عثر عليها إذن، حتى دخلت الشمس في لونها البرتقالي، وقد بذل شمس مجهوداً، كي لا يبكي وهو يتكلم، لكنه فشل، فراح يتساءل باكياً، وقد اكتسى بالكآبة:

ـ لماذا يا جدتي ذهول، لم تحدثيني عن جدتي أرض؟!

ـ لأنك لم تبلغ السن المناسبة بعد، لا تزال في الثامنة أو التاسعة.

ـ لقد بلغت اليوم الثلاثة عشر عاماً.

ـ إنه عمرك الذي عشته، لكنه ليس العمر الذي تعيه، فأنت تموت في كل يوم، من المغيب، وحتى الصباح، وكأنك مرتبط بذلك القرص المضيء في السماء، إنك يا بنيّ لا تفيق من إغماءتك، ما دامت الشمس لا تظهر، وفي يوم حصل فيه كسوف، لم تفق أنت، أنت محروم من نصف أيامك، ونصف عمرك بسبب إغماءاتك، وكأنك ترث اسم جدتك!

ـ إغماء!

ـ أجل.

ـ وأرض، من تكون؟

ـ أرض جدتنا جميعاً، أمنا جميعاً، لقد توسّلت إليها لتخلّصك من عذابك، كآبتك وإغماءاتك، كم طلبت منك الذهاب إليها!

ـ لم أكن أعرف أنها جدتي بالفعل، أم جدي، وجدة أبي!

منتديات الكوكب العاشر

ـ حسناً، لقد رأت أرض أن تعلمك، فلتعلم وأنت ابن الثالثة عشرة كما رأت أرض، أنها تقرر مصائرنا، وتحسم معاناتنا وأحزاننا.

ـ إن وجهها جميل جداً يا جدتي ذهول، إنها المرة الأولى التي أراها فيها.

وصارت تلك المرآة، رمزاً جديداً لاعتكافه الدائم، الصباحي هذه المرة، في غرفته، ليعلّق المرآة على جدار أمامه، نصب عينيه، محملقاً لساعات طويلة، منتظراً وجهها في المرآة، باكياً، متوسلاً، وكلما نظر، رأى وجهه هو، لا وجهها المنتظر، وطال اعتكافه في الغرفة، وتوقف عن مشاغباته في تسلق الأشجار والقفز على الجدران، وصارت كآبته القديمة، ترافقه ليل نهار!

**[حذريهم ألا يرتلوا هذا النشيد، فيسكن في ذاكرتهم، يأسرهم ويلعنهم، يفتنهم فيستحوذ عليهم، ولا يكون لهم منه فرار فيعدمهم، وحيدين يموتون وتشم رائحة رحيلهم الأرض، ولن ينقذهم من عذابهم إلا عيد يأتي في ربيع يتلو رمادهم].**

استعادت أرض ذلك اللقاء، لا بد أن «ذاكرة» المرأة الجميلة، التي تحن أرض دوماً لمرآها مرة ثانية، ولكنها لا تأتي، هي مرة واحدة، لم تتكرر، حين تلت أمامها تلك الصيغة، وأرادت لها أن تتلوها بصيغة فردية على أبنائها وأحفادها، إذ توجهها إلى واحد واحد، «وحيداً تموت، وتشم رائحة فسادك الأرض» وكأنها، وبعد أن انتبهت إلى سلوك عناد المشاكس، وطُهر المعاند، ورؤية المتمرد، وبقية الأولاد، خشيت من حدوث الإنذار، لذريتهم، فحصّنت حرز باسمه، مانعة عنه صيغة ذاكرة، تلك الصيغة، التي تلتها أمامها المرأة التي لا تظهر في العمر سوى مرة واحدة. وأملت أرض أن تراها مجدداً، ولو لمرة

واحدة، «مرة واحدة» لا لتحفظ الصيغة، أو تسأل عنها، بل، لتستعيد ذلك الفرح، وتشبع ذلك الحنين الدائم، وكأنها بعد كل هذا العمر، لا تزال منشدّة ومشدودة إلى تلك اللحظة التي غمرها فيها الفرح، وهي تتلقّى القبلات من تلك المرأة الجميلة، التي باركت زواجها، لم تبارك نسلها، ونسل حرثها!

**[حذرتك ألا ترتل هذا النشيد، فيسكن في ذاكرتك، يأسرك ويلعنك، يفتنك فيستحوذ عليك، ولا يكون لك منه فرار، فيعدمك، وحيداً تموت وتشم رائحة رحيلك الأرض، ولن ينقذك من عذابك إلا عيد يأتي في ربيع يتلو رمادك].**

صندوق الكوكب العاشر

آمرك. فلا تأتمر.

أيها العبد إلى متى تخنث بوعدك.

تستسمحني وأغفر لك. ثم تخنث أيضاً.

آمرك. فلا تطيع.

ألا تدرك أنك تسير صوب رمادك!

أيها العبد الذي يذرف دموعاً،

أيها العبد الذي يذرف،

أيها العبد الذي،

أيها العبد،

أيها،

أنا قريبة، والطريق إلي مسكونة بالأمان،

مدّ يدك وتناولني، وتطهّر من العصيان،

أغفر لك ذنوبك، ونبدأ صفحة جديدة،

التقاها صدفة، في الطريق المؤدية إلى المدينة، حين قرر وللمرة الأخيرة، مغادرة القلعة، والذهاب إلى طُهر بلا رجعة، تاركاً شمس مع ذهول.

كانت تتكئ على عصاها، وعلى شخص آخر، عرفها من الخلف، ولم يتعرف إلى الأخرى، أحسّ بأنّ ثمة سراً يكمن وراء ذلك اللقاء الصدفوي، ثمة اقتراح من الصيغة الجديدة، لخلق بعض الراحة فيه، بعد وفاة سيمياء، لحق بها منادياً: أمي!

توقفت المرأتان، واستدارتا نحوه، ابتسمت الأولى ببلاهة، وبكت الثانية بصمت،

ـ أمي، هل نتحدث قليلاً، سأرحل ولن أعود ثانية.

ـ قلت هذا حين ودّعت عناد.

ـ لم أعد أحتمل الفراق، سيمياء هذه المرة، لن أعود، لم يعد لي شيء هنا.

ـ شمس، وأنا، وأرض!

ـ أرض سبب بلائي، شمس لا يزال صغيراً ولن يحتاجني، وأنت تغيبين طويلاً، وفي إغماءاتك تدخلين، لا تحسين بي، ولا بما حولك.

ـ إنه قدري يا بني، تعال نتحدث.

ابتعد إغماء وحرز.

منتديات الكوكب العاشر

كانت تشعر للمرة الأولى بأنها كائن طبيعي، وأن عقلها، للمرة الأولى، صافٍ، وأفكارها مستقرّة، كأنها إغماء المولودة للتو، وكأن حرزاً وهو يعانق كتفها، قد منحها شيئاً من خصائص اسمه، وفكرت أنه حرز لغيره، فهل هو حرز لذاته، وتذكرت حين وقع جدار، وكاد يقتل نجمة، ارتمت على حرز، فانقلب الجدار المقلوب، إلى الاتجاه الآخر، المعاكس، وعاد نحو الوراء، وقالت نجمة: أنا محصّنة بحرز، حماني اسمه، وتذكّرت ما روته لها سلفتها سماء: كنت أشرب الماء، حين رأيت أفعى قابعة في قلب الإناء، وكدت أموت خوفاً، حين أمسك بي حرز من ذيل ثوبي، فرأيت الأفعى تتلوى متألمة، ثم تموت، دون أن يمسّها أحد، فكأنها سمّمت ذاتها بذاتها، لقد حماني حرز.

ابتسمت إغماء سعيدة بتأثيرات ابنها، أو تأثيرات اسمه على ما حولها، وتوغلا في المسير تاركين حداد جالسة عند مفترق الطريق، تعدّ الحصى، وتصنع دوائر ومثلثات وحيوانات، من التراب.

ـ أما زلت تصرّين على الأقدار؟!

ـ أما زلت مصراً على أنه لا أقدار؟!

ـ أجل، ما زلت، وما زلت راغباً بمعرفة حقيقة نسبي، من أكون؟

ـ حرز. ابني!

ـ وأبي؟

ـ

نظرت إليه مذهولة من السؤال، تبادلا نظرة، عرفت أنه لم يعد يقبل بالجواب المعتاد: أبوك هو زوجي! أحست إغماء بعاطفة مباغتة تجاه

منديل الكوكب الطائر

حرز، وكأنها اكتشفت للتو أنه ابنها، ابنها الذي ربته سلائفها، ولم تعامله بالحنان الذي يستحق، التصقت به، قبّلت عنقه وصدره: صرت رجلاً يا حرز، رائحة الرجولة تفوح منك، كم كنت آمل أن ألتقي برجل مثلك.

ـ أما كان عناد ذلك الرجل، لقد التقيتُ به قبل موته بساعات، كان رجلاً يا أمي. كان رجلاً أكثر مني بعشرات المرات، وكنت أغار من رجولته.

ـ أنت شيء آخر، أنت تتمتّع برائحة عجيبة، رائحة لا يمكن أية امرأة أن تشمّها فتقاوم رغبتها في الارتماء على صدرك، أختاً كانت، أو جدة، أو أمّاً حتى!

ـ كان عناد رجلاً قوياً، وأتصوّره يستطيع إرضاء عشرات النساء في جلسة واحدة، فهو من الضخامة والقوة ليضاجع العشرات في اللحظة ذاتها.

ـ لكنه لا يثير الخيال، أنت، وبهذه الرائحة الفاسدة «قالتها مداعبة» تطلق النساء حولك، فتثير الأخيلة، وتؤجج الرغبات، لقد صرت رجلاً يا حرز، رجلاً لا يُقاوم، رجل فاسد «أتمت مداعبتها».

ـ حسناً أيتها المرأة الفاسدة «ردّ دعابتها بدعابة» ألن تساعدي هذا الفاسد الذي هو ابنك، ابنك الذي ترعرع في رحمك، وتآلف مع جوفك؟

ـ أساعدك يا من رآك جوفي قبل عيني، أساعدك إن استطعت.

ـ أبي، من يكون؟

منتديات الكوكب العاشر

أطرقت إغماء، وتحول الجو اللذيذ الدافئ إلى مقت مباغت، وأطالت الإطراق، حتى خشي حرز أن تُصاب بإغماءتها المعتادة، فلا يعود يلقى إجابة لسؤاله. هزّها بلطف من كتفيها، كما تُهزّ شجرة، لتُسقط ثمارها، فتساقطت الكلمات من شجرة حرز، أمه، تلك الشجرة التي لم تكن حانية أو وارفة، بل شجرة يجلس فوقها، ليدندن ألحانه، ويعزف على قيثارته:

عليك أن تعرف اليوم، لماذا كنت أثور وأغضب وأفقد وعيي كلّما رأيتك عارياً، ورأيت عضوك يتدلى في الحمام أمامي بحماقة، ألم أحدثك من قبل عن تلك الآلام التي تصيبني كلما وطأني، كان حين يفعل، يعيد تلك القشرة الرقيقة إلى التحامها، كأن ثمة أشياء يفرزها في جوفي، فتلتحم تلك القشرة، وحين يعاود عناد وطئي، كان بذلك يمزّق تلك القشرة، فأتألم وأنزف مجدداً، وأتقلّب بينهما، بين عذرية ونفاذ، بين التحام وتمزيق، وكأنهما يتبادلان تعذيبي، ذلك الذي كنت أكره صعوده فوقي، وعناد الذي كنت أحبه، ويمزّق أوردتي كلما غشيني. لقد حاولت التخلص منه ولم أقدر، ذهبت إليهم متوسلة، باكية، طلبت منهم إعفائي من زياراته، ونذرت لهم ملايين النذور، ذهبت إلى أرض، جدتك العاهرة، طردتني وقالت إني لا أقع في دائرتها، وأنها لا تتدخّل في شؤون خارجة عنها، لم تستقبلني حتى، كأم أو حماة، توسلت إليها: من أجل حرز، حفيدك، أنا أمه، أتألم، وأكره ابنك الذي أحب. لم تسمح لي بالدخول، كنت أبكي خلف بابها، كي لا يُفتضح أمري أمام سلائفي، لكنها أوصدت بابها بوجهي، وطردتني، جدتك العاهرة تلك، تلك التي تستقبل الأغراب، لم تمنحني حلاً لإغماءاتي حتى، إنها عجوز عاهرة، لم تمدّ لي يد العون لأنها عاجزة أساساً، ولأنها تكذب على الجميع، قل لي ماذا فعلت أرض من أفعال حقيقية، كل

منتديات الكوكب العالمية

ما نسمع عنها مجرد كلام، هل منعت موت عناد، هل أوقفت انتحار حرث، هل عرفت من يكون والد جدار، هل أنقذت زوجتك من الموت. ماذا فعلت أرض؟ كلام وصيغ وشعارات، انظر كيف دمّرتك بصيغتها التي صدّقت، تلك الصيغة التي كنت تتلوها على نفسك كل صباح، كنت أسمعك وأتجاهل، وأحزن عليك، وأحقد على أرض، تلك التي تنشر الصيغ والكلام، ولا تقوى على الأفعال.

ـ أرجوك يا أمي لا تنفعلي بالكلام، أرجوك دعكِ من أرض، وحدثيني عن حقيقة أبي، أرجوك، قد لا نلتقي بعد اليوم، أنا راحل دون عودة.

منتديات الكوكب العاشر

ـ كان يُدعى أقدار، من هنا يأتي إيماني بالقدر، لقد قُدّر لي دون إرادة مني أو اختيار، أنت الذي تؤمن بالاختيار، كان أسود اللون، أزرق العينين، بلون هذه الزرقة في عينيك، يا لأقدار، لقد ورّثك لون عينيه، وشكلهما. هاتان اللوزتان الزرقاوان بوجهك، كنت أراهما بوجهه، وهذا سبب نفوري منك في طفولتك، كنت أكرهك يا حرز، لأنك ابنه.

توقفت إغماء وانهارت بالبكاء، وخشي حرز من إغماءتها، فلا تتم، بل تنسى في ما بعد، من أين بدأت، وأين توقفت، وكشجرة هزّها راجياً إياها بالاستمرار، وكشجرة تساقط الثمر من فمها:

ذهبت إلى رئيسهم، قال إنه لا يستطيع إبعاده عني، إنه ملاصق لي، إن المرأة التي يختارها أقدار لا فكاك لها منه، ولا يستطيع حتى رئيسهم، منعه أو تحويله عنها، قال إنه كان متزوجاً من امرأة تشبهني كثيراً، اللعنة على أمي، وحين ماتت زوجته، أخذ يفتش عن امرأة بديلة، وعثر علي، فكنت اختياره، وكان قدري، هم فقط من

يختارون يا حرز، وليس لنا حق الرفض، نحن لا نملك اختياراتنا، وكل الآراء القائلة بالحرية والاختيار، خاطئة، وليست واقعية، الواقع مثل جدار يُضرب بالرأس، اسأل ابنة نجمة، مجهولة الأب، جدار، وتساءل لماذا جدار، لا تصرّ مثلك على معرفة أبيها.

لقد وقعت أسيرة لاختيار أقدار لي، ولاتفاق أمي القديم، مع المتسول الذي وعدها بالخصب، فجئت من وعده.

ـ وبعد، تابعي.

ـ قال لي حين وطأني أول مرة: إن جاءت المولودة أنثى فهي من جنسك، وتكون لك، وإن كان ذكراً فهو لي! لقد أطلت شعرك حين جئت، وحاولت التصديق أنك أنثى، لذلك كنت أغضب حين أرى ذكورتك تتدلى أمامي بحماقة، فكنت أضربك في الحمام، وأعضّك، لأني أحقد عليك لأنك ذكر، فلو كنتَ أنثى، لصرت لي، ابناً لي / أو ابنة، مني، لا منه!

جلس حرز في مكانه تحت الشجرة المتساقطة الثمار، محبطاً، كئيباً، إنه ليس كائناً طبيعياً إذن، نصفه بشري، ونصفه الآخر.. وراح يبكي كطفل صغير، واقتربت منه الشجرة، ثم انحنت فوقه، فظللت حوله:

ـ اهدأ يا بني، إنه القدر، فهل ثمة اختيار؟

ـ إنه، وبهذه الحال، لا تنطبق عليّ صيغة أرض، ألم تقل لك إن هذا الأمر ليس من دائرتها، وإن موضوعك خارج نطاقها، إذن، باعتباري من دائرتك ذاتها، فليس لي علاقة بها، وبابنها عناد، الذي

كنت أغار من قوته، ورجولته، وليس لي علاقة بتلك الصيغة.

ـ نعم، عليك أن تثق بهذا، إن لنا أقداراً مختلفة، وعلى هذا عليك تفسير زواج سيمياء منك، وكذلك فإن ابنك شمس، هو أيضاً وليد كائنين غامضين، أبوه منتصف الإرث، من البشر، ومن الجن، وأمه جنية كاملة، هو أيضاً، شمس، خارج دائرة أرض.

ـ هي إذن، الصيغة الجديدة، صيغتي.

ـ أي صيغة؟

ـ الميثاق.

ـ أي ميثاق؟

كان يرغب في أن يشرح لها، لقد رآها وللمرة الأولى في حياته، متّقدة الذهن، صافية الأفكار، متسلسلة المعاني، إلا أنها، قبل أن يتكلم، سقطت الشجرة على الأرض، وانفرطت الثمار بعشوائية، فأخذت إغماء تهذي بكلام غير مفهوم، كثمار عفنة، تالفة.

حمل أمه بين ذراعيه، وعاد بها إلى حيث كانت تسير مع حداد، وكانت حداد لا تزال تعدّ الحصى، وتصنع دوائر ومثلثات وحيوانات، من التراب، وحين رأتهما قادمين، فوجئت بالغبار الذي علاهما، وركضت إليه، باكية، راكعة عند قدميه، معتذرة له عما فعلت، وفوجئ باعتذارها، إذ كان من المفترض أن يكون هو المعتذر، لا هي، إذ إنه هو المعتدي، الهاجر. وتذكر رأي أمه في تلك الرائحة، فعرف سبب ضعف حداد أمامه، تلك الرائحة الفاسدة، كانت حداد ترغب في الاعتراف، لتحظى بلحظات من الماضي، حين استحمّت بجسده، وتمرّغت على صدره، وقبّلته

منتديات الكوكب العاشر

عشرات ومئات القبل، كانت وهي تتحدّث، تمرر أمام عينيها، ذلك الشريط القديم، المبهج، عريهما اللذيذ، رائحته، جسده الذي عشقته ـ ولا تزال ـ أكثر من جسدها. وراحت تعترف، وحين أوقفها عن الكلام، ليسألها عن الطفل الذي كانت تحمله في أحشائها، لم تجبه، لأنها نسيت أمر ذلك تماماً، نسيت الحمل، والوضع، ونسيت تلك الطفلة، وقد ماتت أمها، الشاهدة الوحيدة على الطفلة، وظنّتا آنذاك ـ حداد وأمها ـ أن الحكاية كانت وهماً، فتركت غياب برعاية زوابع. وتمنى حرز لو تكتمل معرفته، لقد عرف اليوم حقيقة منشئه، وأراد أن يعرف عن ابنه من حداد، أو ابنته، لكنها أصرّت على الاعتراف، فراحت تطلب السماح والغفران لقتلها سيمياء، وضحك حرز من خبل المرأتين، وبلههما، عشيقته القديمة، وصديقة أمه، وأمه، اللتين أضاعتا عقلهما، وفقدتا التركيز والوعي حول ما حصل، وما لم يحصل. لكنها أصرت على الكلام:

لقد جلست طوال اليوم الذي كانت امرأتك فيه ماخضاً، أصنع ضدها السحر، لتموت، وقد رسمت امرأتك على ورقة، وأدخلت عود نار ملتهباً في رحمها على الورقة، ليحترق رحمها آن وضعها، واستمر عملي لساعات، أرسمها، وأحرق رحمها، حتى سمعت بأذني، وأنا جالسة على حافة عين الماء، وقد امتلأتْ بالرسوم المحترقة، حيث تعانقنا أول مرة، وفي كل مرة، سمعت شهقة امرأتك، فهرولت إلى القلعة، وعرفت أنها بالفعل قد ماتت للتو، فأدركت أني تمكّنت من قتلها.

كانت إغماء تتم إغماءتها، وحداد تعترف لتتقرّب إليه، وأخذت تقترب منه، محاولة معانقته:

ـ ما هذه الرائحة اللذيذة، إنها رائحة فساد، ولكنها مثيرة، خذني

إلى عين الماء، أو هنا لو شئت، إغماء لا تدري بنا الآن، خذني يا حرز، أنا لم أنقطع عن حبك لحظة واحدة، ولم أغضب منك ولا للحظة واحدة.

تملّص حرز من حداد، فقد أعلن في أعماقه، أن لا يمس امرأة بعد سيمياء، ذلك القرار الذي لم يصمد له طويلاً، إذ إن الانتصار الذي حققته دهشة، كان في كسر قراره والتراجع عنه، إلا أنها، تلك المسكينة دهشة، اضطرت وهي تدعوه للتراجع عن قراره، أن تحتمل رؤيته في كل يوم، يزيد رائحته فساداً وإثارة، مع امرأة جديدة.

آمرك. فلا تأتمر.

أيها العبد إلى متى تحنث بوعدك.

تستسمحني وأغفر لك. ثم تحنث أيضاً.

آمرك. فلا تطيع.

ألا تدرك أنك تسير صوب رمادك!

قالت نجمة: كنت أسمع صوتاً يأتيني من الجدار، وحين حفرت الجدار، وتابعت الحفر، لأيام متواصلة، وشهور، عثرت على طفلة نائمة في الجدار، ترضع إصبعها، فأخذتها، وتبنّيتها.

وصدق الجميع حكاية نجمة، وانتشرت حكايات عديدة حول أطفال يُعثر عليهم في المواقد والسُّقف وغرف المؤونة، وانتشر أولاد، لا يُعرف لهم آباء.

كانت جدار (إحدى صانعات هذه الرواية) مدللة جميع النساء،

منتديات الكوكب العاشر

ومدللة أرض على الأخص، وكان يحق لها ما لا يحق لغيرها، تدخل وتخرج دون استئذان إلى غرفة أرض، حتى أثناء وجود الضيوف عند أرض، تقبّلها، تعبث بشعرها بمحبة، وتخرج.

ولم يكن أحد ليجرؤ على إطالة النظر بوجه أرض، بينما كانت جدار تجلس ساعات مع أرض، تثرثر لها، تعبث بأغراضها، تستعير مناديلها الملونة، المطرزة، وأحذيتها الواسعة على قدميها، وتتمشّط من مشطها، وتستعمل عطورها، ترتمي على سريرها، تقيس ملابسها، تستعمل أقراطها وزينتها. وكانت أرض تسمح لجدار بكل شيء، فكأنها تلك الصديقة التي جاءت متأخرة، إلا أنها جاءت، لذلك لم تمنع عنها أرض أي شيء، منذ طفولتها، وحتى صباها، وكانت جدار تحب أرض حباً يفوق حبها لنجمة، وكانت تناديها / أي أرض بـ أمي.

حين كانت جدار تقرأ جوار مدفن عناد، حذّرتها النساء من سخط أرض، لأن ذلك المكان هو للتوسّل والطلبات، وليس للتسلية واللهو والقراءة، وقد سحبت إحدى نساء عم أمها الكتاب من يدها، فصرخت جدار محتجّة، واجتمعت النسوة محاولات تهدئة جدار كي لا تغضب أرض عليها، إذ مهما غفرت أرض، فلن تغفر إقلاق عناد في مضجعه الأخير، وسباته النهائي، إذ إنه لا يموت ميتات نهائية.

وحين أحست بانزعاج حقيقي، لم تستطع لجم انفعالها، فأخذت تشتم وتسبّ:

ـ اللعنة عليكن وعلى أرض، ومن تكون هذه الأرض، أنا لا أخاف أحداً، أنا ليس لي أب أخافه، وأمي نجمة امرأة رائعة، ولا يحق

لأحد التدخل بي، أقطع لسان من يزعجني، وأقصّ يده.

وصرخت بها إحداهن، خالة أمها، وزوجة عمها، مساء:

ـ اخرسي أيتها اللعينة، سوف تعرّضينا جميعنا لكارثة، أرض سيدتنا، لا تظني أنك مدللة لدرجة تشتمين بها أرض، إن أنزلت أرض لعنتها عليك، تبيدنا جميعنا عن آخرنا، ماذا تظنين أنت، أرض تميت وتحيي، تهب الحياة وتأخذها.

وقطعت جدار كلام خالة أمها، وزوجة عمها، مساء، صارخة بها:

ـ جبانات، أنا لا أخاف، أنا جدار، لا ينسدّ بوجهي جدار، ولا ينغلق باب، أنا جدار، أحطم الحواجز والمخاوف، وسأريكن!

وهرولت قافزة صاعدة السلالم صوب غرفة أرض، بينما جلسن جميعهن، حتى نجمة، عند مدفن عناد، يتضرّعن إليها باسم ابنها، أن تغفر لـ جدار، خائفات من مصيبة تقع عليهن، كأن تسقط السماء، أو تنشقّ الأرض، فلم يسبق لأحد أن شتم أرضاً بهذه العلانية، وقد احمرّت عيونهن من البكاء والتضرّع متأملات رحمة أرض، وفوجئن بها، جدار، بعد ساعات، تقف أمامهن ضاحكة، تصعد فوق مدفن عناد، كما لم يفعل أحد من قبل، وتصرخ بلهجة آمرة:

ـ ألم يحن وقت الطعام بعد، أنا جائعة، هيا، لتجهّز إحداكن طعاماً لي، وأنت يا خالتي احتواء، جهّزي لي ماءً ساخناً لأستحم، سأستحم هنا، عند العم عناد، فوقه، سوف يتمتع بمشهد جسدي، لقد حرمتموه من لذة الجسد الأنثوي، يا لكن من غبيات، هيا!

منتديات الكوكب العاشر

وتبادلت النسوة نظرات الاستغراب، حتى نجمة، التي أحست، رغم دهشتها، بالفخر، وخاطبت في سرها، تلك الليلة المميزة التي قضتها في سرير حداد، حين كانت الفراشات الملونة تملأ الغرفة، وحداد تغطّ في نوم عميق، تنتظر طفلاً بعد شهور، إذ دخل عليها من النافذة، وبثّ جدار في أحشائها، ولم تعرف وجهه، إلا أن رائحته كانت تجبرها على أن تشهق وتبكي مستلذّة بين ذراعيه، وساقيه.

أخذت جدار تقفز فوق المدفن حافية، صارخة، محتجّة: أريد طعاماً، أريد طعاماً!

وصارت جميع النساء، منذ ذلك اليوم، والرجال أيضاً، من زلزال الذي شاخ قليلاً، وأداء، وأحوال، وأسرار، إلى سمات الذي فقد شقّه الثاني عناد، فبات كمن أضاع نصفه، ورؤية الذي قلّما أبهره أحد، إلى طُهر الذي ضحك من أعماقه قائلاً، حين سمع بمشاغبات جدار: إنها دون أب، أي دون خوف، غياب الأب، يعني غياب المرض. إذن، صار الجميع، يحسدونها على جرأتها، وغفران أرض لها، وتدليلها لها، فصارت تفعل ما تريد، أكثر من قبل، تأكل طعام من تريد، وتطرد رؤية لتنام في سريره، وتذهب إلى حرز لتتشاجر معه، وتشاكسه، وتذهب إلى طُهر لتعاكسه وتحاوره، وإلى شمس لتسخر منه، حتى استطاعت أن تنقذه من بعض كآبته.

كانت جدار تستحم أمام الجميع، ولا تدخل حماماً مغلقاً، بل تستحم في الهواء الطلق، في العراء، على مدفن عناد، أمام طُهر ورؤية وحرز. وتغمز لهم جميعاً، بمكر ومعنى يعرفه الرجال / المعنى عند الرجال، وكانت تسير دون سروال، منذ طفولتها، كرهت دوماً السراويل، ولم تكن نجمة تعترض على سلوك تلك الطفلة، وكانت تضحك حين تعثر على سراويل الفتاة المحشورة والمنسية في كل

الأمكنة: الحظيرة، أوراق طُهر، غرفة إغماء، سرير شمس. كانت جدار تخلع سروالها، فتنساه، إلى أن كفت عن ارتداء السراويل، كما صارت تكف تدريجياً عن ارتداء الثياب.

استلقت جدار فوق مدفن عناد، على بطنها، موجّهة مؤخرتها للسماء، وعانتها فوق عانة عناد تحت التراب، وأخذت تقلّب أوراق دليل العائلة / أو دليل الأسماء، مع ملخص عن حياة كل منهم، بعد أن رغبت في لحظات فعلية مع رجل حقيقي، بدلاً من استلقائها السريع في أسرّة الغرباء في الظلام. وحين لملمت معلومات عن الجميع، قالت لإغماء: سأنام معه، ابنك العنيد، هل تقولين إنه امتنع عن النساء، سوف أكسر رأسه. وحين ذهبت جدار إلى حرز، كانت قد سبقتها دهشة إليه، ولكنها، جدار، ذهلت برائحته الفاسدة، اللذيذة، قالت له وهي تتمرّغ على جسده: «رائحتك مثل الحيوانات، لكنك لذيذ كوحش» وقال لها: «كانت أمك تحلم بهذه اللحظات معي» «جبان، لماذا حرمتها؟» «لم أكن رجلاً آنذاك، كنت تافهاً» «هل تريد الآن؟» «لم يعد لدي رغبة فيها، وربما ماتت رغبتها بعد مضي هذه السنوات» «لا تكن أحمق، صلّح خطأك القديم، اندسّ في سريرها مرة واحدة، ستغفر لك أرض خطايا آبائك، وستمنح ذريتك السعادة» قالت ساخرة من تلك الصيغة، التي سمع بها الجيل التالي لـ حرز، جدار وشمس.

وحين رآهما طُهر يتمرّغان على الأرض، كالقردة، أو الدببة، أو الديكة، فوجئ بمهارات ابن أخيه، ذلك الذي رفض الاستحمام منذ وفاة سيمياء، ولم ترفضه امرأة، رغم رائحته النتنة، حيث تشاجر معه طُهر، وترك المسكن مذعناً، لفساد الرائحة.

حاولت جدار التحرّش بطُهر، لكنه أكّد لها أن المرأة الوحيدة التي

أرادها هي تلك الصغيرة دهشة، وأنه يعتبرها زوجة له، رغم أنها لم تمنحه ولا لمسة لنظّارتها، إلا أنه يعتبر نفسه مرتبطاً بها، ولن يمسّ امرأة غيرها، وقالت جدار، إن انتظاره سيطول دون جدوى، لأن المرأة التي تعرف رائحة ذكورة حرز، لا تفكّر في تجريب ذلك مع رجل آخر، سوى جدار، المرأة الوحيدة النهمة للتجريب، لأنها جدار التي لا تقف عند حدود، وهي عكس اسمها، لا تؤمن بحدود لشيء، سوف تنام مع كل الرجال، وتأكل كل أنواع الطعام، وتجرّب كل شيء، لأنه في أعماق كل إنسان، يحب أن يعيش هكذا، فكما يحلم كل رجل بمضاجعة جميع نساء الأرض، تأمل كل امرأة بالنوم مع كل رجال الأرض، ولن تمنع جدار عن نفسها تلك الأمنيات.

وحين اندست جدار في سرير شمس، أملت أن تجد فيه بعضاً من أبيه، كان يحمل رائحة ذكورة ما، إلا أنه لا يثير الخيال، مثله مثل جده عناد، هكذا شبّهته لها إغماء بعد أن روت لها جدار الفرق بين فراش حرز، وفراش شمس، وأملت جدار أن تعيد لملامح شمس بعض الطمأنينة، إلا أنه كان سريع الملل، كلما حصل على شيء، سرعان ما يملّه، والشيء الوحيد الذي لم يملّه شمس، هو تلك المرأة، متضرّعاً، للعثور على صورتها ـ مجدداً ـ في المرآة.

قالت جدار، بعد أن نامت معه للمرة الثالثة: أنت شاذ!

وسألها عن سبب غضبها.

ـ أنت تريد نموذجاً واحداً، ثابتاً، أنت لست كائناً طبيعياً، لماذا تنفر من المرأة الجميلة، لماذا تهرب من المرأة الجديدة، الشابة، أنت مريض بأرض!

منتديات الكوكب العاشر

وكاد يصفعها، فأمسكت بيده، ولوتها:

ـ أكسرها لك!

ـ لا أسمح لك بتدنيس مقدساتي.

ـ أرض رمز، هل تحلم بالنوم معها؟

ـ أنت قذرة، رائحتك مثل الحيوانات، بل، مثل الخنازير!

ـ وأنت أحمق وغبي، لا تعرف النوم مع امرأة، لأنك تعبث بساقيك كلما نظرت إلى المرآة، ولكنك تفشل، وستفشل، كلما رأيت وجهك أنت، لا وجهها، في المرآة.

ـ أنت خنزيرة، إنها امرأة مقدسة أيتها السافلة، هي جدة الجميع، لا يجوز لك أن تتكلمي عنها هكذا!

ـ إنها حقيقتك يا شمس، حقيقتك التي تعرفها، وتتجاهلها، تتهرب منها، هذا هو شذوذك، رغبتك في النوم معها، وخوفك ورفضك لتلك الرغبة، وبهذا الخيال المريض، لن تصبح كائناً طبيعياً، سوف تملّ كل امرأة تنام معها، وتملّ كل فكرة بعد حصولك عليها، لأنك تريد أرض، فقط أرض، ولا يشبع نهمك سوى أرض، اذهب إليها أيها الأحمق، نم معها، إنها امرأة، رغم التسع والتسعين سنة التي تملكها من العمر، إلا أنها امرأة، سوف تستلذ حين تجد شاباً صغيراً مثلك، يقبع بين ساقيها، يداعب أنوثتها، لقد كان حرث رجلاً أحمق، فاذهب إليها.

ـ إنها امرأة مقدسة.

ـ أنا أعرفها أكثر منك، لا يملك أحد مقدسات كاملة، ما من أحد

منتديات الكوكب العاشر

يقدس شيئاً عن حق، كل ما نسمعه لغو، لغة، والحقيقة هي حين يكون أحدهم وحيداً، مستعداً لمواجهة رغباته، ما من أحد يحمل فكرة مقدسة، ولم يشك بها، اذهب، نم معها، ربما بذلك تصبح رجلاً.

ـ ألستُ رجلاً؟

ـ لا!

ـ لماذا تنامين معي، إذن؟!

ـ أحاول أن أصنع منك رجلاً.

ـ لماذا، وماذا يهمّك فيّ؟

ـ لأنك ابن ذلك الرجل، ذلك الرجل الذي وقعت في رائحته، ثم، في غرامه، وتجاوزته بصعوبة، لأني امرأة بلا حدود، ذلك الرجل، ذو الرائحة المثيرة لخيالات مدهشة، حين كنت أنام مع أبيك، كنت أغمض عينيّ فجأة، فأشعر بأنّ عشرات الرجال يدعكون جسدي، وأكاد أموت تحت لهاثه الرائع، وأحس أحياناً، بأني بين ساقي وحش، وحش أسطوري. إنك يا شمس تحمل ميزة واحدة، أنك ابنه!

حين بلغت جدار الخامسة عشرة، كانت قد تعرّضت لثلاثة إجهاضات متتالية في سنة واحدة، وكانت ثلاثتها من رجل واحد، لأنها أحبته، وآمنت، حين تحب المرأة رجلاً، وتنام معه برغبة وحب، تحمل منه، لذلك، فهي لم تحمل من أي رجل غيره، رغم أنها لم تترك رجلاً تقريباً، ممن حولها، عدا طُهر المخلص لصغيرته، محبوبته، وزوجته المطلقة.

إلا أن شمساً لم يمكنه إعادة ما سمعه من كلام جدار الفاسقة،

منتديات الكوكب العاشق

جدار التي حاولت التدخل في معرفته، أن المرأة حين تنام مع رجل، تحسّ بالطمأنينة، وأنه، وحتى يستعيد طمأنينته الضائعة، عليه أن ينام مع المرأة التي يحنّ إليها، حتى لو كانت تلك المرأة هي أرض ذاتها، وحاولت أن تقنعه، كامرأة، تفهم أرض، كامرأة أيضاً، أن أرضاً سوف تمتنّ له كثيراً، وتغفر له ولآبائه المتسلسلين جميع ذنوبهم، إن لذة استمرار أنوثة أرض، تقوّي من مهاراتها، وهي تستمد الحكمة والمعرفة من تلك اللذة، وتلك أحد الأسرار التي اطلعت عليها جدار، وهي تحضر إحدى الجلسات السرية لأرض، وتعلمت منها «الجنسية هي الأساس السري لكل الأشياء»[٧] لأن «النموذج الأساسي للمعرفة هو الاتحاد أو الدخول»[٨] «كشف العري»[٩] وإن الاتحاد الجنسي هو الحل الوحيد للخروج من حالة اللاطمئنان، وقد عالجت أرض الكثير من الاضطرابات لدى زائريها بنصائح «كشف العري» و«الاتحاد»، وقالت جدار إنها في علاقاتها الواسعة، المتعددة، مع الرجال، تخلّصت من خجلها، خوفها، تردّدها، كما تخلّص حرز وهو يكتشف جنسيته من التلعثم والخوف، وأنها، جدار، وجدت حلاً لمشكلة سمتها: الاغتراب.

ألا تظن أن أرضاً امرأة، امرأة أي ملذة، احتواء، احتضان، رحمة، غفران، حكمة، معرفة، وأن أية امرأة في الأرض، حتى أرض، تغفر لمن يقدّم لها المتعة، وتمنحه مقابل ذلك: المعرفة.

كان شمس يعتبر أرض قدسية لا يمكن أن يحلم بها أكثر من رؤية

---

(٧) من **الكابال**، ص ٢٣٠

(٨) المصدر نفسه، ص ٢٣١.

(٩) المصدر نفسه، ص ٢٣١.

وجهها في المرآة، ولا أدري، بوصفي إحدى كاتبات هذا العمل، مدى سلامة وجهات نظر جدار، إن كانت تعبّر عن رأيها الشخصي المستمدّ من تجاربها، أم من خلال حواراتها وجلساتها الطويلة مع أرض، أم استنتاج خاص منها، لمواقف أرض.

وأنا شخصياً، لا أعتقد أن أرضاً امرأة خارج النزوة الجسدية، مهما علا شأنها، إلا أني لست متأكدة فيما إذا كانت أرض تشكو شحّاً متعوياً، وقد هُيئ لها ما لم يُهيأ لغيرها، إذ تستقبل المئات من الرجال، وتودع المئات منهم، ولا يدخل في عملي، وليس من شأني، معرفة، أو تدوين أسرار أرض، أترك لجدار فعل ذلك، وهي تلمّح كلما غضبت، أن أرضاً، كائنة عادية، وربما كانت أرض قد رأت في جدار، ذلك الكائن النموذجي الذي يجب أن تكونه المرأة: «كشف عري» و«معرفة جديدة»، قوة، جرأة، إقدام، معرفة، تحدّ، امتلاك.

منتديات الكوكب العاشر

أيها العبد الذي يذرف دموعاً،

أيها العبد الذي يذرف،

أيها العبد الذي،

أيها العبد،

أيها،

أنا قريبة، والطريق إليّ مسكونة بالأمان،

مدّ يدك وتناولني، وتطهّر من العصيان،

أغفر لك ذنوبك، ونبدأ صفحة جديدة،

كان شمس يمشي متتبعاً خطوات غصنه اليابس / عصاه، الذي وجده أسفل شجرة البلوط، وكان يحفر أينما يجلس أو يسير، كأنه سيعثر على مرايا، أو إجابات عن أسئلة تؤرقه، أو إلهام ما، يحل أزماته، ويخرجه من تلك الكآبة العميقة.

وحين اقترحت عليه إغماء، جدته، في لحظة واعية نادرة، أن يصحبها إلى المرعى، مع جديها المدلل، وافق على اقتراحها، ورافقها إلى المرعى، وقد أسعده ما رأى، ومنحه شيئاً من اطمئنان، المشهد الواسع لأغنام ومرعى أخضر ملون، ومساحات واسعة، وغناء إغماء، المحزن الممتع، تلك اللذة المحزنة، أو الحزن اللذيذ، كان يتوق ليحيا تلك المشاعر المتناقضة، وهو يسمع غناء إغماء، وحين انتابتها حالتها المألوفة، الملاصقة لاسمها، اصطحب جدي جدته، وسارع بترك المرعى قبل المغيب، فيصبح كلاهما، في الغيبوبة.

وفي طريق عودته، مرّ شمس أمام دار العجوز زوابع، وكان يمر من ذلك المكان للمرة الأولى، ست عشرة سنة، لم يمر خلالها من ذلك المكان، اليوم فقط، ثمة إحساس غامض، انتابه أثناء مروره، إحساس بالراحة، بالرغبة في الجلوس جوار السور، مُجلساً جديه جواره، جدي جدته، وحين أخذت الشمس تميل نحو اللون البرتقالي، أسرع شمس بالانصراف، مندهشاً من الإحساس العميق بالارتياح، وكأن الكآبة نسيته في ذلك المساء.

وصار شمس يذهب يومياً إلى حيث قاده العود المتساقط من شجرة البلوط، وكان يمضي وقتاً هادئاً قبل المغيب، ويسرع بالرحيل، إذ ما إن يصل القلعة الثالثة، تلك التي بناها حرز، حتى يسقط في غيبوبة تستمر حتى الصباح، ويخرج منها، مع إطلالة الشمس.

منديل الكوكب العاشر

وقد لاحظت ذهول ذلك التقدم في حالة شمس، وذهبت إلى أرض تشكرها على السلام الذي منحته لشمس، ورجتها أن تخلّصه من الإغماءة، إغماءة المغيب.

ومدت أرض رأسها من النافذة، وتحدّثت إلى ذهول التي لم تنسَ أن تأخذ معها سلال التين والكرز والعنب، وخموراً، وألباناً، تقدّمها هدية لأرض عربون احترام وإيمان بها، حيث كانت تلك عادة الحاجّين إلى أرض، ويأتي الفقراء والمحتاجون، ليجتمعوا عند مدفن عناد، ويأخذوا حاجتهم، دون طمع، أو جشع، ضمن حاجتهم للطعام واللبن والخمور، كما كانت زوابع قبل عثورها على غياب، تملأ زجاجات الحليب وترمي بها خلف الدار، ولكن أرضاً فاجأت ذهول، ذهول التي انذهلت أيضاً، أكثر مما احتمل اسمها، إذ قالت أرض:

لقد عمّ السلام قلعتكم، ولكن لا يمكن اقتلاع أثر جدته إغماء، وقد أخطأت أمه إذ سمته شمساً، فورث صفاتها، يغيب مع غيابها، ويظهر مع شروقها، وتظل حاله هكذا، حتى يقع في الحب!

عادت ذهول حزينة، تدعو لشمس أن يعثر على امرأة، تخلّصه من إغماءاته، بعض آثار جدته إغماء، وبعض آخر من صفات اسمه.

أيها العبد الذي يذرف دموعاً،

أيها العبد الذي يذرف،

أيها العبد الذي،

أيها العبد،

أيها،

أما هي، غياب، فقد عاشت وسط الفراشات البيضاء، التي غطّتها كلما نامت، كشرشف أبيض، وحامت حولها في يقظتها، إلى أن اعتادت غياب على البياض.

وبسبب الوحدة الشديدة التي أحيطت بها طوال الخمسة عشر عاماً الماضية، فقد شبت غياب على مخيلة مدهشة، مذهلة، زوبعية، تستحق أن يُصنع لها حرز خاص يحصّنها من فساد الحسد،

فقد أبدت الصغيرة ميولاً نحو خلق شخصيات تساعدها في تزيين وحدتها، وتنسيها أنها وحدها، مع العجوز زوابع، الحزينة، الكئيبة، المتجهّمة، تعيشان وحيدتين في منزل كبير، بعشرات الغرف، والكثير من الأثاث الفاخر.

وفي غرفة الأستاذ ظهور الراحل منذ سنوات سبقت مجيئها، عثرت غياب على منظار كبير، كانت ترى منه جميع السكان، تعرفت إلى إغماء وعشيقها أقدار، وسماء، ومساء، وزلزال، ورؤية، ونجمة، وجدار، وذهول، وشمس.

وكانت في بداية نشاط مخيلتها، تصنع لعباً ودمى من قماش، وتضع لها عيوناً من خرزات زرقاء (مثل عينيها)، وسوداء، وحمراء، وصفراء، وتخيط لدماها الملابس وتصنع لها الشعر الملوّن.

وحين بلغت الصبية الثالثة عشرة، كانت غرف الدار قد امتلأت بالدمى، وكأنها قد أقامت مشغلاً للّعب، وبغتة، حين زارتها أرض في المنام، اكتشفت طريقة مهمة، وجديدة، للتسلية، وخلق أشخاص حولها، يملأون المسكن حيوية ونشاطاً.

منتديات الكوكب العالمية

[دخلت امرأة غير واضحة المعالم، لم ترَ غياب وجهها، بل رأت شكلها من الخلف، أحضرت مسحوقاً أبيض اللون، وسمته بصوت مسموع «جبصين» وعجنته بالماء، وشكّلت منه وجهاً يشبه وجه غياب].

وحين أفاقت غياب من النوم، هرعت إلى تلك الأكياس المكدّسة في المخزن، أخذت حفنة من تلك المادة البيضاء، وجبلتها مع الماء، فعثرت على كتلة متماسكة، كما في المنام.

[في اليوم التالي، جاءت أرض في المنام ـ لم تعرف غياب أنها أرض ـ وزوّدتها بتفاصيل، الماء والطين، ثم الجبصين].

وتطورت نشاطات مخيلتها، فانتصب خلال عامين، عشرات الأشخاص في حديقة المنزل، كلما رأت غياب أحداً من المنظار، صنعت له تمثالاً، فعاشت معها، أسماء، سماء، نجمة، حداد، ذهول، آفاق، اشتياق، أسرار، رؤية، عماء. ثلاثة وعشرون تمثالاً لرجال القلعة، إذ كان عناد قد توفي، وكان طُهر خارج القلعة، وأكثر من خمسين تمثالاً لنسائهم، وواحد لذهول، وآخر لجدار، والأخير الذي اشتغلت به، كان شمس.

إلا أنها، وقبل أن تكمل تمثال شمس، أضاعته، ولم تكن تعثر عليه في القلعة، لتتمّ صناعته، وحين أدارت منظارها حول الدار، فوجئت به يمر قرب مسكنها، ويجلس ليرتاح جوار السور.

تركت غياب المنظار وهرولت نحو السور، حيث كان يقف في الطرف الموازي، من الخارج، شمس.

منتديات الكوكب العاشر

كانت تتحدث إليه، تناديه، لكنه لا يسمعها.

إلى أن سئمت، وضجرت، وحزنت بشدة.

فاتّجهت إلى المنظار، رأت وجهاً يبتسم لها، ذُعرت الصبية ورمت المنظار من يدها، ثم عادت إليه تتلمّسه بحذر، وأعادت النظر منه، فرأت الوجه ذاته، وصوت مُسْمِعٌ لها، من المنظار يتحدث، وفي غرفتها تسمعه:

«اعلمي يقيناً» أني أرض، جدة الجميع، في المنام جئتك، والعمل بالجصّ عرّفتك، فلا تحذريني، ولا تخافي، غياب أنتِ من نسلي، فاهدئي.

وعرفت غياب، أن المرأة التي زارتها في المنام مرتين، ولليلتين متتاليتين، ولم ترَ وجهها في المرتين، كانت أرض!

صنعت غياب تمثالاً لأرض، ووضعته على قمة من الجصّ الملوّن، قمة ترتفع عن بقية قواعد التماثيل، وكأنها في المقام الأعلى لكل التماثيل الأخرى،

وضعت شالاً ملوّناً على عنق تمثال أرض، كما رأتها في المنظار، ووضعت على رأسها تاجاً من أزهار الحديقة / ولاحظت غياب في ما بعد أن الورود الموضوعة على رأس أرض كتاج، لم تذبل مع مرور الوقت، وكأنها لم تُنزع عن أغصانها، وتربتها، وغذائها.

وصعدت إلى تلك الغرفة، المنبع الأول لقوامها الذهني، غرفة ظهور، إذ لم تترك غياب شيئاً في الغرفة دون أن تطّلع عليه، وتتعلّمه بمفردها، التشريح، الحساب، التاريخ، اللغات، الخرائط والمصورات.

منتديات الكوكب العاشر

وكانت غياب تقضي أوقاتها بين العبث بكتب ظهور، وصناعة التماثيل، وفي أوقات الفراغ، تلهو بالمنظار، كي لا تشعر بالمزيد من الوحدة، غياب تلك الفتاة التي كانت أجمل من تماثيلها، وكأنها تمثال دون عيوب أو أخطاء، وكانت حين تصنع تمثالاً لأحد، تقول لزوابع: «ها إني أصلّح أخطاء الخلق» فتصبح التماثيل أجمل من أصحابها، فهي لا تُظهر كرشاً، أو أصابع معوجّة، أو وركاً كبيراً لفتاة ذات نهد صغير، أو حتى أصابع كبيرة وأقداماً كبيرة تتعارض مع حجم ليس ضخماً، كأرض. كانت تصنع أشخاصاً يسلّونها، تصادقهم، وتطلق عليهم الأسماء ذاتها التي تسمعهم يتبادلونها، إذ كان منظارها يقدّم لها الصوت، والصورة. وعجّت الحديقة بكل شخصيات هذه الرواية، عدا طُهر وحرز لابتعادهما، وعناد وحرث لرحيلهما، وزوابع وغياب، لوجودهما أساساً في ذلك المسكن / المشغل، وحاولت صنع تمثال لأقدار، لكنها فشلت، لأنه كان دوماً، عصياً على التشكّل والتشكيل!

كأن غياب المولعة بالبياض، وهي تصنع تماثيل بيضاء، ثم تخيط لها الملابس التي تخترعها كما تتخيّلها، لا كما ترى لابسيها الفعليين في المنظار، كأنها تسعى لخلق جديد، هي سيدته، وكأنها خالقة جديدة، تعيد صياغة الخلق الأول، دون أن تنسفه أو تلغيه، أو تخلق أشخاصاً جدداً، بل تصلّح الخلق الأول، عبر صيغة جديدة.

فها هي تُلبس إغماء ثوباً أخضر شفافاً يُبرز جمال نهديها وساقيها، بينما كانت إغماء قد اعتادت ـ حسب المنظار أيضاً ـ على ارتداء أسمال قديمة، قاتمة، وها هي تخيط لـ حداد ثوباً ورديّاً، بلون ورود الحديقة، تنتشر قلّة قليلة من الزهور الصفراء، فيما كانت حداد، وحسب المنظار أيضاً، تلبس ثوباً أسود لا تغيّره ولا تبدّله، مهما

منتديات الكوكب العاشر

كانت المواسم والفصول، ولم تجد لأرض لباساً، أجمل مما استعملت أرض، فوضعت لها الشال ذاته، وتركتها عارية، دون ثوب يغطي بقية جسدها، عارية إلا من شال، وتاج الورد.

كانت غياب تتناول فطورها في الحديقة، جالسة عند قاعدة تمثال أرض، داعية النساء بأسمائهن، والرجال بأسمائهم، لمشاركتها الفطور، مازحة، مداعبة: هيه جدار، ألا تشربين معي الشاي؟ أنت من جيلي، ويجب أن نصبح صديقات، وأنت يا شمس ـ لتمثاله اللامكتمل ـ اقترب واجلس جواري، أعرف أنك تحب كثيراً البيض المسلوق. خالتي إغماء، أنت لا تأكلين أبداً، انظري كيف تزدادين نحولاً، تعالي وكلي معي، أوه العمة حداد، الذي يراك يظن أنك ستموتين غداً، كم يبدو عليك الجوع، خذي هذه التفاحة والتهميها، هيا. وتقذف بالتفاحة، ممررة إياها عبر التماثيل المنتصبة بشكل دائري، حول تمثال أرض المركزي.

وقبل أن تشبع، لكثرة ما تثرثر معهم، ترمي بالطعام، وتأخذ بالبكاء، فتهرول زوابع: ماذا بك، عدنا! وتأخذ غياب ببكاء يقطّع قلب زوابع:

ـ ارحمي سنّي، ألا ترين أني امرأة مسنة، ولا أقوى على الحزن؟ ارحميني، أنا لا أحتمل حزنك.

ـ لماذا لا تفتحين البوابة، لقد ضجرت من الوحدة، سأجن!

ـ انظري، حولك عشرات الأشخاص، كل هؤلاء حولك، وتشعرين بالضجر!

منتديات الكوكب العاشر

ـ إنهم لا ينطقون، لا يبادلونني الكلام، أتحدّث وحدي، لا أحد منهم يقترب مني، لا أحد يتناول معي الطعام، لا أحد يشاركني قهوتي، لا أحد يمسح دموعي، أو يهمس لي، لقد ضجرت.

ـ الحياة خارجاً ليست أفضل، ليسوا كما تظنين، يمسحون الدموع، ويقولون الكلمات الطيبة، إنهم أشرار، إن أحدهم هو ذئب بالنسبة إلى الآخر، لقد كان أخي ظهور، ذلك الذي أخذتِ علومك عنه، يكرر قول أحدهم «إن الإنسان يصنع الشر، كما تصنع النحلة العسل» لذلك، فإن ظهور، ذلك الذي أخذتِ علومك عنه، كان دون أصدقاء، ولم يتزوج أو ينجب أولاداً حتى، فماذا تنتظرين أنت من الناس، بتجربتك الصغيرة هذه في الحياة.

ـ إني أراهم يلهون، انظري، ها هي جدار ترقص، وجوارها نجمة تصفّق لها، انظري إلى حداد تشرب القهوة، وإغماء تغني لها، إني أراهم وأسمعهم، لكنهم لا يحسون بي، لا يرونني، ولا يسمعونني، إني أتحدث إليهم فلا يسمعون، أريدهم أن يأتوني، أن أذهب إليهم، ألاقيهم، انظري إلى جدار، إنها في مثل عمري، تندسّ بين سيقان النساء، والرجال.

ـ هذا ما ينقصك هيه؟ لقد أجرتُ ثلاثة إجهاضات كما أعلمتِني أنت بنفسك.

ـ وما في ذلك؟ إنها سعيدة.

ـ لا تأتي السعادة من الناس، صدّقيني، صدّقي العجوز زوابع، الناس لا يجلبون سوى الأذى والمضرة، السعادة فيك، عندك، لدى غياب ذاتها، وليس لدى أحد آخر.

ضجرت، سوف أموت إن بقيت هكذا، أريد بشراً حقيقيين، لا أريد هذه التماثيل، وكادت تحطّم التماثيل، كما تفعل في كل يوم، تغضب، فتهوي بالفأس على بعضها، وحين تهدأ، تعيد تكوينها، ولكنها سمعت صوت أرض في هذه المرة «لا تفعلي يا غياب، الفرَج قريب» وتصرخ غياب: متى، منذ سنوات، أنت ترددين هذا الكلام، سئمت، متى؟!

وتبكي متّجهة صوب منظارها، تراقبهم حاسدة لقاءاتهم، اجتماعاتهم، مشاكساتهم، مشاجراتهم، صلحهم، صخبهم، ضحكهم.

ووقفت عند حداد أكثر، إذ كانت تلاحظ أمراً يسلّيها، أنها كلما نظرت إلى حداد، سرت رعشة في حداد، لاحظتها غياب، فتسألها إغماء «ما بك؟»، «أشعر بأن ثمة من يراني» كانت تجيب حداد، كلما نظرت إليها غياب.

كانت تستيقظ في الصباح الباكر، تتثاءب من الضجر، وتهرع إلى منظارها، لتقول لكل من تراه «صباح الخير»، وترسل قبلات إلى إغماء ونجمة وجدار وشمس وبيداء وزلزال.

وكانت معجبة كثيراً بـ جدار، إلى درجة الحسد، وتحلم أن تفعل مثلها، وكثيراً ما رأت في مناماتها، أنها ترقص عارية على مدفن عناد، وحولها يلتفّ الرجال، وأنها تخضع للإجهاض!

وقالت زوابع، إن المنامات تُفسّر بضدها، هذا يعني أنك ترفضين سلوك جدار، وتخافين أن يلتف الرجال حولك، ليشاهدوا عريك، تخضعين لإجهاض تهابينه.

مسلديات الكوكب العاشر

وقالت غياب: قرأت في كتب ظهور، أن المنامات تفسّر حقيقة المرء، أي إن لدي رغبة في تقليد جدار، العري، الرقص، الرجال، الإجهاض.

وكانت زوابع تخاف مما تسمع، ولا سيما حين تنظر في عيني الفتاة، فتجد صورة غياب مرسومة فيهما، وهي عارية، متمددة على الأرض، وفوقها شاب، يمزج عريه بعريها.

كانت تلك المشاهد واضحة على شاشة العرض الزرقاء، داخل الحرزتين الزرقاوين، إلا أن زوابع لم تكن تحكي لغياب عما يرتسم في عينيها، إذ كما سبق وقلت الإشارة إليه، إنه حين قبّلت أرض عيني الصغيرة في المنام، تركت فيهما شيئاً غير عادي، شيئاً من بريق، وتفسير، فأما البريق، فقد تم الحديث عنه، وأما التفسير، فقد حان وقته.

إذ كانت زوابع {وكل من ينظر في عيني غياب، وإلى ذلك الوقت، لم يكن قد رآها سوى زوابع}، فترى الصور القادمة مرتسمة على تلك البلورتين الزرقاوين، كشاشة عرض تعرض الأحداث القادمة.

وارتعدت زوابع من تلك الصورة، وأحكمت إغلاق النوافذ والأبواب، وعلّت سور الدار، وصلّحت قفل البوابة الصدئ، صانعة قفلاً أكبر، وأمتن. وحين نظرت إلى شاشة العرض الزرقاء، رأت المشهد ذاته: شاب ذو شعر أشقر، يعتلي الصغيرة غياب!

وراحت غياب تتشاجر وتبكي أكثر من قبل، مصرّحة بضجرها من الوحدة، خاصة بعد أن لمحت شمس جوار سور الباب، ولم تستطع التحدث إليه، إذ إنه لم يسمعها من خلف الجدران والأسوار!

مما دعا زوابع، للتسلل سراً، في حلكة الليل، بينما كانت غياب تغطّ في نوم عميق، تسلّقت زوابع سلّماً خشبياً، كانت قد دفنته في الحديقة خشية عثور غياب عليه، والفرار بواسطته، وبذلت العجوز جهداً يفوق طاقتها بكثير، وتسلقت السلم مرتعشة الأقدام، ثم سحبت السلم وهي تجلس على حافة السور، وقلبته إلى الطرف الآخر، لتعتليه حين تعود، وفرّت راكضة، قبل أن تكتشف غياب غيابها، وطارت إلى أرض، وقفت جوار رأس عناد، تحت نافذة أرض، باكية بصوت منخفض، حتى ظهرت لها أرض، وأخذت زوابع تحكي لها عن معاناتها مع الفتاة الغاضبة، التي تريد مغادرة الدار، والالتقاء بالناس، وحاولت أرض تهدئة زوابع، وأكّدت على منعها، لأنها تعرف، ما إن يُفتح باب البوابة، حتى تموت الفتاة، يجب منعها من الخروج، ومنع أي كائن من الدخول عليها، لتؤخر عنها الموت، قدر المستطاع.

في تلك الأثناء، لم تصدّق غياب ما رأته، فكأن قوى غامضة، متعاطفة معها، أقوى من زوابع، ومن أرض ذاتها، قد خضعت لرغبة الفتاة، إذ وهي تغطّ في نومها، سمعت صوتاً يناديها، ويداً تداعب شعرها وجبينها، «أيتها الصبية النائمة، استيقظي». كان صوتاً حقيقياً، ويداً بشرية، غير يد زوابع الخشنة العتيقة، ووجهاً جميلاً باسماً، غير وجه زوابع المتجهّم، وصرخت غياب بدهشة وسعادة: جدار!

وأطلقت جدار ضحكة مصحوبة بلذة الكشف: أتعرفينني؟!

قفزت غياب من سريرها: كيف جئت؟

ـ رأيت سلماً مسنوداً إلى الجدار، صعدت، وقفزت نحو الحديقة، ودخلت إلى هنا، فرأيت الأميرة النائمة.

منتديات الكوكب العاشر

وقاطعتها غياب، التي هرعت بثيابها البيضاء، فأيقظت الفراشات البيضاء من غفوتها، لتحوم حول الفتاتين، ونظرت من المنظار، فرأت سلماً مسنداً إلى الجدار، من خارج المنزل، واقتربت جدار من غياب، فأعطتها تلك المنظار، واندهشت جدار إذ رأت: أمها، جميع نساء القلعة، ذهول، شمس.

ـ من هنا رأيتني، وعرفتني!

ـ نعم، كنت أطلب من جميع القوى التي تستطيع مساعدتي أن ترسلك لي، لقد أحببتك كثيراً، كنت أتحدّث إليك أكثر من أي أحد آخر، إلا أنك لم تسمعيني.

وتسلقت جدار، كما دخلت، دون حاجتها إلى سلم.

وحين عادت زوابع حزينة، ألقت نظرة على غياب، لتجدها، والفراشات، نائمات، فاتجهت إلى غرفتها، وقد طار النوم من عينيها، من شدة حزنها.

وفي الصباح، حين نظرت في البلورتين الزرقاوين، دُهشت لما رأت، كان البريق يشتد، معبّراً عن الفرح، وكانت غياب مملوءة حيوية وابتساماً، وعلى تلك الخرزتين، ارتسم مشهد فتاة في مثل عمر غياب، تجدل ضفائر غياب، وتُلبسها ثياباً ملونة، نازعة عنها ملابسها البيضاء.

فأحكمت زوابع أكثر وأكثر، إغلاق البوابات، وتأكّدت من دفن السلم في عمق أعماق التراب.

{كان عليه أن ينصاع لصيغة الرواية، كصيغة ثالثة، جاءت لا

منتديات الكوكب العاشر

تفيده، وتضرّه قليلاً، لاضطراره للانتظار، وكأن الانتظار عقاب فرضته الراوية، يقبله حرز، لا مجبراً، بل، كرغبة ضمنية، في أن تكون الصيغة الثالثة، هذه الرواية، أكثر قدرة على منحه خلاصاً لم تقدمه الصيغتان، لا الأولى السابقة له، لوجوده في الحياة، ولا التالية، المصوغة له، المصنوعة لتخليصه!} ← مقطع سابق!

أطلقت إغماء لقب الجرذ على حفيدها، لأنه كان يحفر أينما سار، وكأن الغصن يسير أولاً، ثم يتبعه شمس، وكم حاول الحفر تحت ذلك السور، حيثما يشعر بالارتياح، ورأت جدار شمساً من منظار غياب، وابتسمت لـ غياب، لأنها رأت صورتين متتاليتين في البلورتين، شمس وغياب على السرير، وجدار وحدها، في مشهد منفصل، تجلس في غرفة غياب، ممددة على الأرض، عارية، تدوّن في أوراق، وحين تغلق الكتاب، تقرأ على غلافه عنوان «تلك الصيغة » فتفسّر عيناي غياب ما ينتظر جدار، وما سيؤول إليه قادمها، عرفت جدار أنها لن تكون بعد كل هذا الجنون والفوضى والإجهاضات المتتالية المتسارعة، إلا روائية[١٠]، شاهدة على أبطال القلعة، والجدة الكبيرة، أرض.

عرفت جدار ذلك، إلا أن زوابعَ لم تعرف كيف انتفخ بطن غياب فجأة، وكانت تسألها «لماذا بطنك يكبر؟» فترد غياب «من الطعام، والملل»، ولمّا تجاوز الانتفاخ الحدّ الذي يمكن نسبه إلى الطعام، ارتعدت زوابع من شدة الرعب، بينما كانت جدار تكتب مسودة هذه الرواية، ممددة على الأرض في غرفة غياب، الممددة على

(١٠) لا بأس، كبداية، أن تكون أولى أعمالها، بالمشاركة مع غيرها، جوزفين، وأنا.

سريرها، مثرثرة مع الفتى الأشقر، شديد الكآبة، وقد طردت عنه زياراته لغياب، الكآبة أولاً، ثم، إغماءة المغيب!

أيها العبد الذي يذرف دموعاً،

أيها العبد الذي يذرف،

أيها العبد الذي،

أيها العبد،

أيها،

منتديات الكوكب العاشر

لم يصدّق شمس ما رأى، كل نساء القلعة كن موجودات في الحديقة، كأنهن موقوفات عن الحياة، وكأن لكل منهن مثيلاً من جبصين، حتى هو، كان له مثيل.

علّمها العزف على قيثارة أبيه، وعلّمته صناعة التماثيل، وشرحت له ما تعلّمت في غرفة ظهور من جغرافيا ولغات ونبات وحيوان، وحين كبر بطنها كثيراً، وراحت تتلوّى من الألم، فقدت زوابع عقلها مجدداً، إذ أدركت أن الصبية تنتظر جنيناً، ولم تعرف كيف وصل الجنين إلى أحشاء غياب.

وعادت زوابع إلى حالتها قبل عثورها على الطفلة في اللفّة، واستعانت جدار بإغماء، فتحت البوابة التي كسر قفلها الشاب الأشقر، وهرولت إغماء نحو الصبية الماخض.

وحين سمع الأربعة بكاء المولود ، شعروا بالارتياح، إغماء وجدار وشمس وغياب. وغسلت إغماء الطفل، كما ساعدت حداد من قبل، وفوجئت إغماء بالطفلة، كانت سوداء، زرقاء العينين، مثله تماماً، ذلك الرجل الذي وطأها عنوة، وكان يُدعى أقدار.

أخذت إغماء الطفلة، غير مصدّقة، وأخذت تصرخ: «هي لي، هي لي» مهلهلة بالتسوية المتأخرة، إذ قال لها حين حملت: إن كانت بنتاً، فهي لك، لأنها من جنسك، وإن كان صبياً، فهو لي، وجاء حرز آنذاك...

كانت الطفلة ترث مواصفات أقدار تماماً، وكأنها ابنته، لا ابنة شمس وغياب، سألتها إغماء: كيف جئت ببنت، بينما جئت أنا بصبي؟ فأجابتها غياب، حين يحب الرجل المرأة أكثر مما تحبه، يأتي الجنين من جنسه، والعكس صحيح، لقد أحببت شمس أكثر مما أحبني!

ولم تُبد غياب ممانعة في احتفاظ إغماء بالطفلة، بل قالت لها: خذيها، لقد فشلت في الإجهاض كما فعلت جدار، في المرة القادمة، سوف أنتبه أكثر، خذيها، إنها لا تلزمني في شيء!

هرولت إغماء وهي تغادر البوابة، كما هرولتها داخلة، محتضنة الصغيرة: آثام!

أيها العبد الذي يذرف دموعاً،

أيها العبد الذي يذرف،

منتديات الكوكب العاشر

أيها العبد الذي،

أيها العبد،

أيها،

كان الثلاثة يقضون أوقاتاً جميلة معاً، جدار تكتب، متوقّفة عن مغامراتها العاطفية والجسدية، متفرّغة لنشاطها الروائي، أما شمس وغياب، فكانت قصوى تسليتهما: العجوز زوابع، التي شاخت وهرمت، ولم تعد تستطيع قضاء حاجاتها، فكان الشابان يعتنيان بها وكأنها طفلتهما، يرضعانها اللبن بالملعقة، ويطهوان لها الحساء السهل التناول، بعد أن فقدت أسنانها، ويغسّلانها، ويمشطان شعرها، ويغسلان ملابسها، وكان شمس يجد في حمام زوابع متعة أكبر من متعته وهو يرى غياب عارية، متمددة تحته، وكان يشعر وهو يصب الماء على زوابع، ويدعك شعرها بالصابون، أنه ليس أمام زوابع، بل أمام أرض!

ومرت عليهم سنوات، على الثلاثة، وصارت زوابع تُنسى وتُهمل من قبل غياب، بينما يطاردها شمس بالحساء والحليب والحمام.

ترك شمس قلعته نهائياً، وهجر ذهول، وعاش مع غياب وزوابع، سنوات، أجرت خلالها غياب إجهاضات متتالية، من رجال متتالين!

وتباحث شمس وجدار وغياب مطوّلاً في أمر تلك الصيغة، المتلوّة عليهم، واحداً تلو الآخر، عدا غياب، حيث فشلت زوابع في حفظ الصيغة، فكانت تبدأ بها، ولا تعرف إتمامها، وتساءل شمس عن تعريف الفعل الآثم، وسخرت جدار، الصديقة المميزة لأرض:

منشورات الكوكب العاشر

ـ انظر إليّ، من أكثر مني في ارتكاب الآثام / إذا كان الإثم هو الفعل الجسدي، كما تتصوّره أنت، فأين رائحة فسادي؟ وأين الموت؟ ها أنا أكتب متمتّعة بالسلام الكامل؟

وهجر شمس، كما هجرت جدار، وقبلهما طُهر ورؤية «تلك الصيغة»، وانتبه كل منهم إلى صيغته الخاصة، الفردية!

آمرك فلا تأتمر.

أيها العبد إلى متى تحنث بوعدك؟

تستسمحني وأغفر لك. ثم تحنث أيضاً.

آمرك فلا تطيع.

ألا تدرك أنك تسير صوب رمادك؟

منتديات الكوكب العاشر

ماتت زوابع، وضجرت غياب من صنع التماثيل، وأخذت تبحث عن نموذج جديد لتصنع له تمثالاً، حتى الصغيرة «آثام» كانت قد صنعت لها تمثالاً، وضجر شمس لعدم وجود ما يشغله بعد موت دميته، وتسليته: زوابع، وحين عاد حرز إلى القلعة، بعد أن استدعته جدار، وحدّثته عن مهارات غياب، لتصنع له تمثالاً، يخلّده في تلك الحديقة، وقالت جدار لـ غياب: تكمن مهارتك الآن، في صياغة رائحته الفاسدة في تمثال! ورأت في الشاشة البلورية الزرقاء، مشهداً مرتسماً بدقة: حرز وغياب يجتمعان اجتماعاً يحررها من غيرتها من تلك المتعجرفة الجادة، دهشة!

وحين دخل حرز على الجميلة غياب، ونظر في الخرزتين الزرقاوين، رأى مشهداً كاد يفقده صوابه من الفرح: فرقة أوركسترا ضخمة، تعزف، ويقودها حرز!

أولع حرز بتلك الصبية المغرمة بالأبيض، التي تحوم حولها الفراشات البيضاء كيفما استدارت، وأضاع صوابه وهو يرى ذلك البريق المذهل يشع من بلورتيها الزرقاوين، اللتين، ترسمان، كمرآة، أو شاشة عرض صور، مشاهد تفسّر مستقبل الناظر إليهما / فيهما.

ولكنها، غياب، شعرت بنفور غامض منه، بكى حرز عند قدميها، كما بكت دهشة عند قدميه، وكما بكت حداد من قبل، إلا أنها، وبقسوة صدّته، وبإصرار ردته، وسببت له جروحاً لا تندمل في كرامته، فشاع غرامه، وشاع صدها، وجاءت حداد، المكسوّة بالسواد، لتقبّل تينك الخرزتين الزرقاوين، عيني غياب، المكسوّة بالبياض، وإذ نظرت إلى تلك البلورتين، ذُهلت بما رأت، وكانت قد نسيت ذلك المشهد: إغماء وحداد تمسكان بطفلة، تجلسان على حافة البحيرة، تحاولان إخراج جثث الفراشات المنتحرة على ماء البحيرة!

لم تعتد غياب أن تُجبر على ذلك، ولم يعتد حرز أن يجبر امرأة على ذلك، إلا أن ولعه بها، كان أكبر من قدرته على تفهّم / تحمّل / تجاوز رفضها، أو الصبر عليها حتى تلين، إذ أقسم إنها حلمه الكبير، وإنها المرأة التي انتظرها طوال حياته، ففعل ذلك مرغماً، وأحسّت غياب بقهر مميت، بعد أن تذوّقت لذة حرية ذلك، اشمأزّت من عنوة ما حصل، حتى أن الفراشات البيضاء، سقطت ميتة على الفراش الملوّث برائحة فاسدة.

حين دخلت جدار الغرفة، بوغتت بما رأت، وما شمّت، الرائحة مقرفة وكأنها في أماكن الخلاء، بينما كانت غياب مسمّرة على حافة السرير، وقد ملأ رأسها وجسدها جميعه، جثث الفراشات البيضاء، التي صنعت تمثالاً أبيض من فراشات بيضاء ميتة، وإذ

اقتربت من غياب، وأزالت الفراشات من فوق عينيها المفتوحتين، رأت حرزاً يمدّ فراشاً من قشّ، يتمدد فوقه، ويضرم فيه النار!

**تجري أحداث هذه الرواية، بأزمنتها المتعددة، على خلفية مشهد احتراقه، أجل، يظل مشهد الاحتراق ثابتاً، بينما تتحوّل أزمنة الروي، وتتعدد مستويات الروي، وتتبختر راويات العمل، على خلفية آلامه.**

سمع حرز صوت جدار المفجوعة بصديقتها، فهرول حافياً من قلعته إلى دار غياب، تاركاً قيثارته، ونوتاته، وسلالمه الموسيقية، وهو يؤلف لحناً {لا يعرف أنه الأخير} يهديه إليها، سماه «الصيغة الجديدة»، دخل مضطرباً كمجنون، فحطّم بدخوله الأرعن معظم تماثيل غياب، إذ اصطدم وارتطم، وكأنه أضاع طريق الدخول، ووصل لحظتها شمس الذي سمع صراخ جدار.

كانت الدماء تسبح في الغرفة، فراشات حمراء، ومياه خضراء سالت من البلورتين الزرقاوين، وامتلأت الغرفة، بعشب أخضر، ومياه خضراء، وفراشات حمراء، تسير حزينة داخل الماء، كضفادع أو أسماك، لولا أجنحتها، لبانت كذلك.

تسمّر الجميع، حين شعّ ضوء قوي في الغرفة، واستداروا ليروا، وللمرة الأولى، خارج غرفتها، وثمة من يراها، للمرة الأولى، كشمس، استداروا ليروا جميعاً أرض تقف في باب الغرفة، أشارت لشمس أن يُنزل غياب إلى الأرض، وسقطت الجدران، وسطعت شمس قوية في المكان، ولوحظ وجود جناحين صغيرين تحت إبطي غياب، حيث سبح شعرها الأحمر، كشقائق حمراء، على الرداء الأبيض كالبدء!

منشورات الكوكب العاشر

ورأى الجميع المشهد الذي رأته جدار مرتسماً على البلورتين قبل أن تفقدا بريقهما: حرز ممدد على سرير من قش، تضطرم فيه النار، ونظر الجميع إلى حرز، ففهم ما ينبغي فعله!

وبدأ «الكورس الأبدي» الذي سبق أن ظهر في الحلم، لينشد الصيغة، إلى أن خيّل لنا، نحن كاتبات هذا العمل، أن جميع أبطال هذه الرواية، عدا حرز، راحوا يرددون لحن الصيغة، وكأنهم جزء من الكورس الأبدي.

وبلمح البصر، غاب السرير، وغابت ملامح المكان، ولم يبقَ سوى أرض خلاء واسعة، تتوسطها عين ماء، وحسب، فيما تضاءلت غياب، وهم ينظرون خائفين، حتى غابت غياب عن النظر، ولم يبقَ منها غير فراشاتها الحمراء، وثوبها الأبيض.

أما حرز، فقد اصطدم أثناء خروجه الأرعن، بما تبقّى من تماثيل، وشرخ أرض إلى نصفين، ولحقت به جدار، التي ظلت تحبه وتعشق تلك الرائحة الفاسدة فيه.

وصل حرز إلى القلعة الثالثة، مغبّراً ببقايا التماثيل، وبقايا لحنه الأخير، الذي أعطاه لجدار، ثمّ لمّ ما استطاع من قش، واتجه إلى حمام تلك القلعة، القلعة الثانية، قلعة عناد، حيث كانت أمه تحممه هناك، وتضربه، وحيث بدأت السطور الأولى لهذه الرواية، من هناك:

ألقى القائد نظرة أخيرة على كومة القش المعدّة كسرير، إذ مدّ فوقها بطانية عتيقة، وعلّى مكان رأسه، إذ يستلقي، فيتسنّى له أن يرقب المشهد كاملاً، وإذ استلقى، أشعل سيجارته ببطء، وأنهاها قبل

منتديات الكوكب العاشر

نهايتها، رامياً إياها بين أكوام القش المتكدّسة تحته، ليأخذ السرير القشّي بالاحتراق ببطء، محرقاً معه كل ما يتكدّس فوقه، من بطانية سوداء، وجسد القائد،

وسمع صوتاً يقول:

: ماذا أنت فاعل يا حرز؟

: ألا تعرفين؟

: لا أتوقّع ذلك منك يا حرز، قم، انهض واغتسل، ولا تكن أحمق طوال أيامك.

: لم يعد أمامي وقت، لقد كبرت، وأعرف أني لن أستطيع أي تغيير.

: لا تيأس يا صديقي، انهض وابدأ من جديد.

: لم يعد أمامي وقت، هي مرة واحدة، يحياها المرء، لقد بلغت الستين، فكيف أبدأ من جديد.

: تبدأ من جديد، بعد أن عرفت ما عرفت.

: لقد جاء ذلك متأخراً.

: لا شيء يأتي في أوانه.

: لماذا فُعل بي؟

: لم يُفعل بك «لقد جنيت على نفسك، ولم يجنِ عليك أحد».

: «تلك الصيغة» طاردتني، حتى شوشتني وبعثرتني وشكّكتني وأقلقتني، فقتلتني!

مقتنيات الكوكب العاشر

: لم تقتلك الصيغة، قتلك الإيمان.

: أهو إيماني، إثمي؟

: بلى، يا أغلى ما لدي، لقد تُليت الصيغة على الجميع: عناد وشمس، جدار وغياب، نجمة وإغماء، طُهر ورؤية .حتى حرث، فلم لم يفترش أحدهم سرير القش هذا، ويُضرم فيه النار.

: لقد خُدعت يا أناي.

: حسناً، وبعد أن عرفت ما عرفت، أتتمّ دور المخدوع.

: لم يعد أمامي وقت، مللت، يئست.

: لا تكن غبياً يا حرز، لا تُسعد تلك المرأة «ذاكرة» فتحقق صيغتها،
: لقد وشوشت جدتك بتلك الكلمات، وراهنت أن توقع أبناءها في الموت، وأنت تُكسبها الرهان، قم، انهض، اغتسل، وابدأ.

: لقد فشلت، وخسرت، لم يعد أمامي خيار.

: يقدّر لنا جميعاً: الفشل والخسارة، إلا أننا نصرّ على أن نختار، وحين نختار، نخرج من الأقدار.

: أيساعدنا الاختيار على تغيير الأقدار.

: كل من اختار، غادر الأقدار.

: لقد تأخر الوقت.

: لا شيء يأتي في أوانه، لا شيء يأتي في الوقت المناسب، دائماً يتأخر الوقت، ولكنا، نبدأ، قم، انهض، اغتسل.

منتديات الكوكب الماشر

: لقد فات الأوان.

: دائماً يفوت الأوان، ويلحق به الإنسان.

: لم أعد أستطيع اللحاق بالأشياء.

: قم انهض واغتسل.

لقد تأخرت، أنا خاسر.

قم، انهض، اغتسل.

،

قم، انهض.

،

قم،

منتديات الكوكب العاشر

ويستمر الحوار، بينما يمدّ حرز القش، ويمد فوقه بطانية سوداء، ويشعل سيجارته ببطء، ثم يرميها بين أكوام القش المتكدسة تحته، فيحترق كل ما في المكان، البطانية، الملابس، جسد حرز، و:

**[حذرتك ألا ترتل هذا النشيد، فيسكن في ذاكرتك، يأسرك ويلعنك، يفتنك فيستحوذ عليك، ولا يكون لك منه فرار، فيعدمك،]**

وكانت أرض تبكي حزينة، وهي تهدهد الصغيرة آثام، وقد قالت، بعد سنوات، للصبية السوداء، ذات العيون الزرقاء: آثام:

«ولقد تلوت صيغتي على جميع أبنائي وأبنائهم وبناتهم، فأهملوا، إلا حرزاً، فحقّت عليه اللعنة»

ومدت شعرها الطويل، من جدار، إلى جدار، صانعة منه أرجوحة، تغفو فوقها الصغيرة «آثام» وتدندن لها لحناً حزيناً، وتتلو عليها من جديد، على تلك الصغيرة السوداء، ذات العيون الزرقاء:

**[أحذرك ألا ترتلي هذا النشيد، فيسكن في ذاكرتك، يأسرك ويلعنك، يفتنك فيستحوذ عليك، ولا يكون لك منه فرار، فيعدمك، وحيدة تموتين وتشم رائحة رحيلك الأرض، ولن ينقذك من عذابك إلا عيد يأتي في ربيع يتلو رمادك]**

ثم ضحكت أرض، من مكر اكتشفته للتو، قامت به كنتها إغماء، إذ حولت الصغيرة من صيغة تحذير من الإثم، إلى الآثام، عبر تسميتها: آثام!

لذلك، فإن الفتاة السوداء، ذات العيون الزرقاء، حين خاطبت أرض معاتبة، لم تتمكّن أرض من استعمال دفاعها قائلة أحذّرك، بل قالت:

[لقد تلوت صيغتي على جميع أبنائي وأبنائهم وبناتهم، فأهملوا، إلا حرزاً، فحقّت عليه اللعنة]

**تجري أحداث هذه الرواية، بأزمنتها المتعددة، على خلفية مشهد احتراقه، أجل، يظل مشهد الاحتراق ثابتاً، بينما تتحوّل أزمنة القصّ، وتتعدد مستويات القصّ، وتتبختر راويات العمل، على خلفية آلامه.**

وحين توقفت أرض عن الغناء، لتلك الصغيرة السوداء، ذات العيون الزرقاء، كانت جثة حرز قد تحّولت إلى رماد، وبهذا وفت صانعات

منشورات الكوكب العاشر

هذا العمل بوعدهن: ينتهي مشهد الاحتراق، مع نهاية القصّ، فما إن قاربت هذه الرواية على الانتهاء، حتى تحولت جثة حرز إلى رماد، حتى توقف الكورس عن الإنشاد، وكادت هذه الرواية أن تنتهـ

٢٠٠٠/١٠/١٥

منتديات الكوكب العاشر

منتديات الكوكب العاشر

# فصل إضافي

منتديات الكوكب العاشر

**{تجري أحداث هذا الفصل، على خلفية موسيقية للصيغة الملحّنة، ينشدها الكورس الأبدي، ولولا صعوبة كتابة هذا الفصل فوق نوتة تحمل لحن الصيغة، وصعوبة قراءة النوتة لمن لا يجيد ذلك، لقمنا، نحن كاتبات هذا العمل، بطباعة الفصل الإضافي على نوتة لحن الصيغة. حذرتك ألا}.**

حين احترقت جثة حرز، كدت أكمل عبارة: انتهت، إلا أن أرضاً، التي كانت تعيش مشاعر متضاربة، وهي تشهد الأحداث من علوها، أحست وقبل أن أكمل «انتهت» أن عليها التدخل، وأنها ربما تحمل مسؤولية ما، فيما حدث.

وكما جميع الأشياء الهامة التي لا تأتي، أو تأتي في غير أوانها، فكأنها لم تأتِ، انطوت أرض على جسدها، وحطت في القلعة الثانية، وإذ ذاك، حدث المشهد الإضافي، التالي:

لو كانت ثمة إضاءة، لتمكّنت من الوصف، إلا أن الظلمة، تجعلني أتلمس وأتحسس لأكتب:

ظلام مطلق، كدخول في ضباب، لا يريك جارك السائر إلى جوارك، هي هكذا تلك الظلمة، تلك الظلمة التي ترعب الصغار، وتقلق الكبار، وتحيّر الروائيين، فأنا حين أحاول وصف الأشياء داخل الظلمة، أخالني أرتبك، فهل هذا الهمس والهسيس وتبادل الآهات الصامتة، هي أصوات جثث ساخنة ماتت للتو، أم هي أصوات صراصير وجرذان، أم أنها احتكاك غطاء الطاولة بساقها، أم؟

شيء مربك، وكي أقرّب المشهد، أعتمد على حاستي اللمس والسمع، فأصف لكم، داخل الظلمة، مشهداً في الظلام، ولا يمكنني أن أقول: ساعة معلّقة على الحائط تشير إلى السابعة صباحاً، أو، يتدلى كمّ معطف أرض الشتوي من ذراع الأريكة، حيث رمته مسرعة نحو الداخل، أو أن حذاء حرث هو الشيء الوحيد الذي لم يصبه الاهتراء، بل، سأقول التالي:

في قلب الظلمة، حيث السواد، الفراغ، والظلمة هي السواد الفارغ، أو الفراغ الأسود، عكس الضباب، الذي هو الفراغ الأبيض، ثمة أصوات تأتي متقطّعة، كأن شجاراً ما لا يكتمل، أصوات لا يُعرف أصحابها، فقد سمعت مثلاً: لقد مـات، وتردد صدى «مات» طويلاً، كأنهم جالسون في ممر طويل، أو كأنني في قطار، لا يصل، ثم تلتها، بعد صمت طويل، مملّ، مخيف قليلاً، جملة: لماذا نحن هنا إذن؟

ثم ارتطم شيء ما بشيء ما، فصرخ أحد ما، ولُطم أحد ما، الذي

صرخ، أو ربما، التي صرخت، وكان صوت الصفعة، أقوى من صوت الصرخة، ثم تلى الصفعة تأوه ينمّ عن ملل، ثم سمعت من قال: كفى. لنبدأ،

وكما الاستعدادات التجريبية لحفل ما، يُرهق حاضر الحفل باكراً، بتجريبات الميكروفون «ألو، ألو» بعدة نغمات، حتى يستقر عامل الصوت على عمل أجهزته، وكذلك تجريبات الإضاءة، فكأن تلك الحركات في الظلام، مشهد تجريبي، للمشهد القادم.

أتقدّم أكثر في القصّ، والحركة، يلامس جسدي شيء حار، أمدّ يدي لأتلمّسه برعب، فأعثر على رماد ساخن، ويهمس صوت: هذه جثتي، فأرتعب وأتعرق، وأقرر أن أستمر، لا بد من إنهاء هذه الرواية، أرتطم بشيء، أسقطه على الأرض، يُصدر دوياً هائلاً، كأننا في ممر طويل، أو قطار، تصرخ امرأة: هل ثمة أغراب بيننا؟ فأحبس أنفاسي من الرعب، وتقترب، مرتطمة بي، شخصية تهمس في أذني: لقد عرفتك، سأدلك على مكان تجلسين فيه دون أن يشعر بك أحد، تحق لك كتابة الفصل الأخير، وأمسكت بيدي، كانت يدها لزجة، وساخنة، همست ثانية: إنها دماء حرز، إني ألهو بذلك! أعتقد أنها جدار، تلمّستُ ما قدمته لي، فعرفت فيه مقعداً، جلست عليه، بمأمن من الارتطام بأحد أو ارتطام أحد بي، وتابعت المشهد اللامُشاهَد:

«لكنه مات» صوت جلجل في الظلمة، مع أصوات وقْع أيد تخبط على سطح خشبي، قد تكون مائدة طعام، أو طاولة اجتماعات، أو مؤتمرات، وربما، طاولة تشريح، أو تغسيل الموتى.

وانفجر صوت ببكاء ناعم متقطّع،

منتديات الكوكب العاشر

وصرخ صوت أنثوي قوي: كفى، لنتحدث.

وكان المتحدثون يهمسون.. لماذا؟ لا أعرف، وكنت أحاول أن أسمع، وقد أضعت الكثير من الجمل، بسبب الظلمة، لا، بل بسبب الهمس، بل، نعم، ربما كانت الإضاءة ستساعدني في التقاط الكلمات من شفاه الناطقين بها، فأفهم الكلمات المهموس بها من حركة الشفاه، ولكني، رغم الظلمة، التقطت القليل:

أنت مجرمة، لقد اتفقت مع ذاكرة، لتحطيم حفيدي.

لا يا حرث، لا تقسُ علي، فكما هو حفيدك، يكون حفيدي.

فلماذا فعلت؟

أنا لم أفعل، هو فعل.

من أحرق حفيدي؟

هو.

أنت أوحيت له، أهكذا تكون الأرض، أنت وطنه، فكيف رميته؟

لقد فعل بنفسه ما فعل.

لقد وضعتِه في قلب الحكاية.

إنه صانعها.

أنت اخترعت الحكاية.

إنهما حرث وأرض إذن، وتردّ أرض على زوجها الميت:

أنتم الأجداد، تتعاملون مع الأمور بعاطفية، أنا لم أتّفق مع أحد ضد أحد، أنا تلوت الصيغة، فلماذا استجاب هو، لقد تلوت صيغتي

منتديات الكوكب العاشر

على الجميع، فما اكترثوا، فلماذا يتبرع هو بالاكتراث؟

وجاء صوت حرز: أهكذا يُردّ على من يُطيع؟ ثم تابع: أخ، فكأن ثمة من عبث برماده فآلمه.

وردّت أرض: من يُطع دون تأمل، يُردّ عليه كذلك.

حاولت الانزلاق عن مقعدي، والزحف نحو مصدر الصوت، لأحدد للقارئ شخص المتحدث، فأنا أسمع أصواتاً لا أعرف أصحابها، فحين سمعت صوتاً رقيقاً يقول: لكنك في النهاية تسببت في دمار جدي، حرز، وقالت أرض التي عرفت صوتها: أنتم الأحفاد هكذا، تتعاملون مع الأمور بعاطفية، لقد تلوت خطابي على الجميع، لماذا اكترث جدك حرز، ولم يكترث أبوك وأعمامه وأبناء عمومته. فعرفت أن الموجّه لها الخطاب، هي آثام، وتحسست المقاعد بيدي، وعثرت على مقعد فارغ، جلست عليه، فصرخ صوت تحت مؤخرتي:

أما كفاكم قتلاً لي، هذا رمادي تبعثرون، فما بقي لي من أثر!

وثارت فوضى، فصرخت أرض: ثمة أغراب هنا!

وقالت آثام: أضيئوا النور.

فصرخت جدار: لا، سوف تكذبون.

وقالت أرض: أضيئوا النور لتفتيش المكان، ثم أطفئوه مجدداً، لنتابع التحكيم.

وانزلقت بسرعة، وقد علق على ملابسي من رماد جثة حرز ما علق، وشعرت بيد لزجة وساخنة تمسك بي وتقذفني نحو جدار،

منتديات الكوكب العاشر

وتغلق خلفي باب.

وأُضيء المشهد.

[طلبت مني جدار التي أخفتني عنهم، أن أشطب المقطع الوارد في وصف ما رأيت، ورغم احترامي الكبير للقارئ، إلا أني لم أتمكن من معاندة جدار، التي كان لها الفضل في تسجيل فصل التحكيم، فلولاها لانكشف أمري، وما عرفت بنتيجة التحكيم، لذلك، أقدّم اعتذاري للقارئ، لأني لن أستطيع كتابة وصف ما رأيت، لكني سأذكر فقط أسماء الذين حضروا التحكيم، وهم: حرث، أرض، آثام، جدار، إغماء، ذاكرة، رماد حرز، ودون أن يعرفوا: أنا]

منتديات الكوكب العاشر

وأعيدت الظلمة، تلك التي هي انفتاح على الاحتمالات، حيث الظلمة الانهزام من التحديد، ذلك الاحتمال المنتهي للأشياء، وهي التركيز الشديد للاعترافات، ومن هنا كان إجماعهم على التحكيم داخل الظلمة، اعترافات ـ حوارات ـ اتهامات ـ دفوعات ـ بلا خوف ـ بلا رهبة الآخر ـ ذلك الذي حين تقع عينه في عيننا، يترك أثره، فنهابه، نجبن، أو نتحدث خائفين، مرهوبين، الظلمة هي إلغاء لذلك الآخر، نفيه، إنها، وضمن هذا التحكيم، تأكيد وتركيز للأنا، الحاكم، والمحكوم عليه.

ـ فبماذا تطوع جدي؟

ـ بالتصديق، لقد تقيّد بحرفية الصيغة «وتشم رائحة رحيلك الأرض» معتقداً أن ذلك الرحيل مقدر عليه هكذا.

ـ أكان موتي اختياراً مني؟

ـ نعم، لأنه لم يكن ردّاً على تلك الصيغة، ولا ربطاً بها.

ـ أيكون موتي مجانياً إلى هذا الحد، ألست المعني بها؟

ـ وتلك الصيغة؟

ـ ما هي؟

ـ ماذا تكون؟

ـ الظلمة؟

ـ لا، أعني الصيغة؟

ـ ناولني تلك الورقة.

ـ لا أوراق هنا.

ـ ثمة أغراب هنا.

ـ هل تمّت.

ـ ليس بعد.

ـ كيف.

ـ جدار.

ـ من هي.

ـ تلك الصيغة.

- السر لا يزال مختفياً، فتشوا عنه في الرقم المحظور.

ـ لا أحد يفهم.

ـ الجميع يفهم.

- لا أحد يفهم.

- الحظر في القوة، لقد كان قوياً، فصنع حياته، وصنع..

منتديات الكوكب العاشر

ـ لماذا تتهربين؟

- لا تقاطعوني، هنا قوة العمل.

ـ أي عمل؟

- هذه الرواية.

ـ عمّ تتحدثون، أنا لا أفهم.

ـ بل جميعكم تفهمون، كلكم قتلة.

ـ أنتم الأجداد والأحفاد تأخذون المسائل بعاطفية.

ـ والجدة، أهي رمز القسوة.

ـ أجئتم لمحاكمتي؟

ـ نحن نتحاكم.

ـ المحكوم عليه هو حر.

ـ أرض.

ـ جدار.

ـ يكفي، سأضع حداً لكل ذلك، اصمتوا جميعاً أرض وجدار وذاكرة. اخرسوا.

ـ ما كان ينقصنا إلا هذا، اطردوها، اللعنة عليها.

ـ لا تسقط عليها اللعنة.

ـ كيف؟

ـ تقصدين لماذا.

ـ لماذا؟

منتديات الكوكب العاشر

ـ لأنها اللعنة.

ـ لماذا؟

ـ تقصدين كيف.

ـ كيف؟

ـ هل تمت؟

ـ إنها جدار.

ـ الظلمة.

ـ لا، الصيغة.

ـ والترتيلة؟

ـ قاتلة، محظورة، ممنوعة، فيها تكمن القوة.

ـ أية قوة؟

ـ قوة هذه الرواية.

ـ عم تتحدثون، أنا لا أفهم.

ـ بل جميعكم تفهمون.

ـ ترتيلة العدم.

ـ أجل.

ـ الرواية؟

ـ نعم.

ـ إذن لا شيء؟

ـ نعم، لا شيء، لقد انتهى كل شيء، وهو لم يبدأ يوماً.

منتديات الكوكب العاشر

ـ ثمة أغراب هنا.

ـ يحاولون اكتشاف السر، ولكنه أعصى من ذلك.

ـ إذن؟

ـ ماذا؟

ـ لينته كل هذا.

ـ لم أنتهِ بعد، أريد محاسبة الظالم.

ـ كفاك، أنت مجرد جثة محترقة، أين رمادك؟

ـ كان ثمة أغراب، علقت جثتي بهم.

ـ هه، دون رماد لا يحق لك الحضور.

ـ أنت دون رماد، كيف تحضر.

ـ لنلغ الـ

ـ لقد كنت،

ـ ذلك انتهى.

ـ وتلك الرواية؟

ـ أية رواية؟

ـ أعني تلك الأوراق.

ـ لا أفهمك يا حرث.

ـ لا بد أن المقصود هو تلك الصيغة.

ـ أجل، لقد بدأنا بها.

ـ أما من نتيجة؟

منتديات الكوكب العاشر

ـ أشعر دوماً بأن هذا قد حدث من قبل.

ـ نعم، أنا أيضاً أشعر بأني عشت هذا من قبل.

ـ لا بد أني حضرت هذا المشهد من قبل.

ـ فكيف انتهى من قبل؟

ـ لا أذكر.

ـ أنهوا هذه الجلسة، لقد سئمت.

ـ اخرسوا جميعاً، لقد مات جدي متأثراً بهذه الساحرة القذرة ذاكرة، فكيف أغفر لكم!

ـ اصمتي يا صغيرة، لولا اسمك لأسقطت عليك اللعنة.

ـ سأقتلع عين الفاعل، كما اقتُلع جزء من الحياة.

ـ لقد فعل بنفسه.

ـ أهكذا يُجاب من يطيع.

ـ من طالبك بالطاعة؟

ـ أهي مشكلتي أني صدقت!

ـ مشكلتك أنك آمنت.

ـ أو يكون الإيمان خطيئة؟

ـ،

ـ أكان يجب أن أكذّب!

ـ كان يجب!

ـ لكني أحببتك.

منتديات الكوكب العاشر

ـ الجميع أحبني، فلماذا لم؟

ـ أكان موتي تبرعاً مني، أما كان الحكاية؟

ـ الحكاية ليست عندك، لماذا تعتقد أنك بطلها.

ـ هه هه لقد صار بطلها.

ـ عن غير قصد.

ـ ربما عن قصد.

ـ بقصد الشهرة.

ـ من أجل الرواية.

ـ أية رواية؟

ـ كفوا عن الثرثرة، لا أريدها.

ـ من هي؟

ـ تلك الظلمة.

ـ بماذا تهذين؟

ـ أعني، تلك الصيغة.

ـ جدار.

ـ لا أحد يلفظ اسمي، أنا امرأة حسنة السمعة.

ـ ثمة أغراب في هذا المكان.

ـ أشعر دوماً بأن هذا قد حدث من قبل.

ـ نعم، أنا أيضاً أشعر بأني عشت هذا من قبل.

ـ لا بد أني حضرت هذا المشهد من قبل.

منديات الكوكب العاشر

ـ فكيف انتهى من قبل؟

ـ لا أذكر.

ـ أقول، ثمة أغراب في هذا المكان.

ـ لاستمرار الفساد.

ـ لكشف الأكاذيب.

ـ اخرسي!

ـ أضيئوا المكان، سأفتش بنفسي، أنا لا أثق بكم، ثمة أغراب هنا.

ـ لا، يجب أن يستمر التحكيم، سيحاسب المتسبب.

ـ إنها هي.

ـ الظلمة؟

ـ ربما.

ـ لم تقولي الصيغة.

ـ تتساوى الأشياء في الظلمة.

ـ الصيغة الجديدة.

ـ الأنا.

ـ من تكون؟

ـ حرز جديد.

ـ فلماذا لم؟

ـ لأنه لا،

ـ كيف؟

منتديات الكوكب العاشر

ـ أعني، لولا أن،

ـ لماذا لا تكملين؟

ـ يئست.

ـ أنا خائفة.

ـ ما زلت صغيرة على الاعتراف.

ـ الحقيقة صعبة التصديق.

ـ إنها هكذا لها وجه واحد.

ـ أكرهها كثيراً.

ـ الحقيقة؟

ـ لا.

ـ الظلمة؟

ـ لا.

ـ تلك الصيغة؟

ـ لا.لا.لا

ـ من؟

ـ أرض.

ـ كيف؟

ـ تعنين لماذا؟

ـ لماذا؟

ـ لأنها صنعت الحكاية.

منشورات الكوكب العاشر

ـ إنها رواية، مجرد رواية!

ـ ومات حرز، من أجل مجرد رواية!

ـ ها هو أمامك.

ـ برماد ناقص عالق في مؤخرة الأغراب.

ـ سأعيده.

ـ كيف؟

ـ سأعيده.

ـ من تظنين نفسك، أنت مجرد ساحرة فاسدة!

ـ اخرسي!

ـ أعيديه إذن.

ـ سأعيده.

ـ كيف؟

ـ أضيئوا المكان.

ـ اقتلوا الأغراب.

ـ كفى، سئمت الثرثرة.

ـ اللعنة على كل شيء.

ـ أضيئوا المكان، سأختنق من الظلمة.

ـ ثمة أغراب في هذا المكان.

ـ أشعر دوماً بأنّ هذا قد حدث من قبل.

ـ نعم، أنا أيضاً أشعر بأني عشت هذا من قبل.

منتديات الكوكب العاشر

ـ لا بد أني حضرت هذا المشهد من قبل.

ـ فكيف انتهى من قبل؟

ـ لا أذكر.

ـ لنرتل معاً.

ـ هذا غباء، هذا تحدٍّ.

ـ بل هذا إنقاذ، لنرتل معاً.

ـ لنرتل معاً:

«آه باه تاه

جاه داه زاه

ساه شاه كاه

فاه كاه لاه

ناه وره ياه»(١)

ـ توقفوا، المكان يهتز.

ـ رتلوا، رتلوا،

ـ لنرتل،

أُضيء المكان، لا أزال أسمع التراتيل، لا أحد أمامي، إلا أن التراتيل مسموعة. ثمة أوراق متروكة على الطاولة، خطّ كل منهم كلمة في

منتديات الكوكب العاشر

(١) لست متأكدة إذا كان هذا ما سمعت، ثمة اختلاطات في الترتيل جعلتني أدوّن بسرعة ما أسمع.

الظلمة قبل أن ينهمك في الترتيل. حين اقتربت من الطاولة، وقرأت عبارات الجميع، كانوا قد اتّفقوا جميعاً، وكتبوا كلمة واحدة، حتى أرض، وحرز، أقصد رماد حرز، لقد وقّع كل منهم، أسفل كلمته، ليتحمل نتيجة تلك الكلمة السحرية، وكانت جدار قد كررت تلك الكلمة على وجهَي الورقة، نعم، اتفق الحضور على كتابة نص الترتيلة، التي لم يكن مسموحاً أن يعرفها أحد، حتى لا يصاب بألق ترتيلها، فتسقط عليه اللعنة، كان من المسموح ترتيل هذا النص ضمناً، في القلب والعقل، ومن غير المسموح ترتيله جهاراً، إلا أنهم قبل أن يرحلوا رتلوها بصوت واحد، مدونين هذه الكلمة:

انتهت.

وتوقف الكورس عن الترتيل

٢٠٠٠/١١/١٠

منتديات الكوكب العاشر

## ملحق ١

## دليل الأسمـاء:

أرض + حرث = ما يلي:

منتديات الكوكب العاشر

| زوجة الشق الثاني | زوجة الشق الأول | شق التوأم الثاني | شق التوأم الأول | الرقم المتسلسل |
|---|---|---|---|---|
| أداء | بيداء | أداء | زلزال | ١ ـ التوأم الأول |
| دعاء ـ فداء | حياة ـ أعياء | أسرار | أحوال | ٢ ـ التوأم الثاني |
| أضواء ـ احتواء ـ هباء | خفاء | اشتياق | آفاق | ٣ ـ التوأم الثالث |
| مساء | سماء | ضجر | صخر | ٤ ـ التوأم الرابع |
| فضاء | سقاء | انبهار | معبد | ٥ ـ التوأم الخامس |
| شفاء | وعد | تلال | رمال | ٦ ـ التوأم السادس |
| إغماء | أشياء | عناد | سمات | ٧ ـ التوأم السابع |
| دواء ـ هناء | {أعزب} | عماء | رؤية | ٨ ـ التوأم الثامن |
| سواد ـ نقاء ـ سخاء {بعد طلاقهن من الشق الأول} | سواد ـ نقاء ـ سخاء {تم طلاقهن} | انتظار | ثرى | ٩ ـ التوأم التاسع |
| أسماء | ثراء | سؤال | إتيان | ١٠ ـ التوأم العاشر |
| إحياء | عطاء | جواب | حساب | ١١ ـ التوأم الحادي عشر |
| نداء | دعاء | حياء | انعتاق | ١٢ ـ التوأم الثاني عشر |
| | | أعزب | طُهر | ١٣ ـ الفرد: الخامس والعشرون |

## ملحق ٢

### دليل الأسماء، الأبناء:

| الأب والأم | النوع | الاسم |
|---|---|---|
| زلزال وبيداء | أنثى | ذكريات |
| زلزال وبيداء | أنثى | ذنوب |
| عشواء وأداء | ذكر | تسول |
| عشواء وأداء | ذكر | بهتان |
| أحوال وحياة | أنثى | أنّات |
| أحوال وأعباء | أنثى | آهات |
| أسرار وفداء «فداء وأعباء، شقيقات، وسلائف» | أنثى | حسرات |
| أسرار ودعاء | ذكر | بكاء |
| خفاء وآفاق | ذكر | ذيول |
| اشتياق وأضواء | ذكر | تذلل |
| اشتياق واحتواء | ذكر | تضرع |
| صخر وسماء | أنثى | خشية |
| صخر وسماء | أنثى | وحشة |
| صخر وسماء ــ جدار | أنثى | نجمة |
| معبد وسقاء | أنثى | دمعة |
| انبهار وفضاء | أنثى | حسرة |
| تلال وشفاء | أنثى | لوعة |
| تلال وشفاء | أنثى | رعشة |
| سمات وأشياء | أنثى | أنغام |
| سمات وأشياء | أنثى | ألحان |

منتديات الكوكب العاشر

| | | |
|---|---|---|
| سمات وأشياء | أنثى | قسوة |
| سمات وأشياء | أنثى | إهمال |
| سمات وأشياء | أنثى | رأفة |
| عناد وإغماء ← تزوج من حداد فأنجب غياب، ومن سيمياء فأنجب شمس، غياب + شمس ← آثام | ذكر | حرز |
| عماء وهناء | ذكر | حلاوة |
| عماء وهناء | ذكر | بغتة |
| عماء وهناء | ذكر | صدفة |
| ثرى وسواد | ذكر | غفلة |
| ثرى ونقاء | ذكر | وهلة |
| ثرى وسخاء | ذكر | مرة |
| انتظار وسواد | أنثى | عنوة |
| انتظار ونقاء | أنثى | صفوة |
| انتظار وسخاء | أنثى | نخوة |
| إتيان وثراء | ذكر | قدوم |
| إتيان وثراء | أنثى | هموم |
| سؤال وأسماء | ذكر | سموم |
| سؤال وأسماء | ذكر | أمور |
| سؤال وأسماء | ذكر | فتور |
| سؤال وأسماء | ذكر | حبور |
| سؤال وأسماء | ذكر | صبر |
| سؤال وأسماء | ذكر | مرور |
| سؤال وأسماء | ذكر | عبور |
| انعتاق ودعاء | أنثى | هباء |
| حياء ونداء | أنثى | ضياع |
| حياء ونداء | أنثى | انتهاء |

منتديات الكوكب العاشر

# المؤلفة

منتديات الكوكب العاشر

كاتبة وروائية سورية

تكتب في بعض الصحف والمواقع العربية.

نُشرت شهادتها عن حرية الصحافة في سورية في التقرير السنوي لمنظمة «مراسلون بلا حدود» لعام ٢٠٠٤.

حاصلة على جائزة هيلمان/هامت التي تنظمها منظمة Human Rights Watch الأميركية في عام ٢٠٠٥.

مقيمة في فرنسا.

**الأعمال المطبوعة:**

«**اللامتناهي ـ سيرة الآخر**» رواية، عام ١٩٩٥، دار الحوار، اللاذقية ، سورية.

«**لوحة الغلاف ـ جدران الخيبة أعلى**» رواية، عام ٢٠٠٢، سورية.